

انتهازيون... ولكن

رواية




مكتبة الإكسير الإلكترونية
Al-Exir Electronic Library
انتهازيون... ولكن

رواية

علاء مندوب

انتهازيون... ولكن





انتهازيون... ولكن

علاء مشذوب

Opportunists... But

Alaa Machzoub

الطبعة الأولى: 2016
إصدار دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790 - 07700492576 - email: bal_alame@yahoo. com

First Published by Dar Sutour For Publishing and Distribution
Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry

الترقيم الدولي ISBN: 978-1-9882952-7-5

الإهداء

القراء الكرام.

للأحلام التي تنتهك عند كل محراب مقدس.

أخي ستار مشذوب تبقى في البياض أبدا.

(1)

رمضان أصفر

اليوم هو الأخير من أول رمضان ما قبل الاحتلال الأمريكي، ولم يبق على مدفع الإفطار سوى أقل من ساعة، هو الوقت الذي يفصل (عادل) عن داره ليتناول الإفطار مع زوجته وأولاده، يسير على الجانب الأيسر بسرعة فائقة، صادف ان فاجأته سيارة (بيك آب) يقودها فلاح، كان يسير ببطء، فتح له عادل الإضاءة العالية لأكثر من مرةٍ، ومن ثم خفف السرعة، أعاد فتح الإضاءة مرةً أخرى، لكن الفلاح لم يتحرك من الجانب الأيسر، ضغط على المنبه لأكثر من مرةٍ وبشكل متقطع لكنه، لم ينتقل الى الجانب الأيمن.

كان التسبيح الذي يعلنه راديو السيارة، يزيده سرعة، فكر بأن زوجته اليوم قد جهزت مائدة تختلف عن كل موائد الأيام السابقة، نعم انه اليوم الأخير من شهر رمضان، ولابد ان يكون متواجداً مع عائلته ليحتفي بهم ويحتفوا به.

فكر بأن يتجه بالسيارة الى الجانب الأيمن ويدع الفلاح نائما في الجانب الأيسر، بالرغم من أن هذا التصرف هو خطأ مروري قاتل،

ولكن ليس هناك حل آخر، وإلا فان موعد الإفطار سيعلن، وسيغيب عن لحظة الإمتاع التي يتوق لحضورها.

هبط مؤشر السرعة إلى الرقم (150)، وقبل ان يصله بمسافة معقولة، انحرف عن الجانب الأيسر باتجاه الجانب الأيمن على أمل اجتيازه.

* * *

أتصل الذي يجلس قربه بأخوته يعلمهم بأنه في مستشفى المنطقة التي وقع فيها الحادث المروع، الذي راح ضحيته سائقه عادل أما عن وضعه الصحي، فهو بصحة جيدة، باستثناء بعض الرضوض، ونثار زجاج السيارة الذي انزرع في أغلب مناطق جسمه وبالخصوص في رأسه ووجهه والمناطق المكشوفة الأخرى.

هرع أخوته صوب المستشفى، ومن ثم إلى منطقة الحادث، وكانت السيارة عبارة عن لوحة تشكيلية تنتمي الى المدرسة التكعيبية، ضُغِطتْ أجزاؤها مجتمعة حتى اتحدت في مكان واحد، وأصبحت كتلة حديدية غير متناسقة، عادوا بعدها إلى مركز الشرطة، ليخرجوا أخاهم بكفالة، لاحتمال وجود تبعات قانونية عن الحادث، أو المتوفى، أو أي إجراء قانوني آخر.

في طريق عودتهم إلى البيت، سرد لهم أخوهم الحادث بالتفصيل، وكيف أنه كان يطلب من المرحوم عادل أن يخفف السرعة، ولكنه كان لا يرى سوى مدفع الإفطار وهو يتأهب للإطلاق، وكثيرا ما كان يستعجلني الرجوع من أجل الوصول قبل موعد الإفطار، مثلما كنت ألاحظ حيرته ومحاولاته المستمرة في تنبيهه المستمر لسائق الـ(بيك

آب) كي يتنحى عن الطريق السريع دون فائدة، حتى قرر ان يتحول هو إلى الجانب الأيمن ليجتازه، وكانت الواقعة...

ففي اللحظة التي بدأ فيها اجتيازه تنبه السائق إليه، وقرر أن يتنحى هو الآخر، فأزاحه خارج الشارع المعبد الى حيث الترابي، ومن ثم الحفريات، لتحلق السيارة في الهواء، لأكثر من ثلاثة أمتار وكأنها دمية، أو مشهد سينمائي لحادث مروع، ثم سقطت على مقدمتها في مبزل كانت بقايا مياهه آسنة وراكدة.

لكن ثواني الطيران تلك بدت زمنا طويلا من الهلع، حتى لحظة الاصطدام المخيفة التي حطمت قفصه الصدري، وأوقفت قلبه عن النبض وصادرت تلك الحياة الضاجة بالأحلام والأماني بقسوة مفرطة.

استلمت جثة المرحوم بعد أن أجري لها التشريح اللازم كإجراء روتيني، ونصب مجلس العزاء، وكان ذلك أول أيام العيد، هو أول أيام حزن العائلة، وأول أيام مصادرة فرحها، وربما لن تصبح بسمات الفرح القادم سوى تعويضات باهتة عن فرح عميق وغائب، وكان أخوة صاحب السيارة - كالعادة - حاضرين في المراسم، دون صاحبها لخوفهم من تهور أحد أخوة المرحوم، والاعتداء عليه في كونه السبب في وفاته، فقد حلمت أم عادل، حلما سعيدا بأن يأتيها أحدهم بثوب أبيض، مصحوبا بنداء من السماء، وعندما علمت برحلة ابنها عادل مع صاحب العمل نهته عن ذلك، إذ ان تفسير الأحلام في الواقع يكون على العكس منه في الحلم، إلا ان صاحب العمل أصرَّ على ذلك، ولم يكن من بدٌّ للمرحوم إلا ان يكون صاغراً لأوامره، والذهاب معه فكان ما كان.

لم يمض على أربعينية الفقيد زمن طويل، حتى سكن الجرح، وجف الدم، وبدأ البعض يسأل عن حقوق زوجة عادل وأولاده، والمعيل الذي سيتكفل بهذه العائلة التي أمست دون معين، على الرغم من أن زوجته موظفة في وزارة التربية، ولكن لم يكن لراتبها أن يصمد حتى الثلث الأول من الشهر.

لم تشأ الزوجة ان تغادر بيتها، وهي كفيلة بتصريف شؤونها وعائلتها، لكن المحيطين بها وأهلها، رفضوا أن تبقى زوجة لم يلامس عمرها بعد الخامسة والثلاثين، مع طفلين في الدار وحيدة، فأقترح عمها والد زوجها، بأن تأتي لتسكن معهم في بيته الكبير.

وكان أبو عادل، من عائلة متوسطة الدخل، كما هو متوسط الطول، يرتدي البذلة في الدوام الرسمي، ويرتدي الثوب مع الكوفية المرقطة، والعقال عصرا، يسكن منطقة المسيب، وله أخ واحد تعرض ابنه لحادث غامض، مما أدى لقطع ساقه اليسرى...

نزح إلى محافظة كربلاء بعد أن نقل من دائرته الى مصلحة نقل الركاب، وقد حصل على قطعة أرض وبنى عليها داراً، وترك الباقي حديقة هي أقرب الى بستان صغيرة، وحوَّل الجانب الخلفي منها الى ما يقرب حديقة للحيوانات الأليفة وبالخصوص الماعز الشامي، الذي كان لا يمل الحديث عنه، وعن نباهته وجماله وكأنه يشابه الانسان، كذلك دجن بعض دجاج الكوجيو والأراتي والطيور الداجنة الزاجلة والملونة، وبفضل هذه التشكيلة من الحيوانات الأليفة، تحولت حياته من العمل الى البيت والعكس.

أرتبط أبو عادل بامرأة من مدينته، وهي من عائلة غنية، لوالدها كثير من البساتين والأطيان، وكان هذا يعود عليها، والعائلة بكثير من الأموال وبالتالي التحكم في قرارات العائلة المصيرية منها والتافهة. ولكنه في الوقت نفسه كان يحب ابنه الكبير بشكل مختلف عن الآخرين، لما فيه من عزة نفس وإباء، حتى حدث في يوم من الأيام سوء فهم بسيط، ما اضطر عادل إلى أن يغادر البيت واستأجر بيتا جديدا، على الرغم من ظروفه المادية الصعبة، بعد أن رفض محاولات أبيه المستمرة، إلا انه أصر على ان يبقى بعيداً لتبقى بينهم مسافة من الاحترام.

وفي الواقع كان الاختلاف بينهم، على اختيار الزوجة، في كون الأم رفضت اختيار عادل لزوجته، وأرادت هي أن تختار له الزوجة التي تريدها، ولكنه رفض، فتزوجها رغماً عنها، فما كان من الأب إلا ان أخذ جانب زوجته التي ظلت تتحين الفرص بحيث لم يمضِ على زواجها أكثر من ستة أشهر حتى خرج من دارهم، مدافعاً عن اختياره.

وبالعكس من الضيق الذي كان يُمارس على الأبناء، كانت (صباح)، الفتاة الوحيدة لهذه العائلة، تمتلك مساحة كبيرة من الحرية، وبالخصوص في كونها مدعومة من الأم، وكثيرا ما كانت تعود عليها تصرفاتها بالمشاكل الكبيرة، ولكن الأم كانت تغطي عليها، وبالخصوص العلاقات البريئة، مع بعض شباب المنطقة، فقد انسحبت على دراستها في معهد إعداد المعلمات، وبقيت في الدار على أمل أن يطرق بابها خاطب!

وفي المقابل، كان الابن الذي يليها (حسون) على العكس من ذلك تماماً، فعندما بلغ رغبة الزواج، أصرت أمه أن تزوجه من فتاة اعتقدتها

جيدة لها، وليس له، لم يكن أمامها إلا ان يكون صاغراً في تنفيذ رغبتها، والزواج منها، ولكن زواجهما وبالرغم من إفرازه طفلة جميلة، ذات شعر أصفر وعيونٍ زرقاء وكأنها فتاة ولدت في دولة أوربية، إلا ان الخلافات كانت تزداد بينهما، حتى انتهت بالطلاق، وراحت الفتاة مع أمها، بينما رجع حسون، ولدا أعزب يدور في غرفته، بعد أن سلبته طليقته كل أثاث بيت الزوجية ونصف راتبه الوظيفي.

لكن الابن الثالث (جبار) أراد أن يختصر الطريق لنفسه والآخرين، وبالخصوص أمه التي تمتلك القرار في البيت، بعد إحالة والده إلى التقاعد حيث أضحت حياته محصورة بين العمل صباحاً على خط نقل معلوم البداية والنهاية حتى الواحدة ظهراً، ليعود إلى البيت ويقضي باقي اليوم في حديقة حيواناته الشخصية.

فقد اختار أرملة تمتلك بيتاً وراتباً وطفلين، إضافة الى كونه موظفاً، حيث يسمح عمله بالحصول على بعض الأموال خارج مسارها الطبيعي أو الرسمي، كل ذلك، جعل موقفه أقوى في الدفاع عن اختياره، ولكنه على ما يبدو، كان أكثر وضوحا في مواقفه تجاه العائلة، وأخوته الباقين عندما يتعرض أحدهم لمشكلة أو تصرف يحتاج فيه إلى موقف حاسم، في الوقت الذي ذهب فيه حسون إلى الانغماس في مشاكله الشخصية مع طليقته ووضعه المادي السيئ.

عندما استجد موضوع وفاة أخيهم الأكبر عادل وبروز موضوع زوجته، لم يكن أحد يفكر بحلول جذرية، لهذه المشكلة، لأن الموضوع ليس في تدبير الطعام ليوم أو أسبوع، وليس حماية لشهر، أو سنة،

بل هناك عائلة انهدم ركن أساسي منها، وهو غياب الأب، والراعي لمصالحها. وبينما ظلت الزوجة، وأبناءها تتذبذب بين بيت أبيها لفترة، ومثلها في بيت عمها لفترة أخرى، أو في بيتها، تقدم جبار بطلب صدم الجميع، بل لم يكن أحد يتوقعه نهائياً.

كان بعض الكلام يتداول هنا وهناك، حول مقتل عادل والسبب من وراء ذلك، وهل يستحق من صاحب السيارة إن لم يكن راتبا تقاعديا، فجزية جرّاء الخدمة التي قدمها على مدى أكثر من خمس سنوات، أو فصلا عشائريا لأنه السبب في قتله؟ تبنى هذا الكلام أخوهم الذي يلي جبار وهو (خالد) الذي يعمل شرطيا في وزارة الداخلية.

أما الأخ السادس لهذه العائلة فهو (ناهض) وقد أصابه حادث سيارة، وأصبح ما بين مقعد، أو متعكز على عكازين، وهو بذلك لم يكمل دراسته، واستبدلها، بتعلم تصليح السيارات مع والده في كونه كان يقتني السيارات القديمة، وهي باستمرار تحتاج إلى إدامة.

بل إن العائلة باللاوعي كان لها هلوسة في موضوع السيارات، ربما لأن الأب هو القدوة لعائلته حتى لو كان قدوة غير حسنة، كما هي الأم لبناتها، حتى لو كانت انموذجاً غير جيد، والعكس صحيح... فكما الفتاة تعتقد في والدها الحب الأول، وتتمنى أن يكون زوجها مثله، فان الابن يعتقد في أمه الحب الأول ويتمنى أن تكون زوجته مثلها.

كان حلم أي من الأولاد وبمجرد أن يصبح له بعض رأس المال البسيط في أن يشتري سيارة أما بالتقسيط، أو بحاجة للكثير من الصيانة، ومن ثم يقوم ناهض بإصلاحها، الذي كثيرا ما كان يعتقد إن الحلم متى ما

تحوّل إلى واقع فسد مهما كان جميلا، مثلما هو الواقع متى ما تحول إلى حلم هفت مهما كان قبيحا. لذلك فان فرصة العمل كسائق التي جاءت للمرحوم عادل بمثابة عرض مغرٍ جداً، لأنه بعد انتهاء عمله كان يأخذ السيارة معه إلى بيته، مثلما كان ينجز فيها كثيرا من مشاويره الشخصية.

كانت هذه العائلة ذكورية بامتياز، وكثيرا ما كان الأولاد هم من ينجزون أعمالهم البيتية بأيديهم، مثلما كانت الأم تقوم بأعمال حصرية تخصها وزوجها... أما الفتاة فكانت أكثر من مدللة، تقضي أكثر وقتها في مشاهدة التلفزيون.

تنصل الجميع عن مفاتحة ارملة عادل عفاف بالزواج من جبار، في الوقت الذي زادها بقاؤها عائمة دون زوج تعقيداً، فقد انتهت (العدَّة) وهي تبدو في ثوبها الأسود أكثر نضجا واكتنازا. فهي فتاة جميلة ومثقفة ونظيفة، لها خصوصية في اللبس على الرغم من بساطته، ولها زينة بسيطة على الرغم من سحرها، كما أنَّ اعتناءها بولديها يعكس اعتناءها بنفسها، كانت أصابع يديها رقيقة ومترفة وموحية، ليست طويلة في العموم ولكنها مغرية حد الاشتهاء.

* * *

في أحد الأيام، عندما كانت (عفاف) تزور أهلها مع ولديها، طرق الباب عمها وابنه جبار في اتفاق مسبق بين الأبوين، وبعد مجاملات لابد منها، أصر أبو عادل على أن يفتح موضوع عفاف بحضورها، ووضع كثير من المعرقلات، التي تخنق المرأة المطلقة أو الأرملة، وبأن ضوابط المجتمع أكبر من أن نتجاوزها، بل على العكس، لها قيود يمكنها أن تخنقنا، وقد تؤدي حتى إلى قتلنا.

كانت عفاف قد اعتادت على مثل هذا الكلام، وبالتالي فكان تفاعلها يكاد يكون اعتياديا، وهي تدافع عن كيانها، وولديها، وبأنها امرأة كاملة النضج والأهلية، ولها وظيفة تحميها من العوز وكل شرور الآخرين، مثلما تحيطها عائلتان هما بمثابة الدرع الحصين لأي طارئ غير متوقع.

لم تفهم عفاف ما يرمي إليه أبو عادل من وراء كلامه، لذلك استقبلت الحديث بروحية عالية دون نية غامضة، لكن أباها، عندما شعر بعدم فهم ابنته للموضوع الذي يتكلم فيه أبو عادل، أفصح في قوله لها وقال:

ـ هل لك أن تبقي طول العمر دون زوج؟

ـ وما الضير في ذلك؟ فلم أعد أشتهي الحياة بعد زوجي، ولي عائلة صغيرة، أسهر على تقويمها، أفضل من أن أكون تحت رحمة زوج جديد لا أعرف ما يخبّئُهُ الزمن له ولي.

كان هذا الكلام بمثابة صدمة لجبار الذي كان يتعشم الحياد، إن لم نقل القبول، بل كان يشعر أن وجوده قد يفسر وجودهما أولا وحديثهما ثانياً، ولكن على ما يبدو، انه خارج تفكيرها نهائياً.

ثم بادر أبو عادل بالحديث من جديد، ولكن بلهجة لينة، لا يريد أن يجرحها به، معللا كلامه بأنه لا يريد لحفيديه أن يعيشا يتيمين، أو تحت وطأة رجل غريب، وكان هذا الكلام، بمثابة جرس رن بسرعة في عقلها، وفسرته على انه يريد أن يأخذ ولديها منها، ولم يدر في خلدها انه يُلمِّح إلى انه يريد تزويجها من ابنه الثالث أبدا.

لكنها لم تنتظر أن يتم كلامه، بل ردت عليه بعنف، دون أن تراعي أي شيء: لا توجد قوة في العالم تستطيع أن تأخذ ولديَّ مني أبدا... ورافق

صوتها حشرجة، مشفوعة ببعض الدموع التي غرغرت في عينيها وهي تشيح بوجهها إلى أبيها، وتنتظر منه أن يساندها قولاً وفعلا.

فلم يكن من أبيها، إلا أن تدخل محاولا إفهامها المقصود من وراء كلام عمها:

- أبنتي، لا توجد قوة في العالم تأخذ ولديك منك، مثلما لا يمكن أن يبقى الوضع عائما هكذا دون رجل يقوم برعايتك وأولادك (عندها فهمت أن الموضوع يخص زواجها).

لكنها علقت:

- ولكن المرحوم، لم يكمل حتى الآن سنة وفاته الأولى، لماذا انتم مستعجلون على زواجي، بودي أن تعرفوا شيئاً، أنا أحب المرحوم، ولا يمكن أن أستبدله بأحد مهما كان، وبالمناسبة هل لاحظتم عليَّ شيئا، يجعلكم تستعجلون زواجي؟ هل تصرفاتي غير جيدة؟ لماذا تعتقدون أنني أشكل عبئا عليكم. أرجوكم دعوني أعش على ذكرى زوجي وحياة ولديَّ، لقد أخذت نصيبي من الحياة، ولم يعد يطيب لي رجل بعد زوجي أبدا.

كان ذلك كلاما رادعاً للطرفين، أبيها وعمها وابنه، ولكن على ما يبدو، أن ذلك جعل جبار أكثر تمسكاً، ورغبة في الاقتران بها، فطلب الإذن من والده ووالدها بالحديث قائلاً:

- عزيزتي، نحن نقدر وفاءك لزوجك، واعتزازك بنفسك، ولكن وضعك يستحيل أن يبقى هكذا دون راعٍ، وعلى سبيل المثال، نحن لا نضمن ان تُسرق داركم في الليل أو مَن الممكن ان تتعرضوا لأي حادث

ونحن بعيدون عنكم، ومن ثم أنت ما زلت صغيرة عمر، وهذا مدعاة لأن يطمع فيك الآخرون، كما إنك لا بد أن تعيشي حياتك، وفي يوم من الأيام لابد أن يكبر أولادك ليشقوا طريقهم بعيداً عنك.

على الرغم من أن كلامه كان يحمل كثيرا من الرقة وربما (العشق) إلا أنها لم تتوقف على رقته وحنوه، قدر أسلوبه اللين الذي يحاول أن يستجلبها إلى منطقة وسط، يستطيع أن يلين شوكتها ويقرب لها الموضوع، ومع ذلك ردت عليه بالقول:

- كلامك صحيح، ولكنني لم أخلع ثوب الحزن بعد... وزوجي لم تمض على وفاته السنة الأولى... وأولادي مازالوا صغارا... ولي عائلتان هما أكبر خيمة أستظل بها، فلماذا تفتحون مثل هذا الموضوع معي (وأرادت أن تعرف من هو الزوج الملهوف الذي يريد الزواج منها إلا أنها خجلت من طرق هذا الموضوع)...أرجوكم أتركوني على الأقل سنتين، حتى يندمل جرحي، وأتيه في مشاكل ولديَّ ونفسي، وعند ذلك يحلها الحلال.

خرج عمها وابنه جبار على أمل أن يعقدا جولةً جديدةً من المناقشات معها، علّها تعود عليهما بالنجاح ويتم الزواج وينتهي هذا الموضوع، الذي لطالما، أقلق جبارا وأباه وعائلته عن كلام الناس، وبأن زوجة أخيه جميلة، وتخرج وحدها للسوق، أو تجلب ابنها الكبير من المدرسة، وغيره من الكلام الصحيح والمختلق.

وفي الوقت نفسه علمت عفاف وعن طريق أمها أن جبارا هو من يريد الزواج منها، وكان بمثابة الصاعقة بالنسبة لها، لم يخطر ببالها يوما من الأيام أن يكون طامعاً بها، وربما كان هذا الطمع حتى قبل وفاة زوجها...

دخلت عفاف غرفتها، وباللاوعي اتجهت الى مخزن أغراضها الشخصية، كانت تحتفظ بكل تفاصيل علاقتها مع زوجها المرحوم قبل الزواج وبعده، ذهبت الى ألبوم ذكرياتها الجامعية، كانت أول صورة فوتوغرافية بعد علاقة استمرت بينهما لأكثر من ستة أشهر، منحته بعدها ثقتها لتتصور معه، مسحت بيدها عليه، شعرت أن الحياة تنبض به من جديد، سألته تأخرت كثيراً، متى تعود؟ آخرون يريدون أن ينهشوا جسدي، الذي هو ملكك سيدي وحبيبي، عذ بسرعة قبل فوات الأوان.

قلبت الصفحة الثانية، وكانت الصورة في منطقة عامة، عند ساحة التحرير، من كل القيود، ساحة الثورات الخائبة، فما ان تنتصر ثورة وربما انقلاب حتى تنتكس، ليعود الشعب من جديد يهتف للمنتصر وليس للثائر...

صورة أخرى في نادي الكلية، حيث براءة الطلبة وهم بين مقتصد لأكلة بسيطة، أو متظاهر بملبسه وأكله، إلا عادل حبيبي لم يتصنع يوماً ما يظهر، يا لتلك الأيام، لا أعرف أية هيمنة تمتلكها الصورة الفوتوغرافية وهي توقف لحظات يصعب علينا استعادتها، ومع ذلك نبقى متمسكين بها.

صورة جماعية، ونحن نجتاز المرحلة الأولى من الكلية الى المرحلة الثانية، وقد عمل جاهداً أن نكون في مرحلة واحدة على الرغم من ظروفه الصعبة وفي شعبة واحدة وعلى مقعد واحد، كان يغار عليَّ من الهواء الذي يداعب خصلات شعري، من الملابس التي تتكئ على جسدي.

قلبت كل تاريخها، كان عادل بطلها، وهل يوجد تاريخ دون أبطال، وهل هناك أبطال دون تاريخ، ولكن الفرق، بأن عادل هو بطلها وتاريخها

فقط، كانت الكلمات تحتدم في داخلها وهي تدير حواراً نفسياً، حطمها، نظرت الى أصبعها، وهي ترتدي حلقتين في آن واحد.

ذهبت إلى مخزن أغراضها الشخصية، نظرت إلى (عَلَقهما الأخضر) الذي عقداه معاً في أحد المراقد الدينية، وتعاهدا على أن لا ينفلتا أبدا، إلى أول عقد اصطناعي يطوق يدها، ظلت محتفظة به حتى بعد زواجهما، وقد أهداها ما يشبهه ولكن من الذهب. ذهبت إلى مخزن الملابس، وبنظرها إلى أول قميص أبيض ولكن بأوراد مختلفة، كان على الرغم من تشكيلته الريفية، لكنه ظل يحتفظ بقيمته المعنوية، وهي ترتديه بعد انتهاء الدوام الرسمي في الكلية...

إلى كل التفاصيل التي ظلت، تفوح عطراً على الرغم من غيابه، ذهبت إلى ملابسه الملطخة بالدماء، لحظة خلعها عن جسده، لحظة غسله ولفه باللباس الأبيض، وهل يحتاج اللون الأبيض الى الأبيض كي يلفه، كان دمه حيا، ينبض بالوفاء، أبدا لن يغادرها، ولن تغادره.

عادت الى أول صورة، كانت تجمعهم والأولاد الاثنين وتعاهدا على ان لا ينجبا بعدهما أبدا، أرادا من خلالهما ان يعيدا قصتهما الأولى، فأطروها بإطار ذهبي ووضعوها على أول رف مقابل فراشهم. وكانا كثيرا ما يحلمان بأن يكونا طبيبين، ان يوفرا لهما أفضل السبل من أجل الوصول الى هذا المكان، لم ولن تكسرهما الظروف، كما فعلت معهما.

أي زواج هذا الذي يريدونني أن أرتديه من جديد، ما أفعل بكل هذه الصور، وأين أرحل بكل هذه الذكريات، وبكل هذا التاريخ، إنها قصة حياة، قصة حب، قصة الأمس الذي لن يعود، لأنه لن يرحل...

ظلت تسأل نفسها كثيراً، يا ترى لماذا هذا الشاب يطمع في بقايا نساء؟ ألم يقل العرب لا تأكل في صحن أكل منه أحد قبلك، ولماذا يريد ان يكون الزوج الثاني أو الرجل الثاني في حياة المرأة، انكشف جسدها على رجلٍ قبله حتى لو كان زوجها، ألا يعرف ما تركه الزوج الأول على خارطة جسد امرأته وغادر؟!

ثم كيف لامرأة، ان ينكشف جسدها مرةً أخرى على رجل لم تعهده، وقد اعتادت من قبله رجلاً، هو الأول في كل شيء، إلا إذا اضطرت، وأنا لم أضطر إلى ذلك، سيبقى جسدي سراً يدفن مع زوجي الذي خطفه القدر غيلةً، كيف له؟ بل تسول له نفسه أن يأخذ مكان أخيه، من الممكن ان يرى ظله في كل تفاصيل بيته...

ربما كان يبحث عن الحلول الجاهزة، انه يريد أن يأكل من طبق جاهز الطبخ، حتى لو أكل فيه من قبله أحد، ولكن ما رأي زوجته في موضوع الزواج؟ والتي قص لأهله كيف ارتبط بها في لحظة صفاء في الباحة الخلفية للبيت، حيث الحديقة الكثيفة بالأشجار، والنخيل، وكنت حاضرة، أتذكر من كلامه انه قال:

في أحد الأيام وعلى غير العادة، دخلت امرأة متوسطة الجمال إلى دائرة النقل، لتجديد (تصريح العمل) السيارة الخاصة بزوجها، بعد نفاد صلاحيته، وصادف ان كان جبار هو رئيس القسم الذي يصرف ويجدد التصريح، وللوهلة الأولى أعجبته، وأراد أن يقدم لها هذه الخدمة ليس مجاناً وإنما مقابل أي شيءٍ، حتى لو كانت ابتسامة عابرة، أو نظرة إعجاب واحترام، فهو شخص مغرم بالنساء...

تطور الموضوع إلى أكثر من تجديد التصريح، بعد أن عرف أن السيارة باسم زوجها المتوفى في الحروب السابقة، وان لها مشاكل مع أهل زوجها، ويريدون قدر الإمكان الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأموال المنقولة وغير المنقولة التي تركها المرحوم...

حدثت بعض اللقاءات في الأماكن العامة، والمراقد الدينية، وبدأت تتحدد علامات الاقتران، بعد أن عرف أن زوجها ترك لها تركة جيدة، وانه من الممكن أن تتفاوض مع أهله ليصلوا إلى منطقة وسط، وعندما تطور الأمر إلى الزواج رفضت بحجة سقوط الحضانة عنها، وبالتالي سيأخذون أولادها منها، وهي لا يمكن أن تتنازل عنهما (وفي داخلها رغبة بالزواج) مثلما لا يمكن أن تتنازل عن رغبتها في أن تكون أنثى، وكذلك في التنازل عن تركة زوجها وهي حقها، وحق أبنائها القاصرين.

تكررت اللقاءات، واستطاع جبار أن يغريها، بالحياة، فلحظة سعادة تعادل كنوزا من المال، مثلما أن لهم حقا ومن الممكن أن يأخذوه في المحاكم أو العشائر، والأفضل أن تصل إلى حل وسط يرضي جميع الأطراف وتستطيع من بعده أن تعيش حياتها، سيما أن المرأة ضعيفة، ويندر أن تجد أحداً يقف بجانبها دون غرض مسبق (وربما كان يجب الغيبة عن نفسه، ولكنه في الحقيقة كان يقيم نفسه)...

وهكذا ظلَّ يطرق على مناطق ضعف المرأة بالعموم، في مجتمع شرقي لا يرحم المرأة، ولا يمكن أن يتركها تعيش حياتها دون ولي أمر، أو راع، أو محرم، حتى لو جعلت من المال واجهة لحمايتها من الآخرين، فكيف بها وهي تمتلك ميزات تجعلها مطمعا للآخرين.

لم يكن لرأي أهل جبار أي قيمة في اختياره الأول، لأنه لا يريد منهم أكثر من أن يكونوا ديكورا اجتماعيا أمام أهل زوجته، بل حتى ليلة زفافه لم تكن في المنطقة كما هو معتاد، بل كانت الحفلة في فندق، وليلة الزفاف في فندق آخر في العاصمة (بغداد)...

وبعد أسبوع عاد جبار وزوجته (هند) إلى بيتها، كان زواجاً مكللاً بالغار، يتسيد بيته الجديد بعد أن سأم تحكمات أمه وأبيه التابع لهما (ناسياً أو متناسياً انه يبني مجده على ركام رجل قدم حياته من أجل كل ما يتمتع به الآن، من جسدٍ، عرف خارطته، إلى ثغرٍ كثيراً ما لثمه، ورقبةٍ كثيراً ما كانت أنفاسه توقف شعيراتها الصفراء، إلى هسيس شعرها الناعم، والمنسدل على وسادة الزوجية...

أخذ جبار رويدا رويدا يندرج في حياته الجديدة، واستطاع ان يستميل ابنها الكبير الذي هو في الصف الثاني الابتدائي، مثلما تعلقت به أبنتها الصغيرة التي تبلغ من العمر أربع سنوات، بعدما ألحقها بالروضة وأصبح كل يوم يذهب بهما إلى المدرسة، والروضة، ويعود بهما إذا سمح له الوقت إلى البيت...

وفي المقابل اشترى سيارة جديدة، وهي ربما عقدته الرئيسة في أن يقتني سيارة قليلة العطلات، وأخذ بيد زوجته إلى أهله أكثر من مرَّة، ومثلها إلى أهلها، مارس دوره كزوج وأب، ولكنه لم يمارس دور الحبيب أبدا، فكان ينظر باستمرار خارج بيته، ويتصيد الفرصة إن سنحت، إلى هنا انتهى ما أتذكره.

* * *

عندما تنامى إلى أذن زوجته، موضوع تقدمه للزواج من زوجة أخيه المرحوم، جنَّ جنونها، ولكنه كالعادة أخذ الجانب الهادئ في الكلام، وشرح لها بأنه ليس له مطمع فيها نهائياً، بل هو يعدها مثل أخته، ولكن هناك ظروف أقوى من الجميع هي التي تسيرنا، وبدأ يختلق حكايات غير صحيحة هو يصطنعها، ومنها على سبيل المثال، بأن جارها قد تعرض لها مرَّة، وكذلك تعرض لها مدرس في المدرسة التي تعمل فيها لها أكثر من مرَّة، بل إنها كثيرا ما شكت من انها تسمع أصواتا في الليل وقد تسللً الى بيتهم لص، وبدأ يعقد لها مقارنة بين أولادها والخدمة التي يقدمها لهما كأبنائه، وبين أبناء أخيه اليتامى...

ومن ثم أقام ليلةً حمراء معها، وكان يتعاطى في مثل هذه المواقف (الحبة الزرقاء) ليوغل في رغبته، مثلما يجعل زوجته تستجيب لطلباته، ولو جزئياً، أو حتى يتحول رفضها إلى الحياد...

لكن الموضوع لم يكن ليمرَّ مرور الكرام، خاصة بعد أن عرفت أن أرملة عادل رافضة فكرة الزواج بالعموم، والزواج من جبار، خصوصا في كونه أخا زوجها المرحوم، على اعتبار أنها امتلكت ميزة قد فقدتها هي عندما تزوجت بعد زوجها، ومن ثم رفضت زوجها الذي يريد أن يحافظ على أولاد أخيه. وفي الحقيقة، كانت تلك الأخبار هو من يسربها لها، في حديث عابر، ليجعلها تلين، وفي الوقت نفسه، يضعف موقفها حتى يغيرها، وكان له ما أراد، فأضحت لا تهتم لموضوع زواجه، بعد أن مضى على الموضوع أكثر من شهرين...

كانت تلك الفترة كافية بالنسبة له، بأن تهمل زوجته الموضوع، وفي الوقت نفسه يلين موقف عفاف، فقد اتضحت لعفاف الصورة، بأن جبار

طامع في جسدها وبيتها، ولا يتجاوز الموضوع كل تلك الترنيمة البائسة التي يعزفها أمام أهله وأهلها...

فقد زارت أم عادل أهل عفاف لأكثر من مرَّة، وبطريقتها السلطوية الخشنة، أَنَّبَتْ أمَّها، وأنه من غير الصحيح أن تبقى امرأة جميلة مع طفلين في بيت طول بعرض، ويجب أن تنبّه أبنتها للخطأ الذي ترتكبه بحق نفسها وابنيها، ثم كررت الزيارة لعفاف وهي تحمل بعض الهدايا لحفيديها، وفي الوقت نفسه تسمع أمهما بعض الكلام الموارب، تكررت هذه العملية من قبل الأم وحدها مرات ومع أبنتها مرات أخرى، وكثيرا ما كانت تنشب بعض المشادات بين صباح الابنة المدللة، وعفاف، أما جبار فكان يوادد أمه بعد كل زيارة، ويسمع أخبار عفاف من خلالها، مثلما يعظم من شأنها، وأخته التي يثني عليها ويمدحها، وكان ذلك كثيرا ما يسعد الأم ويجعلها تزيد من ضغطها على عفاف.

وعندما أعاد الكرَّة مرة ثانية مع أبيه إلى بيت أبيها، كانت المواجهة صريحة وبحضور الجميع، وقد حضرت عفاف الجلسة وكانت الأمور كلها مطروحة للنقاش، وأولها ان تبقى في وظيفتها، وان تبقي موضوعة الخطوبة لثلاثة أشهر، ومن ثم يتأجل موضوع الإنجاب لسنتين على أقل تقدير، وأن لا يتغير شيء في البيت من أثاث إلى غرفة النوم، وغيرها من الأشياء الأخرى الموجودة.

ولما كان جبار خبيرا في شؤون النساء، كان يجادل في أي أمر تطرحه عفاف، وفي قرارة نفسه موافقا ولكنه لا يظهر ذلك بسهولة، باستثناء غرفة النوم، التي أصر على تغييرها، (وفي قرارة نفسه غير مهم) أمام الآخرين،

حتى يظهر للجميع تمسكه بإبائه، وعزة نفسه، وانه يرفض أن يعاشر امرأة على فراش زوجها السابق حتى لو كان أخاه.

وأستطاع خلال فترة الخطوبة، أن يلينها، ويجعلها أكثر مرونة في الحديث معه، خاصة انه كان يزورها مع أمه، وهو محمل بكل ما لذ وطاب، أو مع أمها، وهو محمل إما بجهاز تلفزيون جديد أو غسالة، أو مدفأة، أما ولداها الاثنان، فقد أغدق عليهما باللعب، والهدايا، والأموال آخرها دراجة هوائية، أما عفاف فقد اشترى لها قرطين ووضعهما في أذنيها، حتى انه تجرأ، واشترى لها آخر مرة حلقة ذهبا مكتوبا عليها اسماهما، ولم تجد بدا من قبولها أمام أمها.

لم تمضِ فترة الخطوبة حتى كان كل شيء على ما يرام من وجهة نظره، أما عفاف فكانت تقرأ تلك التصرفات بريبة، وكثيراً ما كان زوجها المرحوم عادل يحدثها عنه، وبأنه شخص وصولي يميل إلى الحلول الجاهزة، ويكره التعب، ويحب أن يبني على أطلال الآخرين. ولكنه كان يتقن ما يلعب به، ولم تجد أمام تعاطف الآخرين معه، ومع حنيته الظاهرة تجاه أبناء أخيه، واحترامه المفرط لها أمام أهلها، من أن لا تخفف من لغتها، وشكلها المتجهم، عله ينفر منها، وعلى العكس كان يزداد تزلفاً وقربا، وكلما كانت تنفر، كلما كان يزداد خضوعاً.

* * *

في الساعة الخامسة من عصر يوم الخميس، كان جبار حاضراً خطوبة أخته مع إخوته على رجل من عائلة محافظة، ولكن ثرية أيضا، وكانت أقرب الى جلسة بروتوكولية، تعارف فيها الرجال بعضهم على البعض،

وتحول الحديث بعد قراءة الفاتحة، الى مواضيع في العمل، والحياة السياسية والاجتماعية، ومن ثم تمَّ الزواج بعد أقل من ثلاثة أشهر، كانت فيها مراسيم الخطوبة، ومن ثم الزواج بعد تجهيز البيت المستقل...

كان الزوج أكثر من حبيب، على الرغم من رعونة زوجته، المقرفة في طلباتها، وكثيراً ما كانت تختلق الأعذار من أجل الذهاب إلى بيت أهلها، ومع ذلك يذهب إليهم ويرجعها من جديد، وكثيراً ما سافر معها الى خارج البلاد، مرةً الى لبنان، ومرةً الى الشام، أما في الأيام التي يشعر فيها أنها على غير ما يرام فيذهب بها الى فندق (الشيراتون) في بغداد، ويقضيان أسبوعا أو أكثر، وفي شهر تموز يذهب بها الى شمال البلاد من أجل ان يكسر الحر، ولو لعدة أيام قد تتجاوز الأسبوع في أحيان أخرى.

شابَ علاقتَهما الزوجيةَ شيءٌ من عدم الاستقرار، وكان يأمل في أنها قد تحيد عن طريقتها الخاطئة في العيش معه، وكثيراً ما كان يستعين بأمها من أجل أن تعيدها إلى رشدها، ومثلها الزواج منه، لكنها ردت بعنف بأنه لا أحد يستطيع أن يجبرها على شيء حتى هو، وإن كان زوجها...

المشكلة الحقيقية التي كانت تلح عليه، انه كان رجل يعشق الجنس ولكن بالحلال، وكانت زوجته على علم بهذه النقطة، وهي نقطة ضعفه، فكانت تلعب على وترها، وكثيرا ما كانت تبتزه جراءها...

استمرت هذه العلاقة بين صلح وغضب، بين مدٍ وجزر، وكان يبدي الكثير من المرونة والصبر، على أمل أن تعود إلى وضعها الطبيعي مثل أي زوجة، في ان تحترم بيتها وزوجها، كذلك كان يراهن على ان يرزقه الله بطفل، من الممكن أن يغير حياتها، ولكنه على ما يبدو لم يحن موعده بعد!

بعد اختلافات كثيرة وخلافات عميقة، لم يسعهما سقف واحد،

آثرت الزوجة أن تذهب إلى بيت أهلها، وربما هو طردها بشكل غير مباشر، ولما كانت هناك ضرورات جنسية وجسدية تلح على الرجل، ويستطيع التنفيس عنها دون أن يسيء ذلك إلى وضعه الاجتماعي، إلا انه آثر على تصبير نفسه، ومن ثم سعى إلى هجرها في البداية علها ترجع إلى جادة الصواب، بعد أكثر من أسبوعين اتصل بوالدها يشكو له ما آل وضعه، وزوجته من اختلاف في كيفية التعايش تحت سقف واحد، أبدى الأب بعض التعاطف معه، ولكن الاثنين كانا على علم أن سطوة الأب في البيت ضعيفة جدا، والأمر، والنهي كله راجع إلى الأم، ومع ذلك تأمل الزوج أن ينقل الأب وجهة نظره إليها، علها تصلح شأن ابنتها.

ثارت ثائرة الأم، وهي تسمع تلميحات الأب بضرورة ردع ابنتها، وإنها تعمد إلى هدم حياتها بيدها لزهوها بنفسها، ووجود بعض الليونة من الأم، وبعد ان عنفته طلبت من الأب أن يأتي بزوج ابنتها كي تلتقيه، لتعيده صاغرا ليصالح أبنتها، وكيف أنها تنازلت من أجل أن تقبل بزواج أبنتها منه، أعاد الزوج الكرَّة مرة أخرى مع الأخ الأكبر حسون لكنه وجده غارقا في مشكلته الزوجية، وما جرَّ عليه الطلاق والنفقة وحنينه إلى ابنته، ذهب إلى جبار يطلب منه المساعدة بعد أن مضى على فراقه لزوجته أكثر من شهر، لكن جبار رفض التدخل بحجة أن والديه موجودان، وهما الوحيدان اللذان لهما حق الإفتاء في هذا الموضوع (وفي سره يقول: لا أريد أن تسوء علاقتي بأمي حتى لو كان ذلك على حساب أختي الرعناء).

بعد مرور أكثر من شهر ونصف على خصامهما، وقد ملأه الاحتقان، وأصبح صبره على بلواه في تحمل بعده عن فراش الزوجية لا يطاق، عندها قرر ان يأتي بإحدى الغواني إلى البيت.

ليس سراً، أن يجنح الرجل حتى وان كانت زوجته في حضنه إلى بعض الشذوذ الأخلاقي، ولا أعرف لماذا اسمي مثل هذا التصرف بالشذوذ الأخلاقي، وربما يطلق عليه في الغرب بالخيانة الزوجية، سواء أكانت من الرجل أو المرأة، ولكننا هنا في الشرق نخصه بالرجل دون المرأة، لان المرأة مكمن النسب وأصالته وطهره، على الرغم من ان اسمها يمحى مع إصدار الهوية الشخصية وعنوان الشرف، بالرغم من انها لا تعدو أكثر من أرضٍ تنبت ما يبذر فيها.

ظل يحلم كثيرا أن يعاشر امرأة ليست على ذمته، ربما أراد أن يتذوق طعم الجنس غير الشرعي، وربما أراد أن يتخلص من الذلة التي كان يستقيها من زوجته كلما أراد أن يعاشرها.

* * *

ذات صباح، وعلى غير موعد ولكن بنية مسبقة، شاءت الظروف أن تجمعه بعابرة سرير، وربما هذا النوع من النساء يتميزن في نظرتهن التي لا ترتهن للأرض، وانما تمشي وعينها مرفوعة لا تهاب الرجال، مع بعض الماكياج الفاضح، ليؤشرن بسرعة من له باع في اللحاق بمثل هذه الطرائد الرخيصة، وبعد ملاحقة حتى نهاية السوق استطاع ان يقترب منها والخوف يعتريه، شعرت هي بقربه، ولكن النساء مهما كان نوعها فإنهن لا يبادرن الرجل وان كانت كل ملامحها الخارجية تطلب ذلك، عندما وجدته لا يجرأ على الكلام، والسوق بدت نهايته، عطفت إلى زقاق فرعي، ولبساطته ذهب وراءها، حتى إذا ما وجدت الزقاق يخلو من المارَّة، التفتت نحوه، وسألته عن السبب من وراء اللحاق بها، كان

العرق قد تندى من على جبهته، وتلعثمُ الكلامِ كان باديا على شفتيه، ولكن لا مجال للتنصل أو الانسحاب، فبادرها بالقول:

ـ أريد التعرف عليك؟

ـ وبعد التعرف ما وراءه؟

ـ ان نقضي ساعات وربما أيام حلوة.

ـ ولكني لست من هذا النوع الذي تريد أن تقضي أيامك معهن.

ـ ماذا تقصدين...؟

ـ أنت ماذا تريد...؟

ـ أخبرتك أنني أريد أن أتعرف عليكِ، ونمضي أياما جميلة.

ـ ليس لي وقت فائض أقضيه معك.

ـ ولكنني أشعر بسعادة وإنا معك.

ـ يبدو انك متأثر بالأفلام العربية... الحب من أول نظرة.

ـ نعم أنا أقصد الحب... أريد أن أعيش معك ساعات الحب.

ـ وهل عندك مكان نقضي به تلك الساعات.

ـ نعم... بيتي فارغ.

ـ هل أنت متزوج؟

ـ نعم متزوج وهذه كارثتي، إن زوجتي على خصومة معي، وهي غضبانة عند أهلها.

ـ يبدو أن زوجتك غبية، عندما تترك بيتها، لتدع أمثالي يطأنه، النساء مغفلات لا يعرفن قيمة الزوج حتى يفقدنه.

ـ إذا سمحتِ لا تتكلمي عنها، ثمة إرادات غامضة هي من تقودنا نحو مصائرنا.

ـ لا تتكلم معي بهذه اللغة، زوجتك غبية، أي امرأة تترك بيتها، معناه أن تعطي ذريعة للأخريات كي يقتحمنه.

لم يطل جدالهما، تم الاتفاق على أن يمضيا وقتاً ممتعاً، على الأقل بالنسبة له، وخصوصا، وإنها أمنت ذلك العبور في كونه وحيدا في بيته، بدل أن تكون في مناطق نائية أو غير مأمونة العواقب.

سارت خلفه بمسافة معلومة، وبعد أن دخل بيته، وبأقل من دقيقة دخلت خلفه، وقد جعل بابه مواربا، كان الارتباك بادياً عليه على عكسها تماماً، والتي سرعان ما رمت العباءة على جنب، بعد أن علمت مشكلته مع زوجته وأن البيت فارغ...

جالت بنظرها وسط البيت، وتمنت لو كانت هي سيدته، بعد أن طلقها زوجها الأول كونه عقيماً، على الرغم من إصرارها على البقاء تحت خيمته، إلى أن يشاء الله، أو تخرج الحياة لهم بحل هو محض تسليم، لكن زوجها أصر على أن يطلقها بعد أن عرف السبب فيه.

قرر زوجها الهجرة إلى الأردن ومنها إلى أي دولة أوربية أملا بان يجد حلا لمشكلته، ولكنه سرعان ما انخرط في الحياة هناك، وترك مشروع الهجرة، بعد أن وجد عملا ليلياً في أحدى المنتديات الضخمة، وفي الحقيقة التي أخفاها على الجميع وحتى على أهله، انه قد عرض

نفسه على مجموعة أطباء صادف أن زاروا أحدى المستشفيات الضخمة والمهمة في الأردن، وجزموا له الأمر بأنه عقيم، ولا يوجد أمل في الإنجاب حتى لو تزوج مرة أخرى.

وصل إلى قناعة إلى أنها الطبيعة وربما الحياة، أو أيا كان المسؤول عن ذلك، انه خلق لكي يكون تعيساً، أو لينقرض من الوجود، دون أن يكون من بعده من يحمل اسمه، فعلى الرغم من أنه غير مهم ربما للكثير، ولكنه مهم بالنسبة إلى نفسه، فهو مثل أي طير أو حشرة، له الحق في أن يحافظ على نوعه.

لكن البعض عندما تواجهه مشكلة يهرب منها إلى الأمام، والبعض يهرب منها إلى الخلف، لكنه أصر على أن ينغمس فيها، وراح يجد في الرجال من جنسه يأخذون له حقه في الليالي الحمراء، داخل الفندق الذي يعمل فيه.

أما طليقته، فيبدو أن تعاسة الحياة، كانت لها بالمرصاد، فبعد طلاقها بأكثر من ستة أشهر تقدم لخطبتها أحد أصدقاء أخيها الذي يعمل في سلك الشرطة، وعلى الرغم من انه لا يتحصل إلا على شهادة الابتدائية، لكن راتبه أعلى بكثير ممن يحملون شهادة البكالوريوس.

تمت الموافقة، وبدأا يؤسسان لبيت الزوجية الجديد، لم تطل فترة الخطوبة، وعقد القران أكثر من شهرين، حتى حدد موعد الزفاف بأقل من أسبوعين ليجهز كل منهما نفسه لليلة الكبيرة، وأثناء هذه الفترة، وبينما يقف من هو بحكم زوجها، على باب أحدى مخافر الشرطة في واجبه الرسمي، حتى باغتت المبنى سيارة مفخخة، وكان هو أحد ضحايا ذلك التفجير الذي خلف عشرات من الأرامل والأيتام والأحلام...

تيقنت أنها في حل من أي التزام اجتماعي بعد اليوم، على الرغم من أنها تبغض تلك العادات والتقاليد المقيتة، التي أخرجتها من المعهد، وهي لم تزل على مقاعد الدراسة وقاب قوسين، أو أدنى من نيل شهادة إعداد المعلمات بسنة واحدة، لتتخرج معلمة، تمتلك قرارها، أو ربما تكون امرأة منتجة، ربما تكون مطمعا لأهلها أو لمن يتزوجها، فالنساء بالعموم قربان تعسف أو اضطهاد.

لم يطل جلوس الغانية في البيت الذي تمنت أن تكون سيدته، أمام الرجل الذي هو في حيرة من أمره، ولا يعرف متى يدعوها للدخول إلى غرفة النوم، أو أن يختلق معها أي حديث جانبي من أجل أن يصل إلى غايته، وعندما شعرت بالحرج الذي يتلبسه، طلبت منه أن تحضر الشاي من أجل أن يحدث حوار عابر وبعدها تقارب (ربما حلمت بداخلها أن يتكلل بشيء) من أجل أن تقضي ما أتت من أجله لتصيد رجلا آخر.

لم يدم بقاؤهما أكثر من دقائق حتى طرقت الباب، فبدا الارتباك واضحا عليه، ذهب إلى الشباك الجانبي، لينظر من القادم، وإذا بزوجته وأبيها، العائد بها من أجل المصالحة معه، بدت هذه اللحظات، وكأنها آخر أيام عمره، ترك الشباك مفتوحا، وركض إلى المطبخ، ليخبرها أن زوجته وأباها، يطرقان الباب، وما عليها إلا الصعود إلى الغرفة في الطابق الثاني، حتى يحل هذا الظرف الطارئ.

فتح الباب، وعلامات الارتباك وكثير من الصفرة بادية على وجهه، دخل عمه، ومن بعدها ابنته، وعلامات الندم ربما بادية عليها، وربما كانت مجبرة على ذلك، لا أعرف، فالفتاة عندما تتزوج، وتتحول إلى امرأة في

بيت زوجها، تسقط من البطاقة التموينية للعائلة، هي في الحقيقة تسقط من معية العائلة، وتصبح أثقل من كثير من الأشياء الفائضة عن الحاجة، وبالخصوص عندما تعود غاضبة من بيت زوجها، وربما كانت الأم من وراء رجوعها، بعد أن يئِستِ من محاولات الزوج في طرق بابهم.

بعد عتاب ربما طال، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ظهراً بقليل، وبعض منائر الجوامع، بدأت تشنف بأصواتها مسامع الناس، كان الأب وهو يمارس سلطة التحكم، وتوجيه النصائح على الطرفين، فيؤنب أبنته بشدة، مثلما يؤنب زوجها، ولكن بيسر، شعر الزوج، وربما ألمح له عمه، بان الصلح لا يتم إلا بالأكل، بأن يذهب إلى أقرب مطعم لبيع المشويات من أجل جلب أكل سفري للجميع.

وفي الحقيقة كان يريد من أبنته أن تكون أكثر استرخاء بعد هجرها لبيتها لفترة ليست بالقصيرة، وكان فيه كل شيء مبعثرا، حتى ميل الساعة لم يكن منتظماً، وعندما دخلت المطبخ، لمحت بعض العلامات النسائية التي كانت بادية على بعض الصحون، ولكن لم يخطر ببالها انه من الممكن أن يقدم زوجها قد على مثل هذا العمل.

نظرت إلى بعض إستكانات الشاي، ولاحظت قعرها وقد تكلس فيه الشاي والسكر، وأضحى هذا التكلس عصيا على الزوال، مثلما لاحظت بعض بقايا طماطم في بطن الصحون، وحروف خبز مهملة، وأطراف صمون في بعض الأواني.

عند الحمام، كانت ملابسه الداخلية تثير الشفقة، وبقايا صابونة أرهقها الدعك، وشفرة حلاقة مركونة، وحجرة سوداء وليفة يابسة، وبينما كان أبوها مشغولا في متابعة الأخبار الحمراء التي تبثها القنوات

العراقية والعربية، ونحن مصرون على أن نتصدر نشرات الأخبار، منذ ثمانينيات القرن المنصرم، وحتى بشائر العقد الثاني من قرن الانترنيت والتواصل الاجتماعي.

ذهبت إلى غرفة نومها، كانت مثل أي غرفة أعزب، فيها الأشياء مبعثرة، حتى أنها ضحكت في سرها عندما وجدت قميصاً معلقاً من ياقته على باب مخزن الملابس، وقميصا آخر مرميا على الأرض، أما فراش الزوجية، كالعادة كانت فرشته مبعثرة، وهو بالعموم غير مرتب، وكأنه فراش أعزب، تشعر أن بقايا امرأة أو حلم مرسوم عليه، وقد استحال إلى رماد...

أما زوجها (حسن) فقد أخذ مفاتيح السيارة ورأسه يكاد ينفجر، فعلى الرغم من أن والد زوجته، أعطاه الحق المغمس بيسر من العتاب، وأنَّبَ ابنته بشكل كبير، إلا أنَّ المركب يمكن أن ينقلب بثوانٍ، بمجرد معرفته بوجود امرأة ثانية في الطابق الثاني، لذلك حاول قدر الإمكان أن يعود بسرعة للبيت حتى يتلافى أي موقف غير متوقع، ولذلك أسرع بالسياقة إلى أقرب مطعم والذي يبعد ما يقارب كيلو متر تقريبا من منطقته الشعبية.

كان ذلك في بداية حزيران، حيث ترخي المدارس حبالها، ويبدأ الصبية ومن لامس الثانية عشرة بقليل، بالذهاب إلى إدارات المدارس لاستلام نتائج امتحاناتهم، تلك الشهادات التي تطرز صدورهم، بوسام العبور إلى مرحلة جديدة في الدراسة.

وعلى الرغم من أن المنطقة كانت متباينة بين راقية وشعبية، إلا أن مشاعر الفرحة، وربما شرود الذهن، والبعض من أولئك الصبية، على غير رشدهم، يريدون ان يشاركهم الأهل والأصدقاء فرحتهم، بالنجاح وربما التفوق الذي تميزوا به...

خرج أحدهم على غير هدى، من ضفة الشارع، يحمل بيده شهادة المدرسة التي تبوَّأ فيها المرتبة الثانية على أقرانه، أملا في الوصول إلى الضفة الثانية من الشارع الذي يؤدي إلى داره، ومثله، كان حسن على غير هدى، عيونه طائرة على أقرب مطعم يركن عنده، من أجل حفنة من اللحم الممدد على أرغفة الخبز، ليعود مسرعاً إلى بيته، قبل أن يُكتشف ما كان مخبَّأً في الطابق الثاني.

في لحظة قد تكون غير موقوتة، أو ربما كان أمراً محتوما، أو قدرا طائشا، أضحى الصبي أمام السيارة بمسافة يصعب ان يتوقف حسن عندها، أو الانحراف لأي جهة تجنبه التصادم المحتوم، مضى حسن، ومعه الطفل ممددا في المقعد الخلفي للسيارة، مع شرطي استدعي من أقرب منطقة كان موجودا عندها، إلى أقرب مستشفى، ومن ثم حول حسن مع الشرطي إلى مركز الشرطة الذي وقع فيه الحادث، لكن حسن طلب من ضابط المركز أن يركن معه إلى موضوع شخصي، لينقذ ما يمكن إنقاذه...

أودع حسن في التوقيف، ومن ثم أخذ الضابط مجموعة من الشرطة إلى بيته على أمل القبض عليه (في اتفاق مسبق)، طرق الباب، وخرجت زوجته ومن قبلها أبوها، لمعرفة من الطارق، أخبر الضابط الزوجة وأباها، أن صاحب السيارة المرقمة (....) قد دهس طفلاً وفرَّ من العدالة، ويريدون أن يتحروا عنه داخل البيت.

انصاع كل من الأب وأبنته لأمر الضابط، بعد إن طلب منهما، أن يدخلا إلى غرفة النوم، التي فيها أموال العائلة الخاصة، والحلي الذهبية

ان وجدت، ومن ثم أوقف شرطي عندها، وأمر شرطيين أن يبحثا داخل الدار عنه، وأمرهما أن يصعدا إلى الطابق الثاني وفي أتفاق مسبق مع أحدهم أن يهرب المرأة المحجوزة في الغرفة دون أي صوت أو ضجيج من البيت.

عندما فتح الشرطي، باب الغرفة في الطابق الثاني، ذهبت عيناه باتجاه عين الغانية، في الوقت الذي ذهب إصبعه إلى عتلة الأمان، ليضع الآخر عند عتلة الزناد، في هذه الأثناء اتصل حسن بالضابط بعد أن أخذ رقم جواله، ليخبره بان الكادر الطبي الذي كشف على الطفل، وجد ان به رضوضا خفيفة يمكن أن يخرج من المستشفى خلال يومين، دون أن يثير ذلك أي قلق أو خوف. وفي الوقت نفسه، طلب منه ان يطمئنه على ما تم الاتفاق عليه فيما بينهم، أكد الضابط لحسن بعد التعاطف الكبير الذي أبداه اتجاهه ان الأمور تسير على ما يرام، وسيتم الأمر دون ان تلحظ زوجته أو أبوها أي شيء يثير الريبة.

في هذه الأثناء والمكالمة جارية بينهما، سمع صوت إطلاق نار، هرع باتجاه الطابق الثاني، ليعرف السبب من وراء ذلك الإطلاق الناري، وجد أن المرأة التي أراد أن يستر بيتين من وراء تسريبها دون علم أهلها، وزوجة السائق وأبيها، قد أرديت قتيلة، اتضح انها أخت الشرطي الذي أراد تسريبها دون علم من كان في البيت باتفاق مع الضابط.

عَلَتْ صفارة الإسعاف، وهي تحاول أن تفج الأفواج التي بدأت تتجمع أمام باب الدار، ومن ثم أخذ اثنان منهم السرير المتنقل لنقل الجثة الهامدة، في الوقت الذي اقتيد الشرطي بعد ان أعصمت يداه إلى الخلف، وسحب السلاح منه إلى سيارة النجدة التي أتى بها.

عاد الأب بابنته المدللة المتمردة، والتي كانت السبب من وراء كل هذه الأحداث، ومن ثم طلقت من زوجها، الذي أوقف في مركز الشرطة لأكثر من شهرين، وتم حل النزاع الخاص بالغانية عن طريق (الفصل العشائري)، مثلما تم حل مشكلة الطفل الذي لم يكن ليبقى في المستشفى أكثر من أسبوع...

كل هذا كان على حساب هدم بيت، سببه زوجة فاشلة، لا تعرف ما تريد، أدت بزوجها إلى التهلكة، وربما لم يكن هو ليمتلك القرار الصائب في مثل هذه المواقف التي تحتم على الرجل أن يكون حاسماً فيها.

لكن أم صباح، كانت تهون على ابنتها كل ما حصل، وواستها بأن حظها عاثر بزواجها من رجل خائن لا يصون بيته، ولا يحترم زوجته، ووعدتها بأن يكون زوجها المقبل أفضل منه بكثير، ورجت بأن ذلك لا يؤثر على نفسيتها، وطلبت منها أن تلهي نفسها بأي شيء ترغب فيه، فما كان منها إلا أن طلبت بأن تعود إلى مقاعد الدراسة لتكمل ما توقفت عندها.

* * *

في رمضان الثاني بعد الاحتلال والذي لا يختلف كثيراً عما سبقه، إلا بصفرته، أعلن عن إجراء عملية كبرى للأم، بعد أن عانت المرض وتنقلت بين عيادات الأطباء، والمختبرات لإجراء الفحوصات، وإجراء التحاليل والأشعة، وتنقلت ما بين المحافظات والعاصمة، حتى تم تشخيص مرضها، والذي لم يكن عضالاً، كما تمنى أحد أبنائها بل هو (الغنغرين) والذي سيؤدي إلى قطع رجلها اليمنى حتى أعلى الركبة...

اجتمعت العائلة كلها حول سريرها، وهم بين شامتٍ لذلك الجبروت

الذي ظل يتحكم بمقدراتهم لأكثر من عشرين عاماً، وبين رائفٍ في كونها الأم التي أنجبت، وربت، وتعبت، وسط هذه العائلة الذكورية بامتياز، إضافة إلى وجود أب ضعيف، جلُّ اهتمامه، إن لم نقل انه وجد ضالته بقربه من الحيوانات بعد أن وجد عائلته تتجاذبهم الأطماع في دنيا ليس تاجها سوى راحة البال والطمأنينة والقناعة، بعد أن رمى المسؤولية على الزوجة الغنية إلا ان يكون هامشاً.

بدأ بعض الأقارب بالتوافد عليهم، باستثناء عمهم، الذي سمعوا به، ولكنهم لم يروه، إلا في بعض الحالات القليلة قبل أقل من عشر سنوات، أو أكثر. فما كان من خالد إلا أن أصر على أمه بان تضغط على أبيه من أجل أن يرسل بطلب عمه للزيارة، ومن أجل أن يعيد بعض الأقرباء الى حضيرتهم بعد هذه القطيعة، وكان له ما تم، بعد أن تعذر العم عن المجيء لسوء ظروفه الاجتماعية والمالية، ولكنَّ أبا عادل أصر على ذلك.

كلف الأب حسونا بأن يجلب عمه وابنه بسيارته الشخصية بعد أن اتفقوا على منطقة معلومة عند الشارع العام وهي منطقة الكشك، ومع انه كان يغوص في مشاكله المادية التي كلما زالت تتدهور باستمرار، وهو لم يترك عملا إلا وخاض فيه، ليس آخرها، العمل في البقالة، وكبائع متجول، إضافة إلى وظيفته، حتى أتى اليوم الذي أقترن فيه بزوجة من منطقة ريفية، أرادها هكذا - زوجة فقط - دون تطلعات أو رغبات على العكس من زوجته السابقة (طليقته) التي أرهقته بطلباتها التي أودت بالنهاية إلى الفراق، ولكنها لحظة ما سمعت بأنه يريد الزواج من جديد جنَّ جنونها، واختلقت الأعذار المختلفة من أجل ان تبطل ذلك.

* * *

عند الصباح وبعد ان أخذ إجازة رسمية من دائرته (الإسعاف)، اتجه بسيارته الى حيث الموعد، لجلب عمه وابنه عند منطقة معلومة المكان، كالعادة، تنتشر أكشاك الباعة المتجولين في أغلب الأسواق الشعبية، وعلى حافة الطرقات، وعند الشوارع الرئيسة، وقد كان يرتاد الشارع باستمرار بحكم مهنته كسائق لـ(تاكسي)، فكان يحفظ عن ظهر قلب أغلب أماكن الباعة المتجولين.

وصادف أثناء رحلاته المستمرة بين ذهاب وإياب من والى بغداد، كثيرا من المشاكل والمعوقات، ليس آخرها عمليات الخطف والتسليب، بين الحين والآخر، ولكن الله كان يجبُّ عنه ما كانت من الوساوس التي ترافقه أثناء رحلاته المستمرة، ربما لأنه كان يستعين بالدعاء على اعتبار انه من مفاتيح السماء، عند كل صباح، وربما لأنه كان يحزر بحدسه خبايا الشوارع على اعتبار ان الشوارع هي مفاتيح القرى والمدن الغافية عند حافتي الشارع الرئيس.

وصل بعد أقل من ساعة إلى المكان الذي يعتقده انه المكان المتفق عليه، عند أحد الباعة المتجولين، وقد احتل مكانا لم يكن في خارطة ذهنه، بل لم يلاحظه من قبل، هو أقرب للكشك من الداخل، على عكس بعض تلك الأماكن المشوهة للمنظر العام، والمتكونة من أكياس ممزقة، وبعض جريد النخيل، ومخزن ماء مثقوب، وكأنه مكب نفايات، أو مكان لتجمع بقايا أشياء غير ضرورية.

آثر الجلوس في كشكه، ليشرب الشاي، على أمل أن يصل عمه وابنه ليعود بهما إلى أبيه ومن ثم عمله، الكشك من الداخل، مطرز ببعض الآيات القرآنية، وكذلك، بعض قطع القماش الخضراء التي تضفي نوعا

من الروحانية على المكان، وكأنك داخل أحد المراقد الشريفة، وفي الركن المقابل للقبلة، كان يفترش سجادتين، أحداهما بتربة وأخرى بدونها.

ولما لم يكن الوقت الذي دخل فيه الكشك، هو وقت غداء، وجد صاحب الكشك يقرأ القرآن وقد كشف عن قدمه اليمنى، بينما كان ثوب الدشداشة، على قدمه اليسرى لا ينم عن شيء تحته، ولكنه لاحظ، بقربه عكازين أعتقد انه يتوكأ عليهما في تقديمه الخدمات البسيطة، للزبائن والتي تنحصر ما بين بيع السجائر، أو الماء المعلب والشاي.

أشعل سيجارة، وطلب منه استكان شاي وقنينة ماء، وكان من أدبه، أن ترك قراءة القرآن بعد أن حلَّ زبون في كشكه المتواضع، على أمل أن يقوم له بأي خدمة يطلبها، ولما لم يكن له مكان آخر يذهب إليه، حتى يحضر عمه وابنه، فكان لزاماً ان يقضي هذا الوقت في أي مكان، فآثر البقاء في هذا الكشك.

كانت علامات الانكسار واضحة على وجهه، إضافة إلى بعض الخدوش وربما آثار حادثة تركت كل هذا الحزن عليه، كان يشعر انه يريد أن يتكلم مع أحد، وقد أمضى زمناً من تأنيب الضمير، وملَّ فترة الصمت التي بانت آثارها على شعر رأسه وكأنها فروةٌ بيضاء، ولكن حسونا كان يشعر انه يريد أن يبادره بالكلام.

طلب منه علبة سجائر، وقد آلمه وضعه الصحي والنفسي، ثم استأذن منه بأن يبقى في كشكه بعض الوقت، حتى يأتي بعض أقاربه، شعر أن سرائر وجهه قد انفرجت، وآن له أن يتكلم، مع شخص لم يسمع قصته من قبل، فكثيراً ما نشعر إننا نحتاج إلى وجوه جديدة لنعيد عليهم قصتنا، حكايتنا، ألمنا، إذ انه من الصعب اكتشاف الآخر، والأصعب هو استغفاله.

بعد أن توكأ على عكازيه متقدماً نحوه بعلبة السجائر، نهض ليخفف عنه وطأ الانتقال بأطرافه الثلاث، عاد من جديد إلى (استكان) الشاي وملأه، واحدا لنفسه، وآخر لحسون على الرغم من انه لم يطلب ذلك.

أخرج علبة سجائره، وبدأ يمتص نار عود الثقاب، وكأنه يريد أن يطهر ذاته من كل الذنوب التي اقترفها قبل هذه الساعة، هكذا كان حسون يترجم كل تصرفاته التي كان يمعن بها، حتى عندما كان يرتكز على عكازيه، وكأنه يحرث في الأرض، ليخرج وجهها الجديد الذي لم تلفحه الشمس من قبل، رفع وجهه من يده، بعد ان أخذ فترة من التردد وربما الصمت، أو الحيرة في من أين يبدأ الكلام، كان حسون يلحظ تردده، ثم قال:

علمتني الحياة أن القوة تعني في بعض أوجهها تعطيل القدرات العقلية، لذلك تجد كثيرا من الشباب يأخذون الحياة بهذا المعنى، ولما كنت قد نشأت في بيئة شعبية، تحكمها مجموعة من الضوابط العاطلة عن العمل، ولا يوجد فيها كثير من الأعمال، سوى المحصورة ما بين أن تكون ملاكا لأرض (ومن المؤكد قد ورثتها من أبويك) أو فلاحا في أرض، أو قد تكون أجيرا عند آخر، وعندها سيكون أجرك على قدر قوت يومك...

لم يشأ حسون أن يقاطعه، شعر انه يستجلب الكلام من قاع خفي في داخله، ويحاول أن يفلسف ربما أشياء يعتقدها غير واضحة بالنسبة له، وربما يريد وبحكم سرده لما يقوله، على الأقل هذا ما يشعر به أن يقوله بطريقة لا تبعث الملل في نفس المستمع.

تنقلت بين عدة أعمال، ليس آخرها صبي ميكانيكي، من أجل تعلم مهنة أعين بها نفسي وعائلتي، كانت ذات أجر بسيط لم يعنْ حتى على

مصاريفي الشخصية، آثر أبي أن أترك العمل وأسافر إلى بغداد للعمل في مراكزها، وبالفعل ذهبت إلى سوق الشورجة ومن ثم السوق العربي وبعدها إلى سوق الصفارين، وأسواق الطحين، باختصار لا يوجد شيء لم يمر على كتفي، أو يحتل جزءًا من ظهري.

أشعر كثيرا بالألم والندم لتركي الدراسة، فكثيرا ما أرى ذوي البدلات (الأبيض فوق والرصاصي تحت) وهم يحملون ملفاتهم المدرسية، أو بعض الكتب والدفاتر، في مجاميع يتجهون إلى مكان واحد هو الجامعة، بل وحتى الشباب من الذين لم ينهوا بعد دراستهم الإعدادية، أشعر بحسرة النظافة، وهي تهف بقربهم وخلفهم، وأنا انظر لنفسي، وقد عم الإهمال كل ثنايا ملابسي وجسدي، أعتقد ان هناك أمطارا بلا فائدة، ما فائدة قوتي الجسدية وانا لا أستطيع أن أكللها بشيء نافع لنفسي والآخرين.

لم يطق حسون تلك التنهدات وجلد الذات، واللف حول الموضوع، ولكنه في الوقت نفسه، كان يشعر أن هناك جرحا، وربما صراعا نفسيا يعيشه هذا النصف رجل مع نفسه، وخاف في الوقت نفسه أن يصل عمه وابنه دون أن يعرف نهاية هذه الحكاية العابرة من رجل عابر، ومع ذلك تجرأ وقال له:

ـ ما حكاية ساقك المقطوعة؟ وكأنه ضغط على جرحٍ ندي لم يلتئم بعد.

ـ سأدخل في صلب الموضوع دون شرح، أو توضيح.

ـ تفضل.

قبل أكثر من ستة أشهر كنت جالساً في تلك المقهى (وأشار إليها

في الجانب الثاني بيده)، وصادف أن جلس بقربي شخصان أحدهما صديقي، والآخر صديق صديقي، فاقترح عليَّ أن أشتغل معهم في سرقة وتسليب أصحاب السيارات الفارهة، والحديثة، المفاجأة في الطرح أذهلتني، بل وصدمتني أكثر، لأنني لم أتصور في يوم من الأيام، أن أتحول إلى سارق، بل لم يتناهَ إلى ذهني، أنني سأصبح في يوم من الأيام قاتلا، فلربما تؤدي عملية السلب، أو السرقة الى تصادم قد يكون إفرازها قتل أي من الطرفين.

رفضت طرحه بسرعة، ونهضت من مكاني، ولم أعد الى تلك المقهى أبدا بعد ذلك اللقاء، لم أعلم أنهما كانا يرقباني باستمرار، وقد علمت منهما فيما بعد أنني كنت محل اهتمامهما، وعلمهما بظرفي المادي والنفسي الصعب وضغوط الحياة المحيطة بي.

مرت عليَّ أيام، يصعب عليَّ فيها شراء علبة السجائر، فانتقل صديقي من مقهاه التي كان يجلس فيها إلى هذه المقهى التي بقربنا (وأشار إليها بيده)، وبدأت الأمور تعود إلى حالتها الطبيعية فيما بيننا.

ولكني لاحظت المال الوفير الذي يقبع في محفظته، وكذلك صرفه غير الاعتيادي، وأكله خارج البيت، وكثيرا ما كان يصر على أن يغرق مائدتنا على الرغم من بساطتها بالمشاريب والسجائر، ما يصعب عليَّ تحملها، ما يضطره لدفعها.

لا أخفيك سراً، بأن لعابي قد سال، وأنا أحاول السيطرة على نفسي، ومحاولة مسك نفسي، وعدم الانجرار إلى منطقته، ولكن في المقابل كانت الحياة، مازالت تزيد من ضغطها عليَّ بشكل يصعب تحمله.

كانت تدور بعض الأحاديث الجانبية بيننا، وبالخصوص هو من كان يبادر فيها، في انه قام بعملية بسيطة، بعد ان أوقف هو وزميله، سيارة حديثة، واستطاعا، ان يسلِّبا صاحبها، مبلغ وقدره مليون دينار، دون حدوث أي مواجهة بينهما، وإنه من عمليات قبلها، أقتنى (موبايل) حديث، وأشترى جهاز تلفاز حديث... الخ.

وفي المقابل، كان وضعي الأسري في ازدراء ونكوص مستمر، حتى كانت اللحظة الحاسمة، عندما تعطلت ماكينة الثلاجة التي تعمل لأكثر من ثلث اليوم، لتبرد لنا بعض الماء الذي نطفئ فيه لهيب الحر، أو تحافظ على بقايا طعام ما بين وجبة وربما أخرى.

ولما لم يكن هناك المال الكافي لتصليحها، رجعت أمي إلى ما قبل عصر الكهرباء، تلف بعض الخبز، بثوب قديم، وكذلك ما بقى في قعر القدر من مرق أو رز إلى الوجبة الثانية، أما من يريد أن يشرب الماء، فلابد له من أن ينتظر ما يجود به ربع قالب الثلج من بَراد على كوز الماء.

هكذا تكالبت الظروف المالية، وحتى النفسية، بعد أن أغلقت كل الأبواب، ولم يبق لي سوى باب واحد، هو السير معهم نحو المجهول، بعد موافقة، عادت على صديقي بالسرور، وانعكست على صديقه، وربما كانا يكرهان، ان يجدا نفسيهما وقد تلوثا بهذا النوع من العمل دون الآخرين، لذلك أصرّا على أن أكون ثالثهما، على الرغم من أن عملهما كان يكفي لاثنين.

كان الوجل هو المسيطر على نفسي، كيف لي أن أقوم بسرقة وتسليب أحدهم، دون أي ذنب سوى انه اجتهد وأصاب الحياة، وأنا لم أجتهد،

بل وتكاسلت، ولم أصب شيئا، بل أن هناك كثيرا ممن يجتهدون طول عمرهم دون أن يصيبوا شيئا، هكذا هي الحياة، فليس لكل مجتهد نصيب، بل لكل صاحب حظ، ضربة موفقة.

شعرت في أول خروج لي معهما، إنهما يريدان تلويث نفسيتي لذلك، آثرا أن أقف جانبا لأرقب أي مفاجأة قد تحصل، وهما يوقفان السيارة القادمة نحونا، بالفعل استترت في مكان قريب، وكان الشارع يخلو من السيارات إلا قليلاً، لحظة توقف السيارة الحديثة، بعد أن أومأ لها صديقي بحجة حاجته إلى أن تقله إلى مكان قريب، شَهَرَ صديقه سلاحه، ما اضطر السائق إلى النزول من سيارته وأخذه خلف جدار قديم، وكأنهما يقضيان حاجة ملحة.

أخذ صديقي يبحث داخل السيارة عن أي مال، أو أي شيء ذي فائدة، بعد قليل وأنا أنظرهم من بعيد، ركب السائق سيارته، وضغط على دواسة البنزين بسرعة تاركا ذيلا من تراب خوف أن يرجعا بكلامهما.

كانت الغنيمة، أكثر من ثلاثة ملايين دينار، عندما جلسنا على حافة أحد المحال المغلقة، أتضح أن صاحب السيارة، يمتلك عدة مولدات كهربائية، وصادف أن كانت له إحداهن وقد صلح لها المحرك، وهو ذاهب لإكمال المال الذي في ذمته إلى بغداد، كانت حصتي أكثر من المليون بقليل وهو مبلغ على الرغم من إنني سمعت به كثيراً إلا إنني لم أعد أوراقه أبدا.

ودون وعي ذهبت إلى أقرب محل لبيع السلع المعمرة، واشتريت أحدث (ثلاجة) وذهبت أتقدمها إلى البيت، لم يسع أمي ما شاهدت، وكأني جئت بالجنة لها، كانت أكثر من مفاجأة، وقد شربت المر، جراء

عطب الثلاجة القديمة وتحويلها إلى مخزن للأغراض، والأشياء الزائدة، لكنها رفضت أن تدخل الثلاجة إلى البيت، وطلبت مني أن لا أشتري لها بيضة واحدة، بل بيضتين، لتكسرهما في حافتها، طرداً للعين.

فرح أمي ومن ثم أبي، والعائلة ترك حيزا ضيقا من تأنيب الضمير، بل وزاد حظوظ سلكي لهذا الدرب الوعر، بل وكثيرا ما دار حديث مع نفسي، عن كمية الأموال التي في حوزة مثل هؤلاء، وآخرون لا يمتلكون حتى قوت يومهم، ولم أصل إلى نتيجة، أو رأي محدد وواضح.

بعد مرور أكثر من يومين، عاد صديقي، وطلب مني ان أكون جاهزاً للعملية الجديدة التي سنقوم بها، ولكن هذه المرة، على شارع عمومي آخر، دخلت فيه الحفريات تواً، وذلك يعكر السير، ويسمح لنا باصطياد سائق جديد.

تكررت العملية لأكثر من مرّةَ، وأضحت الملايين، تتراكم في خزينتي البسيطة، التي هي عبارة، عن صندوق متوسط الحجم، متهرئ من القدم، أضع فيه بعض أشيائي، ومن ضمنها ملابسي الخارجية والداخلية.

لم يدر في خلدي أن أترك هذا العمل، على الرغم من أنني لم أمضِ فيه أكثر من شهرين، وقد قمنا بأكثر من أربع عمليات في شوارع مختلفة، ما بين الليل والنهار، لسيارات صغيرة وكبيرة.

بدأت علامات الرفاه تظهر على ملبسي، وجهاز الموبايل الجديد، وكذلك عائلتي، ورحت أجدد بعض أثاث البيت، وعندما كان والدي يسأل عن ذلك، ولو بشكل سطحي، كنت أخبره، إنني أعمل مع تاجر كبير، وأؤمن بضاعته.

في أحدى المرات، وعلى غير العادة خرجنا على سيارة في ظهيرة يوم حار جداً، نطلب منه الوقوف، ولكنه في لحظة ارتباك، زاد السرعة باتجاهنا ولو لم نكن نحن الثلاثة حذرين، لأطاح بأحدنا، وفرَّ مسرعاً دون خسائر تذكر، سوى وساخة الملابس وبعض الخدوش البسيطة.

ربما كان هذا إنذارا، لم يفطن له أيٌّ منا، وربما كان حادثاً عابراً، يتعرض له كل من يمتهن اللعب بمصائر الآخرين، لم نكمل عملنا ذلك اليوم، وعدنا أدراجنا، وكنت أفكر بما جرى لنا بشكل ملفت للانتباه حتى لاحظ صديقاي ذلك.

قمنا بعدها بعميلة بسيطة، لم نحصل من ورائها سوى على مبلغ زهيد، هو عبارة عن رأس مال بسيط كان يحمله السائق العائد للبيت جراء عمله في محافظة بابل لمدة أسبوع تقريباً.

صديق صديقي كان يتمنى دائما أن نسرق مصرفا، أو رواتب أحدى الدوائر، ومن بعدها ننطلق لنكون تجارا كبارا في العاصمة، ونترك هذا العمل الذي فيه كثير من المخاطرة والقليل من الأرباح، يبدو أن الأحلام لم تكن حكرا على الفقراء فحسب، بل وحتى على اللصوص، وربما كان الحلم هو أول عتبة السرقة عندهم.

أما صديقي فكان تابعاً له، وقد وجد من يفكر ويخطط وينفذ، دون عناء كبير، باستثنائي، فقد كنت في حيرة من أمري متذبذبا، أقدم قدما وأؤخر أخرى، هل أستمر في عمل يسرق قوت الناس، ليس لسبب سوى أنهم آمنون، ونحن سارقون، هل أتركه، ماذا أعمل وأنا دون مهنة أو وظيفة، أو رأس مال يذكر، في كثير من الأحيان، نحتاج أن تنزل لنا

حلول من السماء، فلربما نكره أن نغير وضعا قائما رغم مرارته، أو نبقي وضعا جيدا رغم حلاوته.

شعر صديق صديقي أن يديَّ لم تتلوثا بعد بشكل عميق، فارتأى هذه المرَّة أن أقوم بإيقاف السيارة القادمة التي سنتفق عليها، ولم يكن لي بد من رفض طلبه، طالما وافقت على الاشتغال معهما، وقد أخذت حصتي أسوةً بهما، حتى أتت الساعة غير المعلنة، عندما أقدمت علينا سيارة حديثة ومتميزة، وقد أخذ كل منهما مكانهما، وكنت أنا أقف في مكان قرب شجرة على اعتبار أنني أستظل بها على أمل أن يقف عابر طريق يقلني معه إلى مسافة معلومة، في الوقت الذي جلس فيها صديقاي على مسافة مشاهدة.

صادف أن كان الشارع الرئيس فارغا، بعد ان قطعه رتل أمريكي بسياراته ومدرعاته، لنقل شحنة كبيرة من السيارات وحاملات الأشخاص، وكانت مثل هذه الطريقة معتادة في قطع الطرق لتجنب أي حادث انتحاري، يقوم به البعض.

في المقابل كان البعض يكره التأخير لأكثر من ساعتين أو ثلاثة، ما يضطره لسلك الطرق الفرعية، وعند ذاك تكون فرصتنا في اغتنام مثل هذا الغريب أو التائه وتسليبه.

كنت أرتدي الزي العربي، كي لا أثير الريبة عندما رفعت يدي طالبا من السائق ان يقلني معه، بالفعل توقف السائق، بعد أن ضغط على مفتاح الزجاج وانزلها، عندها قلت له:

ـ هل تقلني الى المنطقة المقابلة فالجو حار، ولا أستطيع البقاء هنا وحدي؟

ـ على الرحب والسعة، تفضل أصعد.

كانت لهجته ليست عراقية أصيلة، بل فيها من الفصحى كثيرا، حتى إنني شعرت انه ليس بعربي أصلاً وانما أعجمي تعلم اللغة العربية الفصحى، في هذه الأثناء، طلبت منه ان يركب معنا صديقاي الجالسان (وأشرت لهما بيدي)، لم يمانع، بل سعد كثيرا بذلك.

كنت أعلم، وباتفاق مسبق أننا هذه المرَّة، لا نكتفي بالمال بل لابد أن نقيد صاحب السيارة دون ان نقتله (وهذا شرطي الرئيس)، ونسرق سيارته لنبيعها بعد ذلك بسعر أقل، حتى نستطيع أن نختصر المسافة، ونصل بسرعة إلى ما نصبو إليه.

كان التبريد على آخر درجة، على الرغم من حرارة الجو خارج السيارة، جلست انا قرب السائق، بينما جلس صديقي خلفي وصديقه خلف السائق، شعرت ان السائق أبدى بعض التعاطف معي، قبل ان نصل الى الشارع الرئيس، أشهر صديق صديقي مسدسه، ووضعه في رأس السائق طالباً منه التوقف على جنب.

ضحك السائق بصوت عال، ونحن نقترب من الشارع الرئيس المؤدي إلى الرتل الأمريكي، وبدأ يضغط على دواسة البنزين، ألتفت إليَّ وبنبرة فيها بعض الاحترام قال:

ـ انت على ما يبدو إنسان جيد، لذلك سأسمح لك ان تقفز من شباك الباب بجانبك.

وضغط على زر الزجاج، في هذه الأثناء وبيده اليمنى سحب جهة قميصه فتطايرت أزرار القميص، وانكشف حزام قد طوق خصره، وأعلى

بطنه، وفيه من أصابع الديناميت، والمتفجرات ما يثير الرعب، ثم قال:
ـ هذه السيارة مفخخة بأكثر من ربع طن من المتفجرات، وهي معدَّة للاصطدام بالرتل الأمريكي الذي أمامنا فاستعدوا للتكبير، والموت في سبيل الله..

عندما أفقت في المستشفى أعلمني الطبيب أنني كنت مرميا على مسافة ليست ببعيدة جراء انفجار سيارة مفخخة برتل أمريكي، لم نجد جثة الإرهابي الذي فعل ذلك، وقد ضرب شيش حديد ساقي اليسرى، وهشم العظم، وقد نزفت دماً كثيرا لم يكن من بد إلا بترها...

وما أن أتم حكايته، حتى دخل عم حسون التي بقيت في ذاكرته من وجهه بقايا ذكرى، فنهض متقدماً نحوه ليقبله، تفاجأ المعوق بتصرفه هذا، مثلما تفاجأ أبوه بوجوده معه داخل الكشك، وبادر بسؤاله، ألم تعرفه، انه ابن عمك؟

كانت تلك الكلمات مدوية في وجهه، لم يكن يعرف ما يعمل، أو أين يخبئ عاره، وقد كشف سره الذي لا يعرفه حتى أهله، وقد أخبرهم من قبل عن انفجار سيارة مفخخة من قبل في رتل أمريكي، وكان السبب في تعويقه...

هل كانت المصادفة وراء كل شيء، وراء الخلق والزراعة، ووراء السحر والدين، ووراء الفن، ووراء سوء الحظ بكل تفاصيله، ووراء ان يجتمع أولاد عم تحت سقف حقير ليقص أحدهما على الآخر عفونته دون معرفة سابقة.

لكن حسون نظر إليه بنظرة اطمئنان، يخبره من ورائها بأن سره في بئر، ولا يمكن أن يبوح به لأي شخص حتى أبيه، أو أهله، ومع ذلك

كانت علامات الاضطراب بادية عليه، وركبوا جميعاً السيارة باتجاه الأم المقطوعة الساق.

* * *

لم يكن لحسون أن يبدي كثيراً من التعاطف مع الآخرين، حتى لو كان هؤلاء الآخرون هم أهله، أو أقرباءه، فقد كانت له مشاكله الخاصة التي يريد من ورائها الخلاص من طوق عائلته، فقد حصل على قطعة أرض أسوة بأقرانه في منطقة حيوية جداً، وهي في ذات الوقت قريبة من الحي الذي فيه بيت أهله، ولكن المشكلة التي واجهته هو في بنائها، والذي يتطلب ذلك كثيرا من المال والجهد، وقد طلب من والدته بعض المساعدة، إلا أنها، وعلى الرغم من المحنة التي هي فيها رفضت طلبه، وذهبت إلى أبعد من ذلك في تعنيفه.

ولما لم يكن لزوجته أي دور يذكر في حياته والعائلة، وفي الحقيقة هو أرادها هكذا أن تكون زوجة دون عنوان آخر، فكان لزاما عليه أن يخلق المال اللازم للبناء، تحت أي ظرف وبأي عنوان.

عاد لأهله من جديد، وبالخصوص أمه على أمل أن تساعده، ولكنها كالعادة رفضت ذلك، وأبت إلا أن تؤنبه وتوسمه بالفاشل، تقدم بطلب قرض إلى المصرف بضمان قطعة الأرض التي كان قد بدأ بتعديلها على أمل المباشرة بالبناء.

لم يكن مبلغ القرض ليكفي حتى ظهرت أسنان البيت اللبنية دون سقف يجمعها، أو تغليف يجعلها صامدة أمام القحط الذي يعيشه، تقدم بطلب إجازة مرضية لمدة شهر، وأتبعها بإجازة دورية، وظل يتلكّأ

بالدوام، على الرغم من أن الراتب لم يكن ليذكر، أمام التضخم الذي أصاب الدولة العراقية...

عاد بذاكرته إلى أيام الحصار والجوع، بدأ يسترجع تلك الأيام السوداء بحياته عندما فكر بالهجرة الى خارج حدود محافظته، الى العاصمة، حيث يعمل أي لون من الأعمال، فلا أحد يعرفه هناك، لكنه وبعد تفكير عميق، وجد أن العراق بكل محافظاته، يعيش في إناء واحد من القهر والجوع، راودته فكرة أن يسافر الى خارج العراق، وكانت سوريا بيت الملاذ، إلا انه تراجع بعد ذلك، والسبب انها بلد فقير يشبع فيها الفقير، ولكنه من غير الممكن ان يجمع بعض المال ليعينه على طلبات البناء وعائلته، لم يكن بد من التوجه نحو الأردن، فهي بلد وأن كان فقيرا في موارده، لكن وضعه الاقتصادي جيد، يستطيع فيه أن يجمع بعض المال، سأل بعض من هاجر إليه وبقى لأكثر من سنة فيه، لم يكن ما أخبره به يسر سمعه، ثم سأل آخر وآخر، أجمع كل من سألهم ان البعض من السيئين ممن هم ليسوا من سكان البلد الأصليين يشغلون العراقي من السابعة صباحا وحتى السابعة مساء ثم يعطونه دعوة: (يعطيك العافية)، ولأن أغلب من هاجر إلى الأردن قد ملأ استمارة طلب اللجوء إلى الأمم المتحدة، ولأنه قد تجاوز المدة المسموح له البقاء في هذا البلد، يضطره ذلك أن يسكت عن حقه، ولكن ما البذيل؟ ومشكلة العراقي دائما ممتحن في وطنه وأهله، كانت الأفكار تأخذه الى مساكن اليأس، لتعود به إلى أرض الواقع الذي هو أشد وقعا من خارجه...

* * *

سافر إلى الأردن على أمل أن يجمع بعض الدنانير الأردنية، ويعود

بها إلى العراق ليتم له وطنا، في وطن أصبح فيه غريبا، أستمر بقاؤه أكثر من سنة، قدم طلبا للأمم المتحدة كلاجئ إنساني، وقد قدم له أحدهم هذه النصيحة، بالتزامن مع بحثه عن أي عمل يساعده على الوجود والاستمرار.

لم يبقَ عمل إلا واشتغل فيه، ابتداءً من عامل بناء ينقل الصخور من الأسفل إلى الأعلى، ومن ثم بائع صحف، لينتقل الى نادل في المطاعم، يقدم الشراب أثناء الطعام وبعده، كان يتخلل تلك الأعمال فترات كثيرة، وهو عاطل عن العمل، سمع كثير عن اللواط في هذا البلد، وشاهد بعض أصدقائه ممن انزلقوا في هذا المنحدر، كانت تُنسج حكايات، وحكايات عن الطلاق، حتى شاع أن مسرحية (الواد سيد الشغال) التي بطلها (عادل إمام) هي مستوحاة من واقع شخص عراقي، ظل فترة طويلة يتردد على الساحة الهاشمية، يقتات على بقايا طعام ويسكن عند بعض الأصدقاء، ولما عجز عن سداد حصته من أجرة الشقة رموه في الشارع، حتى جاءه الفرج.

ففي أحد الأيام وهو يتكئ على كوعه وينظر الى السيارات الفاترة بمشيها، مع ترامي كثير من العراقيين الذين ينتظرون أحدهم يستقدمه في عمل حتى لو كان بستانيا، ذلك المصطلح الذي شاع عند العراقيين وبالخصوص ممن هاجروا، ورجعوا إلى العراق بعدة قناني (بيبسي كبيرة) كأغلى هدية لأهله، أو من يعوده من الأقارب، والأصدقاء، ركنت سيارة قربه وأخرى بعدها، ونزل منها شخصان ممن يسمون (بودي كارد/ حارس شخصي) وفتح أحدهم الباب الخلفي للسيارة الأولى، فأشرقت منها سيدة أعمال جميلة، تخطت بقدميها وسط الساحة، ولكن لم يجرؤ أحد من التقدم نحوها، وقع نظرها عليه، أبحرت في عينه، ومن

ثم جسده، ثم أومأت لأحدهم بأن يأتي به، تبحرت به كثيرا، لم يبد أي ممانعة، فكر مع نفسه، بأنه لا يمكن أن يقدم لهم شيئا، عندما نهض من مكانه بملابسه الرثة وبطنه الخاوية إلا من بعض الخبز والزعتر، ظهر طوله المغري، وعمره الثلاثيني، مثلما كان يعلم أن الساحة الهاشمية كانت مرتعا للجهات الأمنية التي تلحظ أي شيء، وبالتالي لا يمكن أن يحدث له أي مكروه حتى إبعاده من هذا البلد ليس بممكن لأنه مزق وربما أضاع جوازه... لم يفكر كثيرا بما يمكن أن يحصل له، وإنما استرخى بالسيارة بقرفه، وجوعه وملابسه الرثة.

ذهب به إلى فندق فخم، وقد حجز له جناحا بأكمله، تم غسله وإعادته للحياة من خلال الأكل والملبس والاحترام، استمرت هذه العملية لمدة ثلاثة أيام، أستعاد فيها نشاطه وهو يسأل نفسه (ما يراد منه) ثم يترك هذا التساؤل ويعاود حياته الجديدة، عند العصر طرق أحدهم الباب عليه طالبا منه النزول إلى مطعم الفندق للقاء السيدة، نزل معه بكامل هيأته وكأنه أحد رجال الأعمال المرموقين، كان أحدهم يتقدمه بالمشي ليدله على المكان المراد الوصول إليه.

وجد السيدة التي انتشلته من الضياع، والجوع الذي كان يحيط به تنتظره، جلس معها على طاولة ليست بكبيرة ولكنها في زاوية منعزلة تضمن لها أن لا أحد يسمع ما سيتم الاتفاق عليه:

ـ كيف أصبحت؟

ـ الحمد لله... كل هذا بفضلك.

ـ بل بفضل الله.

ـ الحمد لله.

ـ باختصار (ثم انتظرت قليلا) أنا مطلقة ثلاث مرات، ولابد أن أتزوج من آخر حتى أعود لزوجي.

ـ نعم (لم يفهم مرادها، لأنه غير مهتم أصلا).

ـ وأريدك أن تتزوجني ومن ثم تطلقني، هذا كل ما في الأمر، (ثم استدركت) وسأعطيك ما تريد من المال، بل وحتى أشغلك في أحد معاملي أو شركاتي.

ـ لا مانع عندي، متى تريدين أن أتزوجك؟

ـ تبسمت السيدة، عندما وجدته غير ممانع، وبالأحرى غير مبالٍ.

ـ الخميس المقبل، سيكون مناسبا لي، وسنعمل حفلة للأقارب والأصدقاء في هذا الفندق.

ـ انا هنا ولن أبرح إلى أي مكان آخر...

ثم طلب منها أن يزيدوا بعض الشراب، واللحم. كانت المراسيم، وكأنها حفلة أوسكار حضرها ثلة ترتدي ملابس سوداء بوردة سوداء مع قمصان بيضاء، أما العروس فقد ارتدت فستانا أبيضَ قد تم شراؤه من باريس مخصوصا لها، وقد كانت فيه وكأنها أميرة إيطالية، فالفستان يكشف صدرها، لينبض من فتحته نهدان وكأنهما أول توردهما، ولم يقطفهما من قبل أي رجل، ويلتف عند خصرها ليحولها إلى راقصة باليه قد لامست الثامنة عشرة بقليل، لكنه لن يطول إلى نهاية جسدها بل توقف عند الركبتين ليتوسع، التطريز العام للثوب كان يشع ألوانا وكأنه

قوس قزح، مع بعض التخريمات عند الظهر حتى بان أكثره، في قدميها كانت تلبس حذاءً وردي اللون، كشف الأظافر، وقد لون كل اظفر بلون يخالف الآخر، يطوق شعرها تاج مرصع ببعض الجواهر الثمينة، كانت الرقبة مطوقة بعقد ثمين صيغ خصيصا لها، لم تكن زينتها لتجعلها، وكأنها سيدة حديثة النعمة، وإنما كل تصرفاتها، ولبسها، وزينتها، كانت تدل على أنها من عائلة ثرية، وقد اعتادت مثل هكذا حفلات مثلما اعتادت العرس.

جلسا معا في المكان المخصص لأي عريسين، وبدأت الكاميرات تؤرشف لهذا العرس، ومن ثم انهالت بعض التهاني المشفوعة ببعض الهدايا، أما الزوج فلم يكن أحد ليعبره بهدية باستثناء التبريكات الناشفة. كانت الموسيقى الهادئة هي من تضفي على المكان الهيبة، ثم عزفت موسيقى الرقص الهادئ فطلبت منه أن يأخذ بيدها، وينزلا عند الساحة المخصصة للرقص ليبدأ رقصة الحب، أو الزواج الأخير كما يطلق عليها البعض، كانت الأضواء المسلطة على ساحة الرقص تتغير، وتتلون وقد أشعلت الحب في قلوب البعض، مثلما أشعلت الحب في داخله، عندما بدأ جسداهما يقتربان معا، وكانت تجذبه بقوة نحوها، وقع بصره على صدرها النابض بالبياض، أصابه بعض التهيج، وعندما شمَّ عطرها الخاص تنبه إلى ما هو قادم عليه، تساءل في نفسه: أتريدني زوجا صوريا، أم حقيقيا، ولكن في كلتا الحالتين غير مهم، المهم ان أجد مكانا أعيش فيه، يوفر لي الطعام والمنام فقط. اتجها إلى الجناح الخاص بها، وشموع الفرح لفتاتين صغيرتين تتقدمهما، والطبول تحفهما من خلف، مع البعض الخاص من أهلها، ومن مديري الشركات والمصانع الذين

وقفوا على جانبي السلم المؤدي الى الطابق الأول، وكلهم فرح وسرور بتمام الزواج لسيدتهم الأولى صاحبة الأمر والنهي.

كانت المائدة التي تتوسط المكان تحتوي على ما لذَّ وطاب، حتى الشراب كان معتقاً ايرلنديا عمره أكثر من خمسين عاما، همس بأذنها طالبا أن يحملها مثل الأفلام العربية لكنها زجرته، وطلبت منه ان يتصرف بلياقة، عندما أغلقت الباب عليهما كانت الأضواء الحمراء والخافتة تعم المكان لتوحي بالرومانسية والحب، أرادت ان تجلس على المائدة كي تتناول بعض الطعام، وغايتها ان تتعود عليه، لكنه لم يمهلها، سحبها من يدها الى حيث فراش الزوجية، طلبت منه مهلة، لكنه أدارها وفتح الأزرار التي تمسك جنبي الفستان الباريسي، تفاجأت السيدة بجرأته التي كانت تتمناها في زوجها السابق.

انكشف الجسد المقدس أمامه، لم يتمالك نفسه أمام هذا الاكتشاف المبهج، ولم يضيِّعْ وقتا كثيرا بالرومانسية، فذهب إلى حيث يُغمد السيف وراح يطفئ لهيبها، وربما لهيبه، لم تكن الجولة الأولى من الحب سوى دقائق، كان قد أفرغ ما جمعه لأكثر من شهر، وربما أكثر من ذلك بكثير، دخلا الحمام سويةً وقد بدأت سلطته تظهر أنيابها عليها، وهي مستكينة، وراضية بهذا التحول، ولكنها في الوقت نفسه تشعر أن الأمور تحت سيطرتها، ومن الممكن ان تغير أي شيء، فكل الأشياء رهن إرادتها.

جلسا على مائدة الطعام، قطعت جزءًا من لحم الضأني وأطعمته، كانت تشعر في داخلها أو ربما أرادت ان تشعر بأنها مثل أغلب النساء اللاتي يردن الخضوع والتودد للزوج، ذلك الذي منحه الله صفة الغيوم

الماطرة، ومنح النساء سمة الأرض التي تستقي منها. كانت ملابسها الشفافة، وشعرها المحتمي داخل الفوطة، يحفزه على ان يعيد الكرَّة مرة أخرى، ولكنها طلبت منه أن يتم عشاءه، فالجوع بدأ يستصرخ بطنها، ولم تعتد هي على ذلك، لم يمهلها كثيرا حتى تتم عشاءها، فتح قنينة الويسكي وصبَّ جزءا بسيطا منه في قعر الكأس، هكذا تعلم من الأيام القليلة التي سكنها في الفندق، ان تشرب خمرا يعني ان تعاقر الحياة كأنها غجرية مهلهلة لا تمنحك كثيرا مثلما لا تمهلك أكثر.

نظر إليها، ولم ينتظرها حتى تتم كلامها، سحبها إلى فراش الزوجية، وراح يطيل معاشرتها، كان لذكورته الشابة، إضافة لطوله المتميز وهو يمتطي صهوة زوجته تشعرها بالفرح الأكيد، وهو يمارس معها الحب بكل حب، وكأنهما عاشا قصة حب طويلة، وتكللت بالزواج.

عاد للاستحمام من جديد وقد بان التعب والترهل على مشيتها، على العكس منه، كان يشعر معها بفحولة تمنحه القوة، والسطوة، والتميز، عادا من جديد إلى المائدة ليتما عشاءهما، بينما هي تأكل تذكرت ليلة عرسها مع زوجها الأول الذي كان يتحدث عن العمل، والمشاريع والمال، وعلى مضض أتما الشكل الشرعي للزواج ليذهب كل واحد منهما في عالم الرأسمال والتجارة والصناعة، وما فراش الزوجية الا وسادة لنفض هموم التفكير اليومي، ومشاكله، وكثيرا ما كانت المعاشرة في آخر سلم تفكيره، والسبب الآخر انه كان يشعر أنها هي المسيطرة ولخوفه على المصالح المتداخلة بينهما، راح يرضخ لطلباتها التي كانت تتمنى أن يرفضها، وهو العكس، كلما راحت تضغط عليه كان يتمدد أكثر حتى تحول إلى سجادة سلالم تدوسه عند كل صعود أو نزول.

جلس قربها وقد وضع فوهة الكأس على شفتيها، ويده الأخرى أحاطتها من الجانب الآخر، حتى بدت تحته وكأنها حمامة في فم ثعلب، لم يتركها حتى أتمت الكأس كله، ذهب الى جهاز التسجيل(ريكوردر) وأدار ما كان فيه من كاسيت (انت عمري)، طلب منها ان ترقص على أنغامه، تمنعت لكنه، وبنظرة غضب أمرها أن ترقص له، تمايلت مع المقدمة الموسيقية للمبدع عبد الوهاب.

أراد ان يعيش تلك اللحظات التي ربما يستفيق منها، وهو متكئ في الساحة الهاشمية من جديد، ذهب إلى النافذة، وأماط عنها ما يمنع ولوج ضوء القمر الشاهد على ليلة سحرية لامرأة ربما تمنتها، وتمناها، أطل برأسه على الشوارع التي كانت غافية إلا من بعض السيارات التي تفيقها من نومها، كانت الأعمدة الكهربائية المنحنية بالحب لتنير درب الآخرين ناعسة، بعض الجبال الصغيرة التي سكنت رؤوسها البيوت كانت حارسة، وشاهدة على هذه الليلة الحالمة، رقص معها وتمايلا معاً وما ان اقتربا من حافة السرير حتى دفعها نحوه، لم تكن لتمانع بعد أن أخذ الشرب منها مأخذا، وربما لهفتها من أن تجرب الحب لأكثر من مرة، أو الحرمان الذي كانت تعانيه مع زوجها السابق، كل هذه الأمور جعلتها سيدة غير التي يعرفها الآخرون.

أعلنت الساعة الحادية عشرة صباحا، وقد رن هاتف الغرفة، استفاقت على صوته، تعاكست يداها وهي تعلن كسلها، رفعت السماعة كان الطرف الآخر أبوها، طلبت منه أن يؤجل مقابلتها الى العصر، ولم ترد على تهانيه، وتبريكاته إلا باقتضاب، عادت الى فراشها بعد ان قبلت زوجها الجديد الذي كان يستمع الى مكالمتها، ومن ثم طلب منها أن تطلب له الفطور فهو

يشعر بجوع شديد، نهضت على فورها ورفعت السماعة وطلبت ما أراد على وجه السرعة، يبدو أن فطور العرائس الجدد كان مختلفا عن الزبائن المستديمين في الفندق، بعد أقل من عشر دقائق كان العسل والقشطة والبيض والجبن، وأطباق أخرى قد افترشت المائدة.

دخلا إلى الحمام معاً، وكانت المداعبة، والضحك، والحب، هم سادة الموقف في كل ركن من أركان الجناح الكبير، أرادا أن يجعلا من كل مكان فيه شاهدا على حبهما، نزلا إلى صالة الفندق، وكان الجميع بانتظارهما، كانت تتأبط ذراعه فخرا وحبا، أرادت أن تفتخر به أمامهم، لكنهم لم يكونوا ليصدقوها، لما عرفوا عنها من قوة، وصلابة كسيدة أعمال قاسية، ومتجبرة، لم يطل بقاؤها معهم فاعتذرت لهم، بعد ان همس بأذنها زوجها من انه لا يحب الأماكن الرسمية التي تقيد حريتهما، اتجها نحو الباب الخارجية للفندق فتبعها بعض حمايتها، ولكنها رفضت ذلك، وفضلت ان تذهب مع زوجها بمفردها دون أي حماية أو عين ترقبهما.

ذهبت به إلى حيث الأماكن التي سمع بها ولم يجرؤ أن يدخلها، طافت به الشوارع، وساحت معه في الحدائق، ذهبت إلى حيث الأماكن التي تقصدها العوائل المحترمة، طلبت منه أن يدخلا إلى أحد النوادي في أحد الفنادق الراقية، لكنه نهرها، وطلب منها أن تكف بعد اليوم عن دخول مثل هذه الأماكن، في داخلها فرحت أنَّ لها زوجا يمنعها ما تحب، أو ما اعتادت عليه، ولكنها في الظاهر رفضت ذلك بالقول:

ـ أنت زوج مؤقت وما أن تنتهي الأيام الثلاثة حتى أطلقك، وتذهب إلى حالك.

ـ حتى يكون ذلك يجب أن تحترميني كوني زوجك أمام الله، والمجتمع ونفسي.

ـ ولكن هذا لا يعطيك الحق أن تتحكم بي.

ـ بل يعطيني الحق أن ألطمك على وجهك، و لا أبالي.

ـ أتحداك أن تفعل ذلك.

ـ جربي أن تدخلي إلى هذا النادي، وسترين ما لا يعجبك.

ـ لو كان معي حراسي لعلمتك كيف تتكلم معي.

ـ لا يستطيع كل رجال العالم أن يمنعوك عني، مازالت زوجتي حتى لو كان أمر البقاء أو الانفصال بيدك.

ـ يبدو أنك تطاولت كثيرا.

ـ على العكس يبدو أن زوجك السابق لم يعلمك الأدب أيتها السليطة، والله لو لم ترجعي عن الذي في بالك، لأوسعك ضرباً. كانت متمتعة بداخلها بهذه الرجولة التي افتقدتها في أبيها، وزوجها، وأخيها الأصغر، وكل رؤساء مجالس شركاتها، ومن يعمل معها من الرجال في الشركات المناوئة، أو المتوائمة معها، لم ترد أن يتطور الموضوع أكثر، أدارت مقود السيارة، وعادت إلى الفندق، بعد أن تمتعت بيوم جميل لم تشهد مثله في أيامها السابقة.

أسرع أحد حماياتها وأخذ منها مفتاح السيارة، وذهب يركنها في الكراج، بينما دخل الاثنان إلى الفندق، وراحت هي إلى ضيوفها من الأهل، والأقارب، والأصدقاء، والعملاء لاستقبال التهاني، بينما

ذهب الزوج إلى (جناحه) ليستحم ويزيل بعض الغضب الذي ملأه من تصرفات زوجته، أو التي تصور أنه زوجها، بعد أن خرج من الحمام، بدأ يحتسي بعض الشراب الذي يشعره بالخدر، والاسترخاء، لم تطل زوجته البقاء في الأسفل، واعتذرت منهم وهمت صاعدة نحوه، وجدته وقد عمَّر مائدة فيها بعض الشراب لأكثر من نوع، وهو يتأمل هذا العالم الفسيح الذي يحيط بالجبال الوعرة، وكأن عمان بلدة حلت عليها اللعنة منذ لوط الأول، ليتناسل فيه أبناء هذا البلد الجميل في هدوئه وسكينته.

رفعت السماعة، وطلبت العشاء، ثم دخلت إلى الحمام لتزيل بعض التشنجات جراء الحوار الذي دار مع زوجها، حتى بان عليها ذلك عند استقبالها لمن جاء لغرض التهنئة، لكن زوجها لم يبالِ بذلك، بعد أن خرجت من الحمام وهي تلبس ملابس شفافة لم يرها حتى في الأفلام العربية والأجنبية، أما رائحة العطر الفواح، والمغري لليالي الحمراء فكان يستفز الشجر قبل الطير، ومع ذلك كان الزوج أصلب من أن يقبل أن يهان من زوجته حتى لو كانت العملية كلها تمثيلية، أو حقيقة مؤقتة.

ذهبت إلى الفراش على أمل أن يصالحها زوجها، فهي صاحبة الجلالة في إمبراطورية من المال والأعمال، ولو أرادت أن ترشح نفسها للبرلمان لكان ذلك أيسر شيء، لكن ذلك أبغض لها من أن تكون مسؤولة حكومية مقابل حريتها، ومملكتها الشخصية، طرق النادل الباب فسمحت له، ثم بدأ يضع الأطباق على المائدة، ومن ثم أشعلت شمعتين وسط المائدة، أطفأت الأضواء العالية، وأضاءت الحمراء بدلا عنها، جلست على المائدة على أمل ان يأتي زوجها من الشرفة ليتناولا العشاء،

ولكنه لم يبال بكل ذلك، وطفق يستمتع بجلسته، ووحدته التي تعلم عليها في هذا البلد الأمين لأكثر من ثلاث سنوات.

ذهبت إلى جهاز التسجيل، ووضعت في بطنه شريط كاسيت لنجاة الصغيرة (آه لو تعرف) وأخذت تتمايل مع نفسها متجهة إلى الفراش على أمل أن يأتيها زوجها، لكنه لم يبالِ بأي شيء، وظل غارقا بملكوته العزوبي، أما هي فلم تتعود الإهمال، أو عدم الاهتمام من قبل الآخرين، مثلما لم تعرف الدموع يوماً، أو التنازل، أو حتى أن تطلب الصلح من أي شخص حتى لو كانت هي من أخطأت بحقه، لكن نجاة الصغيرة ظلت صادحة في الأجواء الحمراء الغارقة بالحب العاطفي وليس المعاشرة، غنَّت: (من يوم ما عرفتك والدنيا لها طعم جديد... والجنة التي بيحكوا عنها اللي بيحكوا عنها ما بقت بعيد) لتكرر بل وتترجم حبها أشجانا تفوح صباحا ملؤه الأمل، والزوج وكأنه ليس جزءًا من هذا العالم المصطنع، أو الخيالي، أو الحقيقي المؤقت، لم يكن من بد سوى أن تأتي الزوجة لتصالحه، طوقته بيدها من الخلف وصدرها لامس رقبته وجزءا من رأسه، ومن ثم طبعت قبلة على خده، لم يتنازل لها، بل ظل على إصراره (ربما هي صحوة متشرد، أو نزوة رجولة عابرة) جلست قربه، وسألته عن الذي يزعجها منه، التفت إليها وقال:

- من السهل أن تذهبي إلى الساحة الهاشمية وتشتري كثيرا من الرجال، ولكن من الصعب أن تشتري كرامتهم، أو رجولتهم، وان كانت هناك ذكورة للإيجار، فلا أعتقد أن هناك رجولة للامتهان، نحن هربنا من ظلم النظام البعثي في العراق لأن كرامتنا ألحت علينا، ورجولتنا منعتنا من أن نستكين للذل، ولا تعتقدي وإن وجدتِ كثيرا من الرجال في

الساحة الهاشمية يركضون خلف هذا، أو ذاك فهو من أجل العمل، وليس غير العمل، والأهم هو انه عندما يضحي أيٌّ منا بجزء من كرامته، فهو في الحقيقة يحفظ كرامة أهله في البلد الآخر، سحقا لك أيها البلد اللعين جئت بنا دون خيارات، أما الموت أو اليأس، إلا من عطفت عليه الأمم المتحدة، وذاك ذو حظ عظيم.

ـ أصبحت فيلسوفا، وأنت قبل الأمس شحاذا لا تستطيع ملء بطنك زعترا، أو رغيفا حاف، بؤسا لك، أنت مثل القطط تأكل وتنكر.

مال بكفه المخمور وما أوتي من قوة على وجهها، فانقلب بها الكرسي الى الخلف وتبعثر شعرها على وجهها، وانكشف ثوبها على بطنها، مالت إلى الأرض، وراحت تلملم نفسها بعد أن أزاحت عن وجهها خصلات الشعر الرطبة، ودخلت مسرعة إلى الغرفة، وارتمت على فراشها وهي تبكي، تبعها إلى الداخل وأثنى بركبتيه على الفراش فوقها، وطلب منها أن ينتهي زواجهما الآن ليعود إلى حيث كرامته في الساحة الهاشمية ينتظر أن يعمل يوما وينتظر أسبوعا، أو أن يعطف عليه أحد الأصدقاء بدينار أو وجبة غذاء على أن يكون ذليلا مثل الكلب يتبع سيده حتى لو ذهب إلى الحمامات.

تراجع صوت البكاء، بعد أن تصورت انه تبعها ليعتذر منها، كي يحافظ على حياته الجديدة بكل مغرياتها، استفاقت من نحيبها على صوت كسر غرورها، وغطرستها، التفت إليه وبقايا أصابع مطبوعة على الخد، وعيون لم تعرف الدموع قبل اليوم تُذرف دون حساب:

ـ ماذا قلت؟

ـ نعم الآن ينتهي كل شيء، أرسلي بطلب المأذون ليفك هذا العقد الفاسد.

ـ وماذا يقول عني الناس؟ لم أنهِ يومي الثاني حتى انفصلت من جديد.

ـ ما يهمك الناس وليس غير الناس، أما أنا فلا يهمني إلا نفسي أولا، ومن اعتقدتها زوجتي.

ـ أرجوك انتظر، هل تريد ان تستمر بحياتك الزوجية معي؟

ـ من قبل نعم، أما الآن فلا وألف لا.

ـ وما السبب؟

ـ أنت امرأة تحتاجين الى من يربيك من جديد، تعلمت أن تأمري فتطاعي، أن تخطئي ليعتذر الآخرون منك، أن تكذبي ليصدقك الآخرون، ان كنت تريدين العيش معي فيجب أن تعرفي حقوق الزوج أولا، ومن ثم حقوقك كزوجة لتستمر الحياة، لا تتصوري أن الدين الإسلامي عندما وضع أمر العصمة بيد الرجل كان على خطأ، مثلما لا تتصوري عندما أعطاكم رخصة الخلع كان على خطأ، كل الشرائع الأرضية والسماوية تعمل على تنظيم حياة الإنسان، ولكن الإنسان بطبعه التمرد ليكسر كل ما يحاول أن ينظمه.

ـ أرجوك انتظر قليلا، لا تتعجل في تصرف قد يندم عليه كلانا.

ـ لا يوجد عندي شيء أخسره في هذا البلد باستثناء الكرامة التي أحاول ان أحافظ عليها، هل تعرفين، انني لو أردت الزواج في هذا البلد لتزوجت في سنتي الأولى، ولكني رفضت، لاعتقادي ان عاداتكم، وتقاليدكم

تختلف عنا في العراق، حتى عندما أتيت أنت وعضلاتك المنفصلة وأرغمتموني على الذهاب معك، وفي سري لا أعلم ما تريدين، ولكني لم أتصور انني من الممكن ان أتزوج، وأتحول الى تابع ذليل لك أو لأمثالك، وعندما وافقت كان اتفاقنا أن ينتهي الموضوع في اليوم الثالث، ولكنك لا تطاقين، ساعد الله زوجك السابق.

ـ أرجوك امنحني فرصة.

ـ كيف لك أن تدخلي في نادٍ عام فيه من بائعات الهوى، والسكارى ما لا يحزر أي تصرف من الممكن ان يصدر من أي شخص داخله، وعندما أحاول منعك من ذلك تهدديني بحمايتك، هل يجوز ان تهدد المرأة زوجها، وربما تضربه، هل كنت تفعلين ذلك مع زوجك السابق، أي أخلاق هذه التي أنت فيها، ألا يوجد عندنا هنا كل شيء؟ لك أنت أن تعملي ما تشائين في بيتك، وزوجك، حتى لو لم يراع ذاك حدود الله، ولكنه في مكان مستور لا يعلمه إلا الله.

ـ أعترف لك إنني أخطأت بحقك، وأطلب الاعتذار.

ـ أنت لا تعرفين الاعتذار، أو الخطأ، أعرف أنا ذلك، أنت في لحظة ضعف، لا تتوقعين مني أن أغفر لك، وسأنتظر حتى الصباح لنتم الأمر، وأعود الى ساحتي التي أشتاق إليها بدل هذا الزيف الذي تعيشين فيه أيها الوقحة السليطة المتجبرة.

أخذ الوسادة، والملاءة وراح في مكان ركين من الغرفة، أخذ ينفث بعض غضبه من خلال الدخان، وبعض كؤوس الويسكي المتتالية، استفاقت من غيبوبتها وغيها، وما كانت ذاهبة هي فيه، فعالم الرجال

يختلف، ومن الصعب أن يعرف أي كائن كنهه، وما الآخرون حينما يطأطئون رؤوسهم لها، فهم في الحقيقة يطأطئون رقابهم للقمة العيش، فكم من شجرة تنحني وهي محملة بالثمار وكم من أشجار عالية لأنها خالية من كل معاني الحياة.

أخذت وسادة وملاءة وطفقت بقربه، وتمددت على طوله وقبلت يده، ومن ثم رقبته وخده حتى جبهته، ثم تقدمت نحو فمه، وراحت تلثمه، حتى إذا ما تمكنت من جلستها ارتمت في حضنه، أخذت منه الكأس، ووضعته على جانب، وبتغنج ربما كان مخزونا في داخل كل امرأة راحت تداعب شعر صدره، ثم أنزلت حنكها في رقبتها وطلبت منه السماح، بعد أن راحت يدها تصب قليلا من الويسكي في قعر الكأس لتقربه من فمه، مسك الكأس، وطلب منها أن يتما اليوم وغدا وهي في طاعة كاملة له، وبعدها تعمل ما يحلو لها، وضعت أصبعها على فمه لتقطع الكلام، فصمت، ثم أخذت تداعبه، حتى ذاب أحدهما في حجر الآخر، أعادا الكرَّة أكثر من مرة، حتى أعياهما التعب وامتلأت منفضة السكائر بالأعقاب، وفرغ ما تبقى من قنينة الويسكي في قعر الكؤوس.

كالعادة كان صباحهما مثل الذي سبقه يعلن انفراجه عند الساعة الحادية عشرة فما فوق، ولكن هذه المرَّة استفاقت هي قبله لتطلب الفطور، وقد أعدته على أحسن وجه، ثم قبلته على خده كي توقظه من نوم كان سره المتعة والعشق، استفاق بعد أن تمط بقوة وهو يشرع يديه باتجاهين مختلفين، وبادرته بالصباح ورد بأحسن منه.

أول مرة تُصبِّح على شخص وقد اعتادت أن يلقيه عليها الآخرون في البيت أو الشارع أو الشركة، أما هو فعلى العكس كان الصباح سمته، لأنه

يؤمن أنه القلب النابض لليوم، فان كان جميلا تم اليوم كله في جمال، وان كان تعيسا كان اليوم مثله.

أتمّا فطورهما، ثم همّا بالخروج من الفندق، وقد تبعها اثنان من حراسها، لكنها وبسرعة صرفتهما بإشارة منها، وأخذت تتبختر مع زوجها، فضّلا أن يزورا الأسواق، والمحلات في وسط المدينة، ويدعا السيارة، فلا يريدان أن يستعجلا الحياة معا، فلم يبق أكثر من يوم، وقليل من اليوم الحالي، في الطريق أرادت أن تخبره بقرارها الذي أخذته عن عقل ودراية، ودراسة، لكنها فضلت أن يكون هذا الكلام في مكان هادئ ليس فيه مارَّة أو من يقطع حديثهما.

جلسا في مطعم بسيط ولكنه جميل يتوسط المدينة، فيه بعض الأشجار المتناثرة، طلب طعاما اعتياديا ليس مثل الذي في الفندق، أكلت بشهية، وكأنها معه اكتشفت الحياة بعيدة عن زيفها، طلبت منه بعد أن استحلفته بكل ما يعتقد ويحب بكل لحظة سعادة عاشتها معه، أن يجيبها لما تريد، وان لا يرفض طلبها.

ـ لك ما تريدين، ولكن أنا لا أملك ما يمكن أن أعطيك إياه.

ـ بل تملك أن تمنحني السعادة التي لم أشعر بها رغم كل المال والأعمال التي تحيط بي.

ـ الحمد لله، أن يجعل للضعفاء من أمثالي يملكون أسرار سعادة الآخرين، فكيف وأنا زوجك.

ـ الحمد لله، أريدك أن تعود معي إلى البيت وليس الفندق.

ـ هل هذا هو قرارك الذي كنت أقرؤه بعينيك منذ صباح اليوم، وأنت

تحاولين أن تقومي بدور الزوجة، وكأنك قد تأثرت بما تشاهدينه من أفلام، أو مسلسلات عربية.

ـ بل أجتهد لإرضائك، لقد أحسست بالحياة معك، الحياة ليست مالا وسلطة، الحياة لحظة حب ووجود.

ـ ولكن بشرط.

ـ لا تكمل. أنا سألبي كل شروطك...

هكذا ذهب الزوجان غير المتجانسين في كل شيء إلا في الموضوع الإنساني في أن يجد كل منهما نفسه في الآخر ليبدأ من جديد حياتهما، أما حسون فكان يراوده مثل هذا الحلم أو الحقيقة، وكثيرا ما كان يذهب إلى الساحة الهاشمية على أمل أن يصادف مثل هذه الحالة ليعيش الدور أو يتقمصه بعد أن ظل يتقصى عن مدى صدقها على الرغم من أن البعض قد كذبها، بينما أكدها البعض الآخر من الذين أدّعو أن الشخص الذي تدور حوله هذه الحكاية كان يسكن معهم في الشقة، وانه عاد لهم بعد فترة وهو مختلف المنظر والملبس، ومن ثم قذفهم ببعض الكلمات، وذكرهم بالذي مضى، وكيف رموه في الشارع بعد أن عجز عن سداده حصته من إيجار الشقة، ومن ثم ودعهم بعد أن رمى لهم حفنة من الدنانير عرفانا بالجميل الذي قدموه له، واحتضنوه فترة لم يكن فيها يقوى على دفع قيمة الطعام الذي يأكله معهم.

* * *

لكن مراجعاته لتلك الأماكن لم تكن لتجدي له نفعاً، أستطاع أن يجمع له مبلغا ليس بالكبير ولكن في الوقت نفسه ليس بالبسيط ثم عاد

إلى العراق، عندما وصل إلى بيت أهله، على أمل أن يرتاح، ثم يذهب إلى بيت عمه لجلب زوجته، وأولاده، أخبره أخوه ناهض أن بعض رجالات الحزب الحاكم جاؤوا وسألوا عنه، وأخبروا أهله بأنه ستقطع البطاقة التموينية عنه وأهله إن لم يراجع الفرقة الحزبية.

كانت تلك الأخبار، بمثابة ضربة مدوية له، ولم يكن بعد قد تعرفت قدماه على أرض بلده، الذي لم يذق منه سوى الخوف، والحصار، والإرهاب، لقي تأنيبا كبيرا من أمه بدل الترحاب بعد فراق ليس بالقصير. عاد بزوجته إلى بيته، الذي هو عبارة عن غرفة واحدة ومغاسل، مع بقية من الأطلال لم يجمعها سقف حتى لحظة عودته، باستثناء باب رئيسة، هي من خلالها يعرف وجه البيت.

رُحِّل من الفرقة الحزبية الى دائرة الأمن من أجل بعض الاستفسارات، وخرج بعد أكثر من سنة، وما شفع له، انه جلب معه التقارير الطبية من الأردن تثبت انه مصاب بـ(التهاب الكبد الفيروسي) وهي الحجة التي أنقذته من براثن الأمن، بعد أن واجهه بحقائق مراجعاته للأمم المتحدة طالباً للجوء، مثلما شفع له احتجازه بالأمن العامة، بالعودة إلى وظيفته، ورجوع البطاقة التموينية التي أحتجزها وكيل المواد الغذائية في متجره، بأمر من المختار ومسؤول المنطقة الحزبي.

استفاق من سكرته، أخذ يعقد مقارنات بين حياته في زمن البعث المظلم، وحياته في ظل محتل مجرم، ولم يجد فرقا كبيرا سوى أن في الحياة الأولى كانت المناصب موزعة والأحلام مأسورة، بينما في الحياة الثانية لم يكن بعد قد ظهرت ملامح النظام الجديد، ولابد أن يجد لنفسه مكانا فيه، إذ لم يعد في ظل النظام الجديد حدود للأحلام.

* * *

لم تكن الأمور لتمضي على هواها، وقد قضى خالد وطراً منها، وهو في كنف أمه، حتى عادت أخته، إلى بيتهم، وهي مسعورة، تنهش كل من يقرب أمها، بعد أن شعرت بهزيمتها، وقد دنست فراشها، غانية على الرغم من أن زوجها أقسم لها انه لم يحدث بينهما شيء، فقد كانت محاولة فاشلة في لحظة ضعف. وبالمقابل فأنها قد كسبت تأييد أمها المطلق، على الرغم من تأييدها السابق، ولأنها كانت كاللبوة الجريحة، فأنها كثيراً ما كانت تختلق المشاكل مع من يقرب لأمها، بعد أن شعرت بنفور الجميع منها. لكن حظوة خالد وزوجته عند الأم، لم تكن لتستمر أكثر من غفوة ربيع، لتعود بمشاكل جمة بين الابنة المطلقة وزوجة خالد، والتي ابتدأت بالكلام غير المباشر، إلى المباشر، ومن الخصام حتى انتهى إلى العراك بالأيدي، أفرزت تلك المشاكل إلى طرد خالد وزوجته من بيت العائلة.

بدا لخالد أن كرامته على المحك وانه لن يحصل أي سكون أو تراضٍ في هذا المكان، فاستأجر بيتا في منطقة شعبية، بعيدة عن أهله.

كانت الأم مازالت الأوجاع المترتبة على قطع ساقها يزداد عليها، وما يفرزه من خدمة تقدمها الابنة لها، كل ذلك يدفع بازدياد الفجوة بينهما، فراح خالد ينغمس قليلا قليلا بمستجدات البيت الجديد، وإيجاره، وأهمها خط المولدة الأهلية، وتبعات الأسرة الجديدة والتي كان في مأمن منها وهو تحت خيمة أهله.

بدأت الأمور تسوء يوماً بعد آخر، مثلما بدأ يتراجع مادياً، وبدأت المُثل والقيم التي كان ينثرها بين أقرانه من الشرطة تنهار الواحدة تلو الأخرى، على الرغم من أن كثيرا منهم، كانوا يشرحون لهم سوء

أوضاعهم المالية، وبأن الفضيلة هي نتاج الأخلاق للذين وضعهم الأسري والمالي جيد، وما عدا ذلك، فان الأمر لا يعدو أن يكون مثاليات ليس لها أساس في الواقع. وبدأت تتراكم عليه احتياجات البيت الجديد، على الرغم من أن عائلته لا تتعدى الزوجة وثلاثة أطفال، بعمر أقلام الرصاص وهي تحبو على الورق.

بدأت أولى بوادر الرشوة على محياه، بعد أن أستنفد الراتب ولم يتعدَّ الشهر ثلثه الأول، لكن الذي قصم ظهره ودفعه نحو الرشوة بشكل مباشر، هو تكاليف الطبيب والفحوصات، والتحاليل، والأشعة، التي طلبها الطبيب لزوجته لمعرفة أسباب الالتهابات الداخلية التي أصابتها.

انخرط بعالم الرشوة وقد لبس وجها حيوانيا لا يعرف الحياء لضراوة الجوع، وهو ينافس الآخرين حتى على الفطائس من الذين تهالكوا على لقمة العيش، أو لمشاجرة غير مجدية بين مراهقين، وغيرها من المشاجرات التي كانت تأتيهم إلى مركز الشرطة لأسباب تافهة أخرى.

لم يمضِ على بقائه في البيت المستأجر أكثر من ثلاثة أشهر، حتى طلب منه صاحب الدار إخلاءه لضرورة شخصية، انتقل إلى دار جديدة ومنه إلى أخرى، وهكذا بدأ يتنقل من دار إلى أخرى، وما يتبعه من نقل ابنه من مدرسة إلى أخرى، وتكاليف نقل أثاث وأغراض البيت الباهظة.

أشتغل بعد الدوام عند أخيه، الذي لم تشفع عنده صلة القربى، فجعله تحت رحمة أحد صبيانه من الذين يرتكز عليهم العمل، وكان الأخير يزيد إيغالاً في إيذائه، ربما لأنه كان يكره الشرطة، وربما مثل كل العراقيين كانوا يخافون السلطة التنفيذية المتمثلة بهم، وهم في العموم أداة تنفيذية قاسية بيد أي حاكم على الشعب العراقي.

أستمر في عمله الجديد رغم تلكؤه، وكان نظير ذلك أن ترك الوظيفة في سلك الداخلية الذي لم يكن ليصل به إلى بر الأمان، ولا يكفيه وعائلته قوت يومهم، لكن الضغط من قبل المسؤول عنه في العمل استمر، فقد أضحى ينيط به مهام عمل إضافية، تفوق قدراته الجسدية، ما أضطره إلى أن يترك العمل، وهكذا أفلس من وظيفته وعمله القاسي.

هل صحيح أن الإنسان من الممكن أن يفقد الأمل بالعيش في وطن فيه كل هذه الثروات، نظر إلى عائلته، نظر إلى نفسه، تذكر المآسي التي كانت تمر عليه في مركز الشرطة والناس تتشاجر فيما بينها على لقمة العيش، وكان هو يؤنبهم لأنهم فقدوا أهم صفة فيهم وهي الصفة الإنسانية في عدم تعدي أحدهم على الآخر، وأن القانون هو الذي يجب أن يسود المجتمع الإنساني.

كيف حاله الآن، ولم يبق على رأس الشهر سوى أيام قلائل، من أين سيأتي بالإيجار لصاحب الدار، من أين سيأتي بالغذاء لهذه العائلة المسؤولة منه، كيف يسدد استحقاق المولدة الأهلية، كل تلك المخاوف كانت تراوده، ثم يعود يسأل نفسه: لماذا لم ترسل أمي بطلبي؟ هل أذهب إليها لأستعطفها، كي أعود من جديد إلى البيت.

لكن كرامته ورفض زوجته الرجوع معه إلى بيت أهله، أغلقت السبل، لم يبق أمامه إلا طريق واحد هو الرجوع إلى وظيفته من جديد، أتصل بالشخص المسؤول عنه في مركز الشرطة، وطلب منه العودة إلى وظيفته، كانت المساومة طبيعية في مثل هذا السلك، لأناس ارتهنوا حياة الآخرين من أجل بضعة من الدنانير، تم الاتفاق على أن يتنازل عن راتبه لمدة شهرين، مقابل تحويل تركه للوظيفة إلى غياب لظروف صحية.

عاد إلى الوظيفة، وتحول إلى منشار حديد قاسٍ، لا ينجز أي معاملة دون مقابل، حتى لو كان ذلك العمل هو استجلاب موقوف من والى القاضي، أو نقل أوراقه من والى القاضي.

لم يبق من مدخرات زوجته شيء بعد أن باع ذهبها، وغرفة النوم، أستطاع أن يدفع الأجرة للأشهر الثلاثة الآتية على أمل أن تجد الطبيعة، أو الظروف حلا لمشكلة الأجرة المتقادمة، كثيرا ما كان يسأل نفسه، لماذا يمضي الشهر بسرعة اتجاه صاحب الدار، ويتباطأ اتجاه الراتب... بدا الضعف على جسده ظاهراً للعيان، بعد ان كان يمتلك صدراً عريضاً، ووجها، كثيرا ما كانت الابتسامة صفته، لكنه الآن مهموم يتنقل بين واجبات الضباط وأوامرهم، وبين حاجيات البيت وأوامر زوجته.

حتى أتت الساعة، وربما الظرف المناسب، وقد أرسل والده بطلبه ليخبره، أن أحد أصدقائه، من الذين يمتلكون بيتا مساحته أكثر من نصف دونم يعيش وحيداً مع زوجته، وقد بنا مشتملا صغيرا ويريد استئجاره بسعر بسيط، ولكن بشرط ان يكون المستأجر معروفا حتى يستأمنه على نفسه، وزوجته. كان هذا الاتصال بمثابة رسول سماوي ينقذه من الوضع المزري الذي وصل إليه، انتقل خالد إلى المشتمل، على أمل أن تكون هي المحطة الأخيرة، وقد أرهقه التنقل من بيت إلى آخر.

بدأ يتقرب إلى صاحب الدار وهو (منسي العاني)، وفي المقابل بدأت زوجته تتقرب إلى زوجته، والتي كانت تناديها بـ(أم غائب)، هكذا نشأت علاقة غير بريئة بين من يريد أن يبحث عن الأمان بوجود الآخرين، ومن يريد أن يبحث عن الأمان تحت كنف الآخرين.

ومنسي العاني من الأغنياء، يمتلك إضافة إلى هذا البيت الكبير بعض

الأسهم في الفنادق ذات الدرجة الأولى، مع بعض البساتين، والأموال النقدية في المصرف، وفي المقابل كانت زوجته تحب شراء الذهب، وكثيرا ما كانت تخرج مع زوجة خالد إلى محال الصاغة مرةً من أجل الشراء وكثيراً من أجل التمتع بلونه الباهر وصفرته المشعة التي كانت تترك على محياها نوعاً من الطمأنينة والراحة.

استمرت إقامة خالد في هذا المشتمل لأقل من سنة، وقد أذيبت الحدود، والفواصل بين العائلتين، وكثيراً ما كانت زوجته تطبخ للجميع، مثلما كانت تعتني بأم غائب، بينما كان خالد يقوم بخدمات شخصية لمنسي العاني من إدخاله للحمام الشخصي وكذلك العمومي ومن ثم حلق لحيته، والاعتناء به...

كانت الحياة موحشة لشخصين، ليس لهما بعد الآن قِبل بمواجهة الحياة بعد أن خانتهما قواهما، وأضحى شرب كأس ماء، أو انجاز أي جهد بمثابة مشقة كبيرة لهما، لم تجد عليهما الإرادة الإلهية بطفل يملي حياتهما، ولم يكن الطب قد تطور، ولم يكن بعض الأولياء الصالحين ليجودوا عليهما بحل، ومثلهم من ادعوا صلة القربى بهم، ليعملوا بعض الوصفات النفسية قبل أن تكون علمية لتنتج عن شيء، وفي السر كانت أم غائب قد استعانت ببعض الدجالات والسحارات من أجل أن تجد حلا لها وزوجها من أجل الإنجاب، استنزف ذلك منها كثيرا من المال، دون جدوى حتى أنها حفظت أدوار القمر من لحظة محاقه وصولا إلى التربيع الأول حتى يستدير ليصير أحدب ليكتمل ويصبح بدرا في منتصف الشهر وهي فترة ازدهار الحيامن والبيوض كما يشاع عندهم، ولذلك تفضل أن تكون فترة جماع لمن لا إنجاب لهم، ثم يعود سيرته الأولى ولكن بالعكس أحدب ثم تربيعا ثم محاقاً.

في المقابل، كان الأمان الذي يشعر به خالد وزوجته، اتجاه استقرارها بالمشتمل، والفسحة الكبيرة التي تتمتع بها عائلته داخل الحديقة المشتركة للدار، ترك أثره الكبير، لكن ذلك لم يمنعه من تعاطي الرشوة، فقد أقلم حياته عليها مع ثبات راتبه.

توفي منسي العاني، وقد أوصى بكل ممتلكاته المنقولة، وغير المنقولة إلى زوجته، في اتفاق مبطن معها، أنَّ من يتوفى قبل الآخر يوصي بنفس الوصية، إضافة على انه أصلا كان مقطوعا من شجرة، وبالتالي لا يوجد أحد يورثه غير زوجته. فما كان من خالد إلا أن قام بكل تفاصيل الدفن والتأبين، مع زوج أخت أم غائب التي تصغرها بأكثر من عشرين عاماً، والذي ظل ينتظر موتها حتى يئس من ذلك، بعد أن حزن كثيراً، كونه تمنى أن تكون هي من تتوفى، وفي الوقت نفسه فرح كثيراً، لأنه شعر أنَّ أيامها باتت معدودة.

أضحت أم غائب وحيدة حزينة، في ركن الغرفة القريبة على زوجة خالد، بعد أن كان من يؤنسها قد غادر إلى غير رجعة، فعلى الرغم من الوعود في أن يموتا معاً (هذا ما كانت تعلنه عند حضور زوجة خالد) إلا انه غادرها بسرعة، مخلًّا بوعده، ولكنها مع ذلك تسامحه على موقفه الغادر.

بدأت أم غائب تضمحل مثل شجرة قطع عنها الماء، على الرغم من أن زوجة خالد كثيرا ما كانت تقضي الوقت عندها، وقد طلبت منها أن تأتي لتعيش معهم داخل المشتمل لكنها رفضت، وطلبت منها أن تأتي هي لتعيش معها داخل البيت الواسع، لكنها أيضاً رفضت لضرورات زوجية وعائلية.

عندما سمع خالد بموضوع الوصية بأنه ترك كل شيء إلى زوجته، كان

يتمنى في داخله، أن يترك له شيئا باسمه جراء الخدمة التي تقدمها عائلته لهما، لكنه صدم بذلك، ولكن لم تتغير معاملة زوجته للعجوز الباقية في ركن الغرفة. وفي الحقيقة كانت الزوجة داخلها هي أيضاً تتأمل أن يحن قلب أم غائب لها وعائلتها وتسجل لها جزءا من ممتلكاتها، أو على أقل تقدير هذا المشتمل الساكنين فيه، أو تهدي لها البعض من الحلي التي تكنزها، والتي اشترت البعض منه بحضورها.

لكن أم غائب وعلى الرغم من طعن السن الذي بدأ يسعر بها، ظلت متمسكة بأموالها ودفاتر التوفير والصكوك، وبعض الخزائن البسيطة الممتلئة بالأوراق، والمستندات، وحجج الأراضي، التي كانت تخفيها عند ركن الغرفة المعبأ بالفرش القديمة والوسائد وبعض ملابسها وحاجياتها البسيطة.

في أحد الأيام اتصلت زوجة خالد بزوجها، تعلمه أن أم غائب غادرت الحياة، بعد أن طرقت الباب، ولم تسمع جواب، فنظرت من الشباك القريب الذي كان مفتوحا بالأصل وعلى غير العادة، فوجدتها ممددة وسط الغرفة.

لم تتمالك نفسها وصرخت بالصوت، ما استدعى تجمع الجيران ومن ضمنهم المختار، وعندما عاد خالد إلى البيت، وجد الجيران وآخرين وقد كسروا باب البيت ومن ثم الغرفة، لكنه منعهم من لمس أي شيء حتى يُحضر الشرطة ويقوم باللازم اتجاه مثل هكذا أحداث. بالفعل حضرت الشرطة ولجنة رفع البصمات، وتم نقلها إلى المستشفى وتبين من التشريح أنها وقد أصيبت بجلطة دماغية وقلبية ما أدى إلى توقف القلب عن العمل.

ظهر مع هذا الحادث المفاجئ، زوج أختها الذي طلب على وجه السرعة بإخلاء المشتمل، ولم ينقضِ على وفاتها سبعة أيام، حتى أن زوجة خالد كانت ترتدي الأسود حزناً عليها، وقد عاشت معها لأكثر من سنتين.

لم تكن أم غائب سوى امرأة مسلوبة الإرادة، وهي في وضعها أقرب إلى طير حمام داخل قفص، بالنسبة لزوجة خالد، هي الأم التي افتقدتها، بعد رحلة العذاب الطويلة في التنقل بين البيوت المستأجرة، وبالنسبة لزوج أختها، بمثابة القفل الواقف في وجهه لتحقيق أمانيه وهي تجلس على كنز من الأموال.

طلب خالد منه مهلة ستة أشهر، ليتم بناء بيته الذي وصل فيه حتى الطابق الأول، لكنه رفض ذلك، بعد مفاوضات صعبة، طلب منه ثلاثة أشهر، حتى يتم سقف بيته فقط ،ويتحول إليه أو يجد بيت مؤجرا ينتقل إليه، لكنه كان كالكلب المسعور، يشعر انه وعائلته السبب من وراء إطالة عمر أخت زوجته التي أرهقت أحلامه ببقائها على قيد الحياة.

عندما راجع المحامي الخاص بتصفية التركة، وإعلان القسام الشرعي، طلب منه إقامة دعوى على خالد بقتل أم غائب، كانت تلك بمثابة الضربة القاضية التي قصمت ظهر خالد الذي كان يتأمل من وراء منسي العاني أو زوجته أم غائب أن تعود وفاتهما عليهما من أقربائها بالشكر والثناء جراء تلك الخدمة الطويلة، بعد ان يئسا من أن يترك أيٌّ منهما لهما شيئا يذكر.

طلب المحامي ان تطبق بحق خالد المادة (405) وهي المادة التي تحمل في بعض أوجهها القتل غير العمد، وأستصدر مذكرة إلقاء قبض بحقه، ولكنه وبحكم علاقته، وبأنه ابن السلك، وكان من قبل قد نقل من

المركز الى السيطرات الخارجية، فان الضابط رفض تفعيل المذكرة إلا بإرسالها إلى الجهة القانونية، والذي يتطلب ذلك أكثر من شهر..

كان أخوته كل منهم يعيش في وادٍ، ولم يكن يعلم أي منهم بمشاكل الآخرين، وما علاقتهم مع بعض إلا علاقة عابرة، ربما قد تربط البعض بأصدقائه أكثر مما تربط أياً منهم مع الآخر، ولما كان حسون وجبار هما أقرب إلى التنافر منه إلى التقارب، بينما كان ناهض غارقا في تفاصيله الجديدة في زواجه من الموظفة التي انتسبت إلى دائرة الماء والمجاري، بعد أن تعين فيها، وتحول من حارس إلى موظف يجلس خلف منضدة.

مع ذلك لم يشأ ناهض إلا أن يكون قريبا من أخيه بهذه الأزمة الملفقة، وكان من قبل يزوره بين الحين والآخر، ويتبادلان أطراف الحديث الذي كان في عمومه يدور حول العائلة، وبالخصوص أخته التي وراء شقائه.

مثلما كان ناهض يخبره عن التدهور الأخير الذي أصاب الأم، ما اضطرهم إلى نقلها من جديد إلى المستشفى وقطع أكثر من عشر سنتمترات جديدة بعد أن التهبت من جديد جراء الحر الحارق الذي يجود به الصيف على العراقيين.

أما الأخت المدللة صباح، فإنها أضحت أكثر رعونة وشراسة، بعد أن سكن أخوتها كل في بيت وحده مرغماً وليس راضياً، وكان الأب بعد أن ترك العمل في سيارة النقل خاصته، وقد انزوى في عالم الماعز الشامي، والتلقيح الذي يقوم به الذكر خاصته لبعض الإناث التي يأتي بها البعض من مناطق أخرى. هكذا تداعت العائلة، ولكن مثل أي بيت هرم، بدأ ينهار من الداخل حتى تأتي اللحظة ليقع كله على شكل كومة واحدة دون سابق إنذار.

طلب ناهض، وبعد مفاوضات طويلة مع زوج أخت أم غائب، أن يتنازل عن القضية، بعد أن يغير أقواله في موضوعة اتهامه لأخيه بالقتل، مقابل أن يترك أخوه خالد المشتمل، لم يرفض خالد المقترح، لأنه في الأصل لم يشأ أن يبقى في بيت تذكره التفاصيل الصغيرة بعلاقة حميمة ربما لم يجدها مع أهله، ولكنه في الوقت نفسه، لم يتصور أن الأمور من الممكن أن تصل إلى حد اتهامه بالقتل.

هكذا تحول خالد إلى بيته الجديد، ولم يكن بعد فيه من الأبواب أو زجاج الشبابيك شيء يذكر، ولكنه أمتلك أخيراً بيتا يأويه، ويمنع عنه الآخرين.

قبل أن نغادر قصة خالد لابد أن ننهي ما بدأناه لأننا احتمال لن نعود إليه مرة أخرى، فقد عثرت لجنة رفع البصمات على الشباك الجانبي بصمات غريبة، إضافة إلى بصمات زوجة خالد، ولكن من غير المبرر أو المنطقي أن يكون خالد، أو زوجته، قد قاما بفعل القتل، لأنه لو كان هناك نية مبيتة، لما وجدنا كل شيء على حاله أولاً، إذ إن حادث القتل أو الوفاة حدث دون ان تكون هناك أي سرقة للأموال أو المصوغات الذهبية...

لكن الشرطة الجنائية، أبقت هذا الخيط مخفيا، أو غائبا عن الأطراف القريبة لأم غائب، وظلت تراقبهم عن كثب، وهي في الحقيقة كانت تشك بزوج أختها الصغرى، على الرغم من أن موضوع وفاتها قد مضى عليه أكثر من ستة أشهر...

في أحد الأيام وبعد أن تم تحويل التركة بكل أموالها المنقولة وغير المنقولة إلى أختها الصغرى والتي استولى عليها زوجها، وفي جلسة

انس، فيها من المشروبات الروحية والنساء داخل أحد الفنادق الفارهة، أباح الزوج بما كان.

لقد خطط لذلك الحدث من قبل، بعد أن استشاط غضباً على أم غائب التي ترفض المغادرة رغبةً، فكان لزاماً أن يجعلها تغادر عنوةً، تسلل إليها ليلاً، بعد أن عرف بطريق غير مباشر أن خالدا في هذا اليوم لديه خفارة في السيطرة.

تأكد انه لا يوجد في المشتمل غير زوجة خالد، وأطفالها، انسل إلى أم غائب، على أمل أن يخنقها، وعلمه مسبقاً ان ليس لديها القدرة على مقاومته، ولما لم يستطع كسر الباب، ذهب إلى الشباك وبعد أن فتح بابه، حاول كسر (كتيبته)، لكن ذلك أحدث جلبة أيقظت أم غائب من نومها الخفيف، فالإنسان الكبير يكون نومه بالعموم خفيفا يستيقظ لأي صوت.

شاهدها وهي تستيقظ من نومها، ما حفزه أكثر على اقتحام الغرفة عن طريق الشباك، ولكنه لم يستطع ذلك، في الوقت الذي كانت أم غائب تتقدم الى وسط غرفتها ظناً منها أن زوجة خالد، أو خالد جاء ليقدم لها طعام أو خدمة قد طلبتها سابقاً، عندما توسطت الغرفة، كان الصوت يأتيها من الشباك، ذهبت بنظرها إليه، شاهدت شخصا ملثما، يحاول ان يكسر باب الشباك من أجل الولوج إليها، تلبسها الخوف، ومن قبل كانت الوحدة قد أخذت من حياتها شيئا كثيرا، ومغادرة زوجها الذي تعتقده مبكرا، وإصرار اللص رغم مشاهدة أحدهما الآخر، على محاولة كسره لباب الشباك، كل ذلك جعل قلبها يتوقف عن النبض...

(2)

رمضان أخضر

في السنة الثالثة من الاحتلال الأمريكي، والذي أحدث تغييرا استراتيجيا في العراق وحياة العراقيين، إنه ببساطة أحتل من قبل أعتى دولة في العالم، وعلى الرغم من انه غُلف بالعدوان الثلاثيني، لكن الصراحة التي أرادت أمريكا ان تزوقها، هو الغطاء الدولي الذي جحفلت معها بعض الدول المهمة، وأخرى ليس لها ذكر على الخارطة الدولية سوى انها تكملة نصاب.

لم يصمد ذلك الغطاء حتى تعرى، بقرار أممي، وأعلن صراحة أن العراق بلد محتل من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، ولأني أخاف أن أرهقكم بقيء أسمه الحرب وإفرازاتها، فإنني سأغادره بسرعة ولكني أردت أن تعرفوا أننا عبرنا من الحروب إلى الحصار، ومن ثم الاحتلال. وليس لي أن أغادر جلدي بين حربين وحصار، فأنا مثل أي عصفور خائف أدور حول عشي ظناً مني أنني أحميه وفي الحقيقة أني أدل عليه الصيادين.

انطوت الأيام، وهرمت العائلة الأم، وهي بالأصل قد تشظت إلى فسائل صغيرة، سرعان ما كبرت وأثمرت عوائل جديدة، تحمل كل عائلة في ماضيها كثيرا من الألم، لما خلفته العائلة الأم من الإيغال في

القسوة وغل اليد، في أيام كانت العائلة في أحوج الساعات إلى أن تكون ممدودة، باستثناء ناهض الذي ربما وضعه الصحي ساعده قليلا كونه نصف مقعد وقد أستطاع ان يتقن فن تصليح السيارات، مع احتفاظه بوظيفته الجديدة، التي أضحت بعد ذلك التاريخ تدر أموالا أكثر من جيدة، أن يرتبط بزوجة وهي أيضاً موظفة معه في الدائرة نفسها، بأن يكون بمنأى عن التجاذبات التي قصمت ظهر العائلة وجعلتها تتشظى لأكثر من جهة.

وقبل أن يرتبط بزوجته، طلب من أخيه خالد أن يساعده، في اكتشاف جسد أي امرأة ليختبر ذكورته الناعسة، على الرغم من علمه أنه على ما يرام، وكانت الأدلة تفصح عن ذلك، مثله في ذلك مثل من خاطبه الله في قوله (أو لم تؤمن. قال بلى ولكن ليطمئن قلبي...).

لا أعرف لماذا نبحث عن الاطمئنان في زمن غدا فيه مثل هذا الطلب، فنتازيا أكثر منه واقعيا، لا شيء في العراق بعد اليوم يخضع لضرورات الواقع، الجميع في دوامة هي أقرب للحلم منها إلى الواقع.

أستطاع خالد أن يرتب له موعداً مع غانية في منطقة لا تبعد كثيراً عن بيتهم، وأستطاع ان يجتاز امتحانه النفسي، فلا أحد طلب منه أن يمتحن نفسه، لكن الإنسان بالعموم يرغب في اختبارات قد تكون غير ضرورية ربما هي مزروعة في ناموس كل إنسان، ومع أن كل اختيار هو تخلٍ، ولكن لا مناص من التأكد من قواه الجنسية.

وهو من قبل لا يحتاج إلى أن يثبت لزوجته وأهلها، ما يمكن أن يخفيه، فعكازاه اللذان يتعكز عليهما في المشي، يفصحان عما عليه وضعه

الصحي، إضافةً إلى سيارته الحديثة وسيارة أخرى تعمل كتاكسي في الشارع هو مالكها، والأهم من كل ذلك، رغبته في أن يكوّن أسرة وشرطه الرئيس في ذلك الحب والأمان، في زمن افتقدت فيه مثل هذه الأشياء.

لم تكن المفاوضات وربما الخطوبة لتطول، فطرفا الموضوع متفقان من قبل، وقد خبر كل منهما جانب الآخر، مثلما ألمح خالد لأخيها الأكبر، قدرات أخيه ناهض الجنسية، وما العوق الذي فيه إلا حالة عرضية أضحت ملازمة لأخيه مثل كثير من الأمراض الدائمة كالسكري والضغط، مع الفارق أن الأمراض الأخيرة تضعف بنية الإنسان في الوقت الذي كانت حالة أخيه قد عوّضت مكامن القوة في يديه.

لم يعد في الأم قوة للمناكفة، كانت العلاقات الأسرية في أدنى مراحلها، لذلك لم تتأخر كثيرا في فض هذا المستجد، وتم زواج ناهض في ظروف ربما أضحى الجميع فيه مشبعا بمشاكله الشخصية، والأهم في ذلك، انه لم يحتج أياً منهم...

بعد ذلك التاريخ، والمؤلم في الأمر أن التاريخ دائماً يبدأ من العراق. أضحت العائلة الأم هرمة، مثل أية حضارة وقد أمست نواقيس زوالها تدق جدرانها بقوة، لتنفلق إما إلى حضارات أخرى، او إلى حضارة جديدة مغايرة للحضارة القديمة، ولكن منبثقة منها، وقد تمثلت في بعض أوجهها، في حياة جبار وزوجتيه، فأرملته الأولى، أنجب منها ولدا، إضافة إلى الولد والبنت من زوجها الأول، ولم ترغب بعد ذلك بالإنجاب، أما أرملته الثانية وهي زوجة أخيه التي اغتصبها بعد حفلة عرسٍ وحشي، فأنها لم تنجب منه !

ظن في بادئ الأمر أنها تتعاطى ما يمنع ذلك، وبطريقة وأخرى تبين له

أنها لم تكن تتعاطى ما كان يجول في باله، فبدأ معها رحلة إلى الأطباء، وكان الجميع قد أجمع على أن الحالة النفسية هي السبب من وراء ذلك، ولم يكن في نية الزوجة من بد في رفضها للواقع الذي أقسرت عليه سوى في أن ترفض الإنجاب منه.

* * *

بعد هذا الزمن الذي قد تجاوز الخمس عشرة سنة، وقد كبر أولاد الجميع، مثلما كبرت الوظائف وتضخمت الرواتب، وقوت شوكة الجميع، ولأنهم عائلة تنتمي للوظيفة بامتياز، فقد أضحى الجميع في وضع مادي أفضل من السابق بكثير، وهذا ما انعكس سلباً على سلطة الرجل، والإيجاب على سلطة المرأة، والأهم أن سلطة الأم الكبرى تناهت فلم يعد بعد الآن من أحد يحتاج إلى أن يتزلف لها ليكمل بناء غرفة قد بدأها، أو قسط سيارة يحين موعده بعد أيام، أو مبلغ بسيط يدفع به قسطا أكبر.

في المقابل لم يكن جبار ليترك هذه الفوضى على الغارب، دون أن يكون له وضعه الخاص في استغلالها، عُيِّن مختار المنطقة أول وهلة، ثم أشتغل في مجلس المحافظة، في الوقت الذي انتمى فيه ناهض لما يسمى بالمجالس المحلية، التي تقدم الخدمات للمنطقة في زمن تفككت فيه الدولة العراقية وجيشها. في الوقت الذي سعت فيه قوات الاحتلال إلى تكوين حكومة واهية ورقية غير قادرة على استيعاب حاجة الناس وامتصاص غضبهم، وهي عبارة عن مجالس محلية في المناطق والأحياء، وكذلك مجلس محافظة في كل محافظة عراقية، فعمدوا إلى اختيار شخص من كل حزب، وعلى الرغم من كل الأحزاب الدينية تكونت خارج العراق، فان في أيديولوجيتها أن تكون ثائرة ومناهضة ضد

الظلم والاحتلال، فكيف وهي اليوم تضع يدها بيد الاحتلال وتتسنم مناصب سيادية في المحافظة، وإن كانت بالشكل فقط.

بين راغب ومانع، تقدم البعض وتأخر آخر، ما اضطر قوات الاحتلال، إلى جلب أناس كانوا يعملون في المقار الحزبية التي فتحت على مصراعيها في كل أرجاء العراق، مثلما جلبوا بعض الموظفات من دوائر التربية، والدوائر الأخرى ليكونوا التشكيلية الجديدة، للحكومات المعينة تحت غطاء الديمقراطية، التي سنَّها الاحتلال، من أنه لابد من وجود امرأة مقابل ثلاثة رجال، في المجالس المحلية والمحافظات والبرلمان.

انتقل جبار بعد ذلك، الى مجلس المحافظة مساعداً لأحد الأعضاء الذين تم تعيينهم كأعضاء يمثلون جهة حزبية، وليس فئة من الشعب، استطاع أن يتفاعل مع بعض المحتلين من الذين أتوا مع القوى الأجنبية وتوزعوا على المحافظات، ليصل إلى عضو مجلس محافظة معين وليس منتخب.

مسك بعض المشاريع التي أعلنت عنها تلك القوات، بمثابة حسن نية، ومحاولة منهم لإشعار الشعب العراقي أنهم ليسوا محتلين وإنما محررون، غايتهم البناء، وتعمير العراق بعد أن خلصوه من الطاغية الذي جازف بالشعب العراقي في حروب ونزاعات غير مجدية.

عمل على تكوين مؤسسة مجتمع مدني غايتها بث الديمقراطية في مجتمع سمته الأساسية هي العشائرية، وإن ارتدى الزي المدني، استطاع أن يجمع بعض وجوه العشائر، وبعض الوجهاء من المدينة القديمة، كذلك بعض المثقفين من مختلف المشارب والاتجاهات، إضافة الى المتعلمين والمتزلفين والناعقين مع كل ناعق.

كل ذلك لم يلهه عن مشاكله الأسرية، فابنه الوحيد الذي خرج به من الدنيا وقد عشق ابنة أخيه الكبرى، من أرملته الثانية، مع الفارق إنها في المرحلة الثانية من كلية الطب، وهو في معهد إداري بسيط في بغداد..

بينما كان ابن أخيه الثاني في الثالث طبية وقد عشق ابنة الزوجة الثانية، والفارق أن أمه أصبحت مديرة مدرسة وقد حافظت على جمالها، ورشاقة جسدها، في الوقت الذي كانت أم حبيبتها (الأرملة الأولى) وقد ورثت أرضاً دخلت ضمن حدود التخطيط العمراني، بينما طفقت الحكومة المحلية تفاوضها من أجل إنشاء مشروع خدمي ضخم في كونه وقع ضمن التخطيط ليكون مركز تجمع الأقطاب الثلاثة، والرئيسة لأنابيب المجاري الكبرى للمدينة.

هكذا بين يوم وليلة أضحت الأرملة الأولى مليارديرة، في زمن يُعد في العراق عدد المليارديرات كثر، ولكن على شاكلة الساسة الجدد، ومن رجال الأعمال الجدد الذين أتوا معهم، وصعود رجالات أعمال جدد، هم إفراز الربح والتجارة السريعة...

* * *

كان الجميع فرحين بالتجربة الديمقراطية الجديدة، وقد أضحت المظاهرات سمة الشعب العراقي، الذي لبس حلة الفرح من جديد بعد أكثر من ثلاثين عاماً ما بين خوف وجوع.

اجتمع جبار بأخوته، وزوجاتهم، وأولادهم في بيت أهله، شرح لهم ظروف العراق الاتحادي الجديد التي يجب أن يكون الجميع جزءًا منها.

لم يكن أحد ليرفض وضع جبار الجديد، بعد أن أصبح عضو مجلس

محافظة مؤقت، مكان آخر انسحب بعد أن صعدت عنده الروح الوطنية قليلاً، مثلما كان الجميع يأمل أن يحصل على بعض المكاسب من الدولة الجديدة.

انتقل جبار الى الخطوة الثانية، وهو انه أصبح يلتقي في بعض الحسينيات والجوامع، التي أضحى الجميع يرتادها أثناء أوقات الصلاة، وبالخصوص انها أضحت تقيم صلاة الجماعة عند الظهيرة وفي المساء.

مثلما طفق يرطب الجو مع زملائه السابقين من الذين كانوا يعملون بدائرة النقل الخاص وقد انحلت في زمن الدولة الجديدة أسوة بكثير من دوائر التصنيع العسكري، وبعض الدوائر الأساسية الأخرى، تلك التي كانت تعزف نشيد الحرب بأقبح الألحان، ويطرب لها من كان في إذنهم وقر، وجمعت كل من كان (نطيحة أو متردية) يأخذهم الليل ويرجع بهم الليل، ولا يعرفون من ساعات النهار، أو حياتهم اليومية أي شيء باستثناء خلاصهم من فرامة الحرب، فارتهنوا على سير آلة الحرب على أن يكونوا جزءا من وقودها، لتستجد دوائر جديدة لتنصف المهمشين والسجناء، والشهداء، والمهجرين، والمهاجرين، وكل من كان ضحية النظام الفاشي، ومن لم يكن ولكن استطاع أن يكون جزءًا من اللعبة الجديدة، في مقابل بقاء النظرة من قبل الساسة الجدد على أنَّ من بقي في العراق هو موالٍ للنظام السابق، وإن لم ينتمِ لحزبهم المقبور، وكأنهم يريدون من شعب تعداده أكثر من خمسة وَعشرين مليونا أن يتركوا العراق ليثبتوا لهم انهم غير موالين لهذا الحزب المقيت، هذا هو الوضع الجديد للعراق، والمواطن العراقي ممتحن في هويته ووطنيته، وولائه، للأرض، وليس لحزب، أو قائد بعينه.

في الخفاء، استطاع ان يجمع كثيرا من المال، من المشاريع التي كانت تقيمها قوات الاحتلال دون أي ضوابط تحددها، من هنا كانت بداية الفساد المالي والإداري، وربما كانت القصدية دون أن يعلم الجميع، أرادوا أن يخلقوا طبقة مالية جديدة ولكن موالية للحكومة الجديدة، وكالعادة بدأ النظام يأكل أبناءه القدماء، أولئك الذين يعرفون كل أسرارهم، ابتداءً من الهروب في أهوار الناصرية وصولا الى إيران، ومنه الى سوريا، ومن ثم الى أوربا، وأمريكيا، وكيف كان يعتاش أغلبهم على المساعدات الإنسانية، والمؤسسات الدينية المدعومة من جهات معلومة، وكل من له غرض في مقارعة نظام البعث، وديمومة معارضته، فكانت أحضان الحكومة الجديدة تستقبل الطبقة الزائفة الجديدة بكل محبة واحتضان.

عندما أعلن موعد الانتخابات الجديدة كان جبار على أهبة الاستعداد لخوضها، اتصلت به بعض الأحزاب الدينية التي لم تكن بعد قد برزت على الساحة بشكل واضح، لكنه رفض مؤقتاً مطمئناً إياهم انه سيأتلف معهم، داخل مجلس المحافظة، في مقابل أحزاب دينية كانت قد أسست في سبعينيات القرن الماضي، مع وجود حزب، أو أثنين ينتمون في أيديولوجيتهم الى العلمانية.

بدأت الولائم على قدم وساق في بيت جبار مثلما، أعطى لأخوته رؤوس أموال ليقيموا الولآئم أيضاً في بيوتهم لأصدقائهم، وأقاربهم، ومن يرون فيه الالتزام كي ينتخبه، أما أبوه، فقد أشترى له سيارة جديدة، وأعطاه مبلغا من المال، وطفق الأب في المقاهي والمجالس الخاصة، يشيع عن ابنه كل طيب، في كونه مضطهدا من النظام السابق، وقد فصل

من دائرته، وانه بالنظام الجديد هو من مسك الحكومة المحلية، بعد الفوضى الكبيرة التي عمت المحافظة والبلد في العموم.

كان أهله على نفس واحد في التثقيف لابنهم، داعين للدين، الذي غيبه النظام السابق، ورافضين ما يسمى بـ(الحواسم) التي نهبت البلد ودوائره، كانت الوعود التي أغدقها جبار على أهله وأخوته، تسلب لبهم، فقد وعد أرملته الثانية، بأن يجعل زوجها (عادل)، الذي توفي في حادث سيارة، شهيدا وثائرا حتى اغتيل من قبل النظام البعثي، ما يجعلها تحصل على مكاسب كثيرة، لكنها رفضت، معللة ذلك بالقول:

- لا يمكن أن يكون الموتى أدواتا طيعة لأطماعك الدنيوية، دعهم ينامون هانئين، وقد خلصوا من حياة الدنيا، وأطماعها، وقذارة الأحياء، وجشعهم.

أما حسون فقد وعده، بأن يجعله سجينا سياسيا، خاصة انه وقد سجل في الأردن كلاجئ سياسي، وليس انساني، جراء الاضطهاد الذي كان يمارس عليه في دائرته، ومن ثم في الفرقة الحزبية، ودائرة الأمن، وعنده ما يثبت تركه للدوام الرسمي، وهجرته وتعرضه للاعتقال والمساءلة. مثلما وعد خالدا بأنه يسحبه معه الى المجلس، كي يكون من حمايته الشخصية، ومن ثم يتم دراسته الإعدادية، ليتحول الى ضابط ويكبر.

لم يكن أي من المحيطين به، إلا وقد أغدق عليه بالوعود، ما جعلته يطير على أكف من السحاب حالماً، يعمل بكل قوته من أجل أن يفوز، باستثناء ناهض الذي رفض كل وعوده، وقَبِل ان يبقى متطوعاً في المجالس المحلية لخدمة الناس، ولكنه في الوقت نفسه طمأنه أنه سيقف وزوجته معه دون مقابل. وفي الوقت نفسه، كان يعمل في

مؤسسته المدنية، على جمع أضابير من يريد ان يتعين في دوائر الدولة، مثلما كان ينقل الى مجلس المحافظة، شكاوى بعض شيوخ العشائر، وما يصيب بساتينهم من أمراض، وكذلك ضعف الخدمات أو انعدامها.

أحدى المرات أرسل في طلبه أحدهم لأمر هام، التقى جبار مع ثلة قيادية من الحزب الديني الذي تأسس خارج العراق، طلبوا منه ان ينضم إلى قائمتهم، معللين ذلك، بأن القائمة المنفردة من الصعب عليها، أن تحقق (العتبة) وفي الحقيقة، كانوا يخافون من علاقاته، وما حققه على صعيد الفترة الماضية من شعبية على مختلف الصعد.

مثلما طلبوا منه أن يأتي بصوت نسائي كضرورة انتخابية، وبذلك يضمن أن يكون له مقعدان على أقل تقدير في قائمة سيكون رقمه فيها الخامس، لم يوافق على طلبهم، وإنما طلب مهلة كي يفكر، خاصة وانه قد أوهمهم أن هناك قوائم أخرى تتجاذبه، ولكنه في حقيقة الأمر يميل لهم.

شعر أن العملية الانتخابية الجديدة في العراق هي حرب يجوز فيها استخدام كل الأسلحة المشروعة، وغير المشروعة، ولما لم تكن الصورة واضحة عنده، والشك، والارتياب من فقد المميزات والمكانة التي وصلها من أن تذهب منه، خاصة بعد أن علم من بعض الشخصيات كمية الأموال المرصودة للدعاية الإعلانية، والتي تتعدى ملايين الدولارات، فكر بأن يستشير عرافة تربطه به علاقة قديمة، كان كلما شعر بضيق يذهب إليها، وبالفعل ذهب إلى بيتها المنزوي في منطقة شعبية.

كانت بعض السيارات المستوردة حديثا مركونة قرب بيتها، اما في باحة البيت كان الازدحام ينبئ بخوف كبير، تقدم إلى خادمها، وسأله أن يخبر العرافة بقدومه بعد أن أخبره باسمه، وبالفعل بمجرد أن دخل

الخادم، لم يكن ليتأخر دقائق حتى خرج، وطلب منه الاستعداد للدخول بعد خروج الزبون من غرفتها.

عندما دخل الى غرفتها مطأطئ الرأس كانت رائحة البخور تملأ المكان، والأضواء الحمراء المخلوطة بالألوان الأخرى تضيء المكان بشكل يوحي بالرهبة، والاحترام، وكأنه مشهد في مسلسل عربي للكثير من العرافين، والدجالين، الذين ينتحلون صفة معرفة الغيب، وحل مشاكل الآخرين.

جلس أمامها خائفا ذليلا حقيرا يطلب المساعدة، ومعرفة طالعه، لم ترفع رأسها، ولكنها على ما يبدو تعرفه من صوته، وقد تردد سابقاً عليها كثيراً في خصوص مشاكله العائلية، وقد أشارت عليه من قبل أن يذهب بزوجته الثانية في رحلة خارج محافظته إلى أي مكان آخر من أجل أخذها رغما عنها (وهذا ما حصل لاحقا)، تنحنحت، وقالت وشيء يحيط بصوتها من الرهبة، لا تخف، إن طلباتك مجابة، فقط أصدق القول وأنت تنال مرادك حتى لو كان ذلك ضد إرادة القدر...

قال:

- سيدتي انا محتار في أمرين الأول أخاف ان أفقد مميزاتي التي وصلتها بشق الأنفس، خاصة وقد حدد موعد الانتخابات مع بعض العروض الانتخابية التي تُقدم لي، والأمر الثاني يراد مني صوت نسائي يدخل مع القائمة التي طلبت مني الانضمام إليها. وقبل أن يتم مخاوفه قاطعته، وقد جاءها قبله كثير من الذين يريدون الترشيح في الانتخابات من الرجال والنساء...

قالت.

ـ فيما يخص طلبك الأول فهو في أهل بيتك ابحث عنه، وربما هو سيبحث عنك، لا تقلق بشأنه، أما الطلب الثاني، اتحد مع المجموعة التي أرسلت بطلبك، وستفوز وتُفتح لك أبواب المغارة، حتى لو لم تقل (افتح يا سمسم) فحظك أمامي ضاحك مقدام، ولكن قبل ذلك خذ ديكا أبيضَ لا يشوب بياضه شيء، وديكا أسودَ لا يشوب سواده شيء، وأثناء غروب الشمس، وأنت فوق سطح بيتك ومتوجهاً إليها امسك الديك الأبيض بيديك، ولكن خلف جسدك عند العجيزة، وأقطع رأسه، ومثله الديك الأسود، وبعد ذلك، خذ الرأسين في كيس، وأرمه عند عتبة بناية المحافظة، وستجري الأمور كما خططت لها.

خرج منها مزهواً، وقد قبَّل يدها، بعد ان وضع مبلغا كبيرا من المال ولكن بالعملة الأمريكية، مثلما أعطى الخادم عند الباب، كمية أخرى، ولكن بالعملة العراقية، وفي داخله كان يقول لن أطمئن لذلك رغم صحته، ويجب أن أوصل الخطوط مع جميع من يريد مني الانتماء لقائمته، وفي الوقت نفسه، لا أعطيهم كلمة، وحجتي في ذلك هو التفكير بالأمر.

كان هذا الجواب جاهزاً فيما بعد لكتل سياسية أرسلت للاجتماع به، ولكن المعضلة التي يواجهها هو الصوت النسائي من أين يأتي به، ليس هذا وحسب، وانما كيف يضمن ولاءه في وضع سياسي متداخل ومتقلب مثل أجواء العراقيين ومزاجهم.

اقترح على أرملته الثانية، وكانت هي نقطة ضعفه، وكثيرا ما حاول أن يتقرب إليها، ويقدم لها المقترحات، لكنها كانت ترفض تقربه

واقتراحاته، وكأنه يصر على أن يفتح معها صفحة جديدة، وتصر هي أن تبقي الصفحات القديمة شاهدة على تاريخه معها.

هل ينسى أو يتناسى، إن النساء حين تكره، تتحول إلى كتلة من الحقد، وعندما تحب تتحول إلى قلب نابض باسم حبيبها...

تقدم باقتراحه إلى أرملته الأولى، ولكنها رفضته معللة ذلك، بأنها لا تحب عالم السياسة، وإنها تكتفي برعاية أطفالها، وأموالها التي أضحت تملأ البنك الذي أودعتها فيه، مع بعض البيوت التي سجلتها بأسماء أبنائها.

على غير العادة اتصلت به أمه تطلب منه الحضور لأمر هام، لم يكن ليتعذرها، ولم يبق على تقديم الأسماء للمفوضية العليا المستقلة للانتخابات سوى أيام قلائل، وهو حتى الآن لم يحسم أمره مع أي جهة حزبية ينتمي أو يتحد معها، مثلما لم يتفق على صوت نسائي حتى لحظات تلقيه هذا الهاتف.

* * *

قبّل يد أمه، ومثلها رأس أبيه، بعد أن أعطاه حزمة من الأموال كدعاية انتخابية، سألته أمه عن وضعه السياسي الجديد، وكانت إجاباته كالعادة بأنه سوف يحقق نتائج أكثر من جيدة، ثم باغتته بأن أخته وقد اتصلت بها بعض الجهات الحزبية التي دخلت الانتخابات يريدونها أن تنتمي لقائمتهم، لكني طلبت منها أن تتريث حتى نأخذ رأيك لأي قائمة تنتمي.

كانت فرصة ذهبية لم تخطر على باله، لكنه أراد ان يسبك الدور كأخ أكبر يرفض أخته تنزل إلى الشارع، وأن تعلق صورها وسط الرجال، لتكون باب هزءٍ للبعض، وباب تمنٍ للبعض الآخر، وفي حقيقة أمره،

أراد أن يحصر الموضوع له، بأن يغلق الأبواب عليها، ومن ثم ينزل عند رغبتها صاغراً من أجل أن يحافظ عليها، لكن الأم رفضت ما ذهب إليه، وبأنها أسوة بالنساء الأخريات لها الحق في أن تمارس حقها، وأن تخوض هذه التجربة، وهذا ما أراده بالضبط بأن يرفض ويتمسكوا، عندها يضطر من أجل المحافظة عليها بان يجعلها ضمن قائمته، ولكن من هي الجهة التي تريدها أن تترشح ضمن قائمتهم...

- إنها إحدى القوائم التي تدعي حرية المرأة وفصل الدين عن الدولة، وتعتقد هي أن حظوظها جيدة في الشارع.

- كيف ذلك، ونحن محافظة قلبها النابض المراقد المقدسة، ومثله محيطها والجوامع، والحسينيات تشع حيثما ذهبنا.

كانت الأم تعلم أن أبنها أبعد ما يكون عن الدين، ولكنه سرعان ما لبسه، لأنه يتواءم مع جميع المقاسات ولأي زمان ومكان...

- وماذا تقترح البديل عنها؟

- إذا كان ولابد ان تنزل بالانتخابات، فلتترك لي الأمر، أشير على قائمتي الأمر وأتصل بكم عصرًا لأخبركم.

- ننتظر الأمر منك.

- اتفقنا.

كان هذا الحل، هو أفضل الحلول الذي لم يفكر به أصلاً، ولكن عصر اليوم التالي كان طويلا جداً، بالخصوص وانه يعرف أخته حق المعرفة، إذ لا يقف بوجهها أي أحد خاصة بعد أن أصبحت مديرة مدرسة، ولها نفوذ في دائرتها العليا، إضافة الى أنها دون زوج، أو أولاد ما يمنحها

الحرية في التحرك، وكسب الأصوات، خاصة وإنها قد خدمت في أكثر من مدرسة على جغرافية المحافظة، وعرفت بحزمها، ليس أمانةً وإنما تصلباً ووقاية من القانون.

هكذا تم انتماؤهما إلى قائمة صبغتها العامة هي دينية، ولها قيادة مركزية في العاصمة، ما يبيح لهما معرفة مصدر القرار السياسي والانتخابي.

تم تكثيف جهودهما، خاصة بعد أن حصل على دعم أمه، وقد فتحت كيسها، ليس حبا به، وإنما بابنتها التي تمنت لها أن تنجح عسى أن تحظى بزوج، وقد لامست الخامسة والثلاثين من عمرها بقليل.

أعلن يوم الصمت الانتخابي، استعداداً لخوض الانتخابات في اليوم التالي، وأستطاع هو أن يخدم نفسه، ويقدمها بطريقة دعائية جيدة جداً، بحيث لم يتوقع أحد أن يجد صورا له في الأماكن المهملة والمتروكة إلا ووضع له متعهدو الدعاية خاصته ملصقا له.

عندما تمت الانتخابات، وأعقبها الفرز، كانت النتيجة، وقد أخذت الدعاية حصتها من المرشحين، تعلن أسماء الفائزين، وليس عجباً ان يكون وأخته فائزين، على الرغم من الفارق بين المرشحين، فهو حصل على نسبة عالية قياساً إلى أقرانه في القائمة، في الوقت الذي لم تكن أخته لتحصل على أصوات تؤهلها لولا نظام (الكوتة)... ودخلا مجلس المحافظة.

لم تكن له أطماع في منصب سياسي، بل كان هدفه واضح يريد أن يكون رئيس لجنة النفط والغاز، في زمن الحكومة المركزية، غير مهتمة بالمحافظات، بل لها مشاكل موروثة مع إقليم الشمال، ودول الجوار، ونال ما أراد وطلب.

* * *

لم تمض السنتان من المجلس، وقد اجتازت ثروته بنوك العراق إلى تركيا، والأردن ولبنان، وفي المقابل لم يُغضب أحدا من المحيطين، والمقربين أبدا، مثلما لم يغضب رئيس قائمته، فكان يصوت لهم بما يريدون ويشتهون...

كذلك سحب أخاه خالدًا وجعله في حمايته الخاصة، وقد استطاع أخوه أن يقدم على الامتحان الخارجي وان يجتازه بمساعدة الطيبين، مثلما قدم إضبارة أخيه حسون كمتضرر سياسي الى مؤسسة السجناء السياسيين لاستحصال حقوقه المغصوبة كمناهض للنظام البائد بعد أن لاحقوه في دائرته، وخارج الحدود في الأردن، وعادوا به مكبلاً الى السجن.

استطاع أن ينسج له وأهله تاريخا من النضال السياسي ضد النظام السابق، أسوة بأغلب السياسيين الجدد، والكل يعلم أن القليل جدا من الرجال من الذين قضوا نحبهم في السجون والمعتقلات هم من قالوا (لا) للطاغية، بينما فرَّ البعض الآخر خارج الحدود، ومنهم القائمة التي انطوى تحتها في الترشيح، والانتخابات وبقية الشعب هو بين رافض، ولكن صامت، وبين من يستظل بالحائط خوفاً من أن يقع عليه، وآخرون هم قلة (وكان من ضمنهم) وقد صفق للنظام واستفاد منه كرئيس قسم، ومن ثم قطعة أرض ومميزات أخرى كثيرة.

أسرياً لم يشفع هذا التطور الهائل في وضعه الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي شيئا لدى أرملته الثانية، خاصة بعد أن رفضت طلبه بأن يتزوج ابنه من أبنتها الطالبة في الصف الرابع طبية، مثلما رفضت أرملته الثانية بأن تقترن أبنتها بابن أرملته الأولى على الرغم من انه طالب في كلية الطب.

حصلت مشادّة قوية بين الطرفين، لكنها أصرت على موقفها، بل وذهبت إلى أبعد من ذلك بأنها طلبت الطلاق منه وبحضور أفراد عائلته جميعا، كان طلب الطلاق مدوياً ترك صدى زعزع جبارًا من جذوره، كيف لها ان تتجرأ، وتطلب الطلاق أمام أولادها، وأولاد أرملته الأولى وابنه، لماذا لم يكن يعني لها شيئا سابقاً، وحتى بعد وضعه الجديد الشيء نفسه.

بدأت مسؤولياته تكبر وتتفاقم، ولم يعد لديه فراغ كي يدير مؤسسة المجتمع المدني وأناط رعايتها لأخيه الأكبر حسون مقابل دعم شخصي وحكومي، ولم يكن لحسون من أن يرفض له طلبا، لقد أصبحت العائلة تمتهن، أو تتعاطى العمل السياسي بكل أشكاله.

فما كان من حسون، إلا أن أرسل بطلب لعمه وابنه، كي ينالهم من الحظ جانب، واجتمعا جميعاً معهما، لكن جبارا أراد من ابن عمه أن لا يظهر للعيان، خاصة وأن الإرهاب بدأ يسعر بالشعب العراقي، بعد أن بانت جغرافية الخارطة السياسية التي تحكم العراق، وبالخصوص بعد التصويت للدستور الجديد، ومن ثم الانتخابات البرلمانية؟

أما أختهم صباح فقد أصرت على أن تكون رئيس لجنة حقوق المرأة والطفل، والذي لا تعرفه أن مثل هكذا لجانٍ، لا تصر عليها، لأن لا أحد يريدها بالأصل، فكان لها ما أرادت، وأضحت تتصدر الإعلام والصحف.

فهي تتبنى أفكار المرأة ليس لأن الوضع الجديد يشير إلى ذلك، وإنما لأنها تجد في داخلها من ظلمها، فما زالت عقدة الزوج الخائن على الرغم من انه لم يخن، تسيطر عليها، على الرغم من وضعها السياسي

الجديد، مثلما كان يسعر بها عدم إحساسها بالأمومة، في كونها لم تنجب من زوجها السابق، ولم تتزوج بعده.

* * *

لم يمضِ على الدولة العراقية مائة عام، حتى تقهقرت، وبدأت من جديد، لكنها لم تجُبَّ ما قبلها، أسوة بالحكومات الماضية في القهر، والسجن، والتغييب، ولكن الفرق في هذه المرة أنها دولة دون جذور، تطفو مع الطائفين، باستثناء المجالس المحلية.

ففي زمن ما فوق السقوط، وتحت الاحتلال، انقسم الشعب العراقي إلى أكثرية، وأقلية بين طوائف وعشائر، ومناطق وأطراف، انبلج ثلة من وجهاء كل منطقة، تحت عنوان (مجلس محلي) يقدمون خدمات مجانية لأهلهم، وكان الشارع مقسّما بين المراجع الدينية، وبالخصوص وقد انبثق رجال دين شباب حملوا أرث آبائهم، يتزعمون جيلا لم يشهد الحروب السابقة، فاشتاق الى أن يصنع حربه الخاصة به، مع ثلة من المتردية، والنطيحة، وبعض من رجالات النظام السابق، وكان أولئك الشباب نسوا الحروب، وكان من قبلهم آباؤهم بين أسير ومعاق، ومريض، وناجٍ مع وقف التنفيذ، فحملوا أكفانهم والسلاح، يوزعون الموت على من يخالفهم، وقد وصل الخلاف إلى البيت الواحد، بعد أن تبع كل شاب رجل دين يدعي وصله بالإله.

لكن الجميع متفق على أن أجدادهم الذين حرَّموا التلفزيون وشاهدوه، ومنعوا بناتهم المدرسة وأرسلوهن إليها، ومنعوا الشعب من المشاركة في العملية السياسية تحت براثن الاحتلال القديم، وظلوا هامشا في الأرياف، وكومبارسا في الأفلام والمسلسلات، لن يخطئوا

بعد الآن، ويجعلوا الشيوعية كفر، وإلحاد، بل راح الأغلب يضع يده بيد المحتل الجديد، من أجل فجر ربما يمسح بضيائه ظلام الماضي.

كان أعضاء المجلس المحلي في المناطق يعملون جاهدين ما استطاعوا، وكان ناهض خاصة يقف في طابور المحطة الرئيسة من أجل أن يجلب سيارة أسطوانات الغاز، وما يشفع له أن له أخوةً موزعين بين مقلدي رجال الدين الجدد.

كان على ضفتي الشارع الواحد يقف مسلحون يقلدون رجل الدين الشاب، وما أن يصل إليهم حتى يخلوا سبيله، لأنهم يعرفون أن أخاه الكبير يقلد كبيرهم، وعندما يصل إلى ضفة الشارع الآخر عند المسلحين الجدد، لا يستوقفونه، لأن له أخا آخر يقلد كبيرهم، وهكذا استطاع ناهض أن ينجز عمله في توزيع أسطوانات الغاز، ومثله النفط، دون مضايقات كبيرة.

كانوا يجتمعون في جامع المنطقة، أو الحسينية، وقد انهارت جميع مؤسسات الدولة، بفعل القصف الأمريكي، والنهب الذي أستحله الناس لتلك الدوائر، حتى أن ناهضا ورغم عوقه، أراد أن يحمي المستشفى المركزية في المحافظة، عندما وجد امرأة تسحب خلفها جهازا ضخما ظناً منها، انه جهاز استنساخ، فأستوقفها راجياً إياها إرجاعه، لكنها رفضت، بحجة انها يمكنها أن تبيعه إلى أحدى المحال التجارية، ولما أخبرها انه جهاز فحص القلب تركته وهي تندب حظها، إن ما سعت جاهدة على حمله ومن ثم جرّه، لم يكن جهازا يستحق كل هذا التعب.

كان الشعب بالحقيقة، ينتقم من كل شيء في الدولة العراقية، لأنه كان يمثل النظام السابق، ولم يكن وازع الدين ليردعهم، بل كان الجميع ملطخا بماضي (الفرهود)، ورغبة الانتقام بإزالة عوالمه.

حتى رجالات الحكومة الجديدة، التي ادعت وصل الديمقراطية، هجمت على دوائر الأمن والاستخبارات من أجل الحصول على الوثائق التي تنصفهم، وتدين الآخرين في الوقت نفسه.

لما استتب الأمر لهم، أعادوا نفس تلك الدوائر إلى الخدمة ليذكّروا الشعب بالبطش الجديد المغطى بشكولاته الحرية، بدل من أن يجعلوها متاحف تدين القمع والتعذيب، تدين النظام السابق، بل واستدعوا أغلب من كان فيها من رجالات التعذيب تحت عنوان المصالحة الوطنية.

لم يكن أعضاء المجلس المحلي منتمين لأي من الأحزاب الدينية، والسياسية التي اجتمعت في لبنان، وظنها أن نظام البعث تهاوى، فاختلفوا في تقسيم الكعكة النفطية لبلد يدعى العراق، وبالخصوص بعد أن سقطت أغلب المحافظات العراقية، باستثناء ثلث بغداد وبعض المحافظات الغربية التي سُميت بالبيضاء، لأنها لم ترفع السلاح، وتثور بوجه النظام البعثي. والسبب من وراء ذلك أنها لا تحب النظام البعثي، وإنما خوفا من أن ينقلب النظام وتأتي ثلة تحملهم تبعات النظام السابق، وكما سيكتشف لاحقا أن الموالين للنظام الحالي لا يريدون أيضا إسقاطه، ليس بغضا به وإنما خوفا من أن يأتي نظام يحملهم تبعات النظام السابق، وهكذا كانت فئات الشعب تحافظ على طواغيتها خوفا من انتقام الفئات من بعضها البعض، بعد كل نظام سابق.

كانت المجالس المحلية، خليطا من المتعلمين، والمثقفين، والوجهاء، والأميين من أبناء المنطقة تطوعوا لخدمة منطقتهم، ونذروا حياتهم من أجل استتباب الأمن، من خلال توفير كل ما يجعل المنطقة التي هم جزء منها آمنة من خلال توفير سبل الحياة، وكثيراً ما تعرضوا

للاضطهاد من أتباع رجل الدين الشاب هذا أو ذاك، لأن النفط والغاز، يسيل له لعاب كل متكبر جبار، بينما الخدمات التحتية مثل توزيع أكياس القمامة، أو متابعة الدخلاء والغرباء الذين يدخلون المنطقة من أجل السكن أو أي تصرفات مشبوهة أخرى، لم يكن ليثيرهم بشيء.

(3)

رمضان بلون صدر الحمام

لم يكن طموح العضو صباح ليتوقف عند مجلس المحافظة، على الرغم من أنها حققت ما كانت تصبو إليه، بأن تكون محل اهتمام الآخرين، ألمح لها البعض من الأعضاء التزوج منها، لكنها رفضت، ليس لأن العمل السياسي سيطر على أغلب وقتها، وإنما لأنها تجد الفرصة غير مؤاتيه، وأن طموحها يتجاوز حدود المجلس إلى البرلمان.

سافرت بأمها إلى بريطانيا لإجراء الفحوصات، وأخذت فترة نقاهة طويلة، تحت عنوان عقد جلسات للتعريف بالعراق الجديد، وحقوق المرأة، والطفل المنتهكة في بلد لا يعرف غير الحرب سبيلا سابقاً، والإرهاب، والتفجير، والقتل على الهوية سبيله الجديد.

مثلها أخوها جبار الذي أوفى بأغلب عهوده، وأضحت له شعبية حقيقية، بالتوازي مع منافعه الشخصية، والعائلية، إضافة إلى انتمائه للحزب بشكل حقيقي، وأصبح يتدرج في تسلسله الإداري ليصل إلى ما دون الرئيس بقليل.

كان طموحه أن يتجاوز أيضا مجلس المحافظة إلى البرلمان الموقر

الذي يسن القوانين، وأمله بأن يكون وزير النفط والغاز المقبل، ولم يخطر على باله أن العملية السياسية في الدول العربية تشبه لعبة النرد، وربما قطع الدومينو، عندما تتهاوى أول قطعة تطيح بما بعدها على التوالي حتى آخرها.

كان طموحه أكبر من أن يتوقف أو يصطدم بمعرقل أيا كان نوعه أو سببه، مثلما كان يمارس عادته القديمة، وهو حبه للنساء، ولكن هذه المرة دون زواج، خصوصا وأن البعض منهن يطلبنه للقاء صحفي، أو تلفزيوني، حتى فاحت رائحته وقد أقام علاقة تكاد تكون مفضوحة مع إحداهن، بعد علاقة لأكثر من سنة، لكن ولموقف مبهم رفضت إحداهن المقابلات الخاصة، وأرادت أن تكون لقاءاتها بشكل صريح وعام، فما كان منه إلا أن منعها من دخول المجلس نهائياً.

لما كانت هذه الإعلامية، مسؤولة أمام القناة التي تعمل بها في إجراء اللقاءات الصحفية وجلب المعلومات خصوصا في كونه يرأس لجنة حساسة ومهمة وهي (لجنة النفط والغاز) فكان لزاماً عليها أن تعود صاغرة لتنفذ رغباته، ورغبات القناة الفضائية التي تعمل فيها.

تيقن جبار أن المشكلة ليس في السارق بل المسروق، الذي التذ بالألم، وأصبح لا يروقه النموذج إلا إذا كان مشوها ليرضي غروره، ويصب جام نقمته عليه، في زمن ضاع فيه القدوة والنموذج لشعب لا يعرف ثقافة الاعتماد على النفس، فهو يوكل أمره باستمرار للآخر. بل وأوغل في ذلك خصوصا إن قدوته هو (مكيافيللي) صاحب المبدأ الشهير (الغاية تبرر الوسيلة) وبالخصوص قانونه الثالث الذي ينص: هناك قاعدة عامة بالنسبة للشعوب، أنهم ينتقمون من ظالميهم إذا كانت

الأضرار التي لحقتهم من الظلم تافهة، ولكنهم يعجزون عن الانتقام لأنفسهم ممن يلحق بهم أكثر الظلم، وأشدّ الضرر، فخير وسيلة للحاكم هي أن يصب أكبر قدر من الظلم يعجز معه الشعب عن الانتقام.

كأنه في نظريته هذه أضحى قزماً للأنظمة السابقة، التي أوغلت في الظلم، فسيطرت على شعبها، أسوةً بالأحزاب المسيطرة على الحكومة المركزية، التي وعلى مدى السنوات المنصرمة لم تقدم شيئا أكثر من الوعود، بعد أن أحاطت نفسها بكتل كونكريتية وعزلت نفسها عن الشعب الذي كلما أزداد السياسيون انعزالاً ازدادوا تذللا، وانصياعاً من أجل نظرة واحدة يطل بها أي منهم عليهم.

(جنان) لم تكن تمتهن الإعلام مهنة أصلاً بل كانت ربة بيت، جاءت ضمن عائلة نازحة من أقصى الجنوب، وسكنت المحافظة، مع زوجها الذي تدرج في أعمال مختلفة، ليس آخرها الإعلام، أن بقي الوضع في العراق في تقلب مستمر، ولكن الفرصة تأتي مئات المرات.

في أحدى المرات نظمت أحدى منظمات المجتمع المدني التي ترعاها صباح دورة للتوعية بأهمية الإعلام ومخاطره، وقد حضرها زوج جنان، ولما لاحظ أن أغلب الحضور من النساء اللاتي يردن العمل في هذا المجال، لم يكن منه إلا أن أحضر زوجته في الجلسة الثانية، ومن هنا بدأت المسيرة.

تطورت هذه الدورة التي ترعاها إحدى المنظمات برعاية منظمة أجنبية، من أن تقوم بدورة تكميلية، ولكن في بغداد، لم يمانع زوج جنان من ذهابها إلى بغداد، والإقامة في فندق مدفوع الثمن.

صادف أن كان بعض رؤساء القنوات الفضائية موجودين في الدورة لإقامة عقود مع بعض الوجوه الإعلامية الشابة، ولأنها تمتلك مواصفات متميزة جسدياً أولاً، ولأن مخارج الحروف عندها جيدة، واستطاعت ان تتميز بوجودها ضمن العدد القليل من النساء اللاتي أصر أزواجهن بالتواجد معهن باستثنائها، فقد تم التعاقد معها على ان تكون ممثلة القناة في محافظتها، وفي المقابل طلبت أن يكون زوجها معها.

لم تكن مهنة الإعلام والصحافة في العراق، هي مهنة المتاعب كما يعتقد الأغلب في العالم، بل كانت في بعض أوجهها مهنة من لا مهنة له.

مهنة في بلد كانت عدد صحفه لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، ومثلها قنوات الإذاعة والتلفزيون، واليوم وان تعددت الصحف، ومثلها القنوات الفضائية، فلا يمكن ان يتجاوز عدد الصحافيين فيه عدد الصحافيين في أمريكا على سبيل المثال.

ألم توسم الصحافة بصاحبة الجلالة، والسلطة الرابعة؟ فالصحافة في العراق، وإن كثرت أصواتها وتعددت ألوانها إلا أنها لم تغدُ أكثر من ماكينة عَلا صوتها، وقلَّ إنتاجها، بعد أن حجبت الحكومة الديمقراطية المحلية، والمركزية، الأخبار الدسمة. وحلت محلها الصورة التلفزيونية بفضائياتها المختلفة، في تغذية السياسي بتلميع صورته، وفي الوقت نفسه تغذية المشاهد، وإرضاء غروره بتعري أولئك السياسيين أمامهم.

في إحدى المرات وأثناء انتهاء الأسبوع الأول من إقامتها في الفندق، لإتمام الدورة الصحفية، فكرت أن تعود لمحافظتها، ربما لأنها المرة الأولى التي تغيب لأسبوع بعيدا عن زوجها ومحافظتها الجديدة، ولن تكون الأخيرة.

استوقفها مجموعة من المسلحين فيما يسمى بـ(مثلث الموت) وهو المفرق الذي يجمع ثلاث محافظات في طريق واحد، بعد أن أوقفوا السيارة التي تقل الركاب جميعاً، كان الموت أكثر من مجاني والحرب الجديدة المعلنة دون أسرى.

إنها البشرى التي يحملها الدين الجديد، لا أسرى بعد اليوم، أفرزوا الرجال عن النساء، ومن ثم أفرزوا الرجال كل حسب مذهبه وما يدعي والفيصل في ذلك ليس الهويات الشخصية وحسب.

وضعوا صورة (وهم لم يؤمنوا أبدا بالتصوير) للأمام علي، وقد مضى على مقتله أقل من (1400) عاماً، ليحاكمون الحي بجريرة الميت، يحاكمون الحاضر بجريرة الماضي وسيبقى للقتل بقية، يطوف على أرض العراق. طلبوا ممن تثبت هويته أنه من الجنوب أن يبصق عليها ومن يمانع، مصيره الرمي بالرصاص مباشرة، كان الأغلب يمانع من أن يبصق عليها على الرغم من أن الخوف يجتاحهم.

أضحى ذلك المثلث (مثلث الموت) مقبرة كبرى لعابري السبيل من أجل معاملة، أو مراجعة طبيب لشفاء ألم مؤقت، وقد تحول إلى رحلة لا عودة فيها.

كل شيء كان يخفق ويرتجف بجنان، قلبها، سيقانها التي صارت مثل شجيرة غضة ترتجف بمواجهة الريح، وهي ترى الملثمين يفرزون الرجال عن النساء، يرمونهم بمحاكمة غير عادلة، محاكمة على متن الرصيف، لا دفاع فيها ولا نقض وينفذ الحكم بطلقات نارية إسلامية.

* * *

ما زلت أذكر جيداً، عندما خرج لنا من كل فج ولكن ليس بعميق المقاتلون العرب، وهم ينتظرون المحتلين الجدد (الأمريكان) في محافظتنا، كانوا من أغلب الدول العربية، كنت إنا أحد الشباب الموجودين أمام المدخل الرئيس للمحافظة، وقد أخبر صديقي أثنين منهم أننا مثلما نرفض الاحتلال نرفض وجودهم على أرضنا نحن لا نريد القتال مع أحد، خصوصا أن الأمريكان يمتلكون قوة مدمرة كبيرة، وعندما تخرج أي طلقة منهم فان المكان سيدمر كله، بما فيه من بيوت وعوائل، وذلك سيعود بالضرر الكبير على الجميع.

تفاجأ المقاتلون العرب، من الرأي شبه الموحد للجميع اتجاه حكومتنا الغارقة في الجحور، وتريد من الشعب والمقاتلين العرب الدفاع عنهم حتى يعودوا إلى كراسيهم من جديد، وقد تعلموا على ذلك بأن يأتوا إلى الكراسي دون عناء!

قدمت لهم النصيحة، بأن يذهبوا إلى غرب المحافظة، فهي امتداد للصحراء، وتخلو من المراقد المقدسة، إضافة إلى كثافتها السكانية البسيطة، لكنهم رفضوا ذلك، لأنهم يريدون الاختباء خلف المساكن، والعمارات، والمراقد الدينية، فما كان من الجميع إلا أن أصروا على ذلك، وبالتالي انصاعوا إلى الأمر بعد أن وجدوا أهل المدينة القديمة مصرين في الحفاظ على مدينتهم، ربما يعتقدون أن القتال الحقيقي هو في المحافظة على أبنائهم، وأملاكهم، ومقدساتهم في زمن يعج بالموت دون عقل، ومع ذلك بقي باب الموت مواربا في هذه المحافظة التي ستشهد كثيرا من النزاعات الداخلية حول الاستحواذ على المقدسات، وإقامة صلاة الجمعة..

بينما أخذ البعض الآخر منهم بعضا من المقاتلين العرب إلى بيوتهم، وأفهموهم بشاعة النظام السابق، والجرائم التي ارتكبها بحق شعبه، والحروب العقيمة التي زج الشعب فيها مع دول الجوار، ومن ثم قسوة الحصار بالمقابل تمتع زبانيته بتهريب النفط، ومن ثم محاولته المستمرة في تسويق دعاية إعلامية من خلال الفنانين العرب عن طريق (كابونات النفط).

بل إنه باع المساعدات الغذائية القادمة إلى الشعب الذي رُكِّع من الجوع، والخوف في المزادات العلنية، كانت حوارات طويلة من الألم، هي أقرب إلى ملحمة، وربما بكائية من (نحيب الرافدين) وأهلها، وبالمقابل كان أحدهم، وقد تصدى لإقناع من كنت حاضرا في بيته بأن القادم محتل، ويجب قتاله على فرض أن الجهاد فرض عين دون الحاجة الى فتوى أو دعوة من رجال الدين من أجل الجهاد ضدهم.

لكن صاحبي ليس ضليعاً بالدين، وكانت له قراءات ضعيفة في التاريخ، وقد قرأ سابقاً أن (حاكم كافر ولكن عادل، خير من حاكم مسلم ولكن ظالم)، وتلك كانت فلسفة عقيمة طفحت على السطح مثل كل التفاهات في العصر العباسي، فلا يمكن التمييز على أساس الدين بين الحاكم والمحكوم، بل الأصل في القاعدة القانونية التي تبوِّئُ من يحكم أن يكون مستندا على أساس شرعي مستمد من الشعب.

بالتالي لا يمكن الجهاد من أجل الدين، حتى يعود من ظلمه إلى الحكم، مثلما لا يمكن السكوت على المحتل الجديد، ولكن شأن العراقي أن يكون ممتحنا في وطنيته، ودينه، مرة أخرى، وأخرى.

انسحب جميع المقاتلين العرب من مركز المحافظة القديمة إلى

غرب المحافظة، أما عن طريق السيارات الشخصية للأهالي، في الوقت الذي رجع البعض الآخر عن رأيه، بعد أن وجد أغلب الناس مع إسقاط الحكم، وفي الوقت نفسه كارهين الاحتلال، فآثروا الوصول الى المحافظات الغربية ومن ثم الرجوع إلى دولهم، التي جاؤوا منها.

لكنهم على ما يبدو، كانوا الأغصان المطعمة التي انتمت إلى شجرة القاعدة التي زرعها النظام السابق، وقد ترعرعت في بعض من المناطق الغربية رغبةً، وعنوةً في صحرائها، حتى أسست لها جذورا، ومكامن لتنمو، وأول ما بدأت به، هو قتل أهل العراق، ومن ثم المحتل.

ربما عاد هؤلاء المسلحون، الذين احتضناهم بالحب، وشرحنا لهم موقفنا، من النظام السابق، ومن ثم أرسلناهم إلى مناطق صحراوية ليقاتلوا الأمريكان، وبعضهم إلى بلدانهم، فآثر البعض البقاء في العراق، والانتقام من الذين لم يقتلوهم، وهل جزاء الإحسان إلا القتل. حتى أن البعض من تلك المحافظات عملوا لهم مقبرة تحت عنوان (مقبرة الشهداء) تأسيا بالمقبرة الموجودة للعراقيين خارج حدودهم بعد أن شاركوا في بعض الحروب العربية، ولم يعودوا جثثا وإنما أسماء إلى أرض الوطن.

عندما وصلت جنان إلى بيتها، كانت الدهشة، وربما الذهول مسيطر على كيانها، فالفرق بين أن تقدم تقريرا إعلاميا عن انفجار، أو اغتيال، يختلف كلياً عما تراه بأم عينها، وتسمع صوت الموت، وهو ينطلق من فوهة البنادق اتجاه رجال ليس لهم ذنب سوى أنهم ورثوا شعرة الأمان من رجل يودي بهم إلى الجنة.

احتضنت أولادها، وذرفت الدموع مدراراً، وهي بين مصدق نجاتها،

وبين مكذب، أن يكون الموت في العراق وبالخصوص (مثلث الموت) مجاناً وبهذا الشكل الفظيع، في زمن كل شيء فيه له مقابل، حتى دخول المغاسل.

اعتكفت في البيت لا تخرج منه، ولا تجيب على جرس الجوال، بعد أن شاع بالعراق، ومثله الانترنيت، وصحون الستلايت، وعبثاً راح زوجها المسكين، أو الرجل الذي ربما لم يكن الأول، وليس الأخير في حياة هذه الإعلامية ذات الجسد الباسق، أن يخرجها عن صمتها، أو يوقف دمعها، ويخرجها قليلا من ذهولها الشارد.

(4)

رمضان يشبه الآخرين

في زمنٍ قبيح، يشبه أغلب أزمان العراق، وفي رمضان ربما يشبه أغلب رمضانات السابق، وربما اللاحق، في عبوديته وتذمر القائمين به، واختلاف بعضهم، على بدايته، واختلافهم في نهايته، كنت إنا قد أنجزت رسالة الماجستير (وبالمناسبة طلبت الأذن من الراوي) ان أقص حكايتي عليكم، ربما أهل مكة أدرى بشعابها، ومع ذلك حاصروهم فيها وأهلكهم العطش والجوع حتى الموت.

في آخر يوم من رمضان عند أحدهم، وليس بآخر عند الآخر، اختلفا، ولما كانا اثنين، من منتسبي الشرطة المحلية، بمعنى أنهما من أفراد السلطة التنفيذية لحفظ الأمن واستتبابه، ولما كانت عتلة الأمان على غير وضعها من الأمان، تشاجرا، ومن ثم تدافعا، وكل يريد إثبات رأي صاحبه الذي يقلده، ومن ثم رأيه، على اعتبار انه أعلم من الآخر، ناسين، وربما مُتكلين عليهم ومتغافلين عن النص القرآني الصريح، الذي يقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآن هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَان فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾.

كانا شاهدين عليه، وأتما الشهر، بل وأتبع نبي الرحمة، تعزيز النص

القرآني بحديث مبارك «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»، ومع أن البدر ظهر جلياً، حيث رقاب الناس ممدودة بطول رقبة الزرافة، وعيونهم بقوة عين الصقر، وهي تنظر إلى كبد السماء، حيث الخط الأبيض الرقيق، والمنحني للقمر في لحظة ولادته، معلناً الشهر الجديد، ومع ذلك أصرا على ان يختصما ويختلفا، لأنهما في الحقيقة معطلة عقولهما، حتى أن البعض من مثل هؤلاء، ليتبع صاحبه، ومخالفاً عقله، على الرغم من أن ما يقترحه البعض من أولئك، يخالف العقل والمنطق، ولكن مع ذلك أصر الجميع وليس هما فقط على مخالفة عقولهم وإتباعهم.

كنت أقف أنا مع صديقي، على مرمى بندقيتهما، وكان المكان، هو عبارة عن رصيف، يفترشه المثقفون، لبيع الكتب، وقد ضاقت بهم السبل، أو تقطعت، كان ذلك الزمن بعد السقوط وربما الاحتلال بسنة واحدة ونيف، وقد شهد هذا الرصيف أيام الحصار، حيث أن أحد أصدقائي قد جاءنا وفيه مس من الجنون يبحث عن بعض شرائح جذوع النخيل كي يسقف بها غرفته التي أستطاع ان يبني جدرانها من مبالغ التسول التي يدخرها، وهو الآن يحاول أن يجد من يبيعه جذوع النخل تلك، كي يمدها بين الجدران لتكون سقفاً يحميه، وزوجته من حر الصيف وبرد الشتاء، وفي الحقيقة يحميه من الجوع الذي يخاف أن ينكشف على الآخرين فيُعَيَرُ منهم، وهو المثقف الذي يهدي الآخرين إلى جادة الأمان الذي افتقدوه، بعد أن باغته الجوع. كنت أنا وبعد أن حصلت على الماجستير بدرجة الامتياز عن رسالتي الموسومة (فلسفة المعنى في النقد العربي) وكان أحد المناقشين من أعمدة النقد العراقي، والعربي، ألا وهو الأستاذ عناد غزوان، قد تعاقدتُ في جامعة كربلاء بعقد مؤقت على أمل أن أتحول إلى موظف أمارس فيها حرفتي وهي الإبداع.

صادف أن أبرق رئيس الوزراء الجديد بمبلغ وقدره (500)$ لكل أستاذ جامعي، لكن سوء الحظ، جعلني خارج القائمة، وبعد فترة أبرق، وربما نفس الشخص مبلغ وقدره (300)$ لكل موظف خدمة، ولكن أيضاً لم يكن أسمي ضمن القائمة، فكتبت طلباً للسيد رئيس الجامعة، أطلب منه ان يعاملني على قدم المساواة مع عاملة الخدمة (أم أحميد)

كانت القاعة التي ألقي محاضراتي فيها على الطلبة قريبة من النادي، فأقمت اتفاقا مع صاحب النادي أن يشغل كل يوم صباحاً، (فيروز)، وبعد العاشرة، (أم كلثوم) وكان الطلبة يعيشون بين هيامين، الأول الصوت الملائكي لفيروز، مع عمق المحاضرات التي ألقيها عليهم في موضوعة المعنى وفلسفته عند الإغريق وصولاً إلى الفلاسفة المسلمين، وبين (أم كلثوم) ومداعبته للروح وسط فلسفة المعنى واختلاف الفلاسفة فيه.

كنت بين مشروعين، أحلاهما مر، بين الزواج الذي لم أكن كفئا له، على الرغم من أنني من عائلة ريفية، وما همُّ المعيشة بمقلق بالنسبة لي، بل ومن عائلة وضعها المادي أكثر من جيد، ولها من الأطيان ما يفيض عن الحاجة، وبين همِّ مواصلة مشواري الأكاديمي، في إكمال الدكتوراه، والتي كنت قد اتفقت مع عناد غزوان على العنوان، ومن ثم ليكون مشرفاً على أطروحتي.

لكني مع ذلك، كنت أملك من القلق ما يكفي ربما لعشرة أشخاص ويزيد، فالمشروع العلمي الأكاديمي، هو الهم الذي لا يفارقني أبدا، ومع ذلك كنت قدر الإمكان، أعمل جاهداً على التوفيق بين العلاقات الاجتماعية والنفسية خاصتي.

كنت أقضي أغلب أوقات العصر حيثما يلتقي المثقفون على الأرصفة

ومقاعد المقاهي، أما أيام الجمعِ فكنت أشد الرحال مع بعض الأصدقاء المثقفين من الذين يعملون ليلاً في الأفران الحارة، وقد أصيب البعض منهم بمرض الربو، فهم عرضة باستمرار لتقلب الجو بين حرارة الفرن، وبرودة الجو في الشتاء، ومثله بين الحرارة نفسها، وتيار الهواء البارد والرطب المتدفق من مكيف الهواء.

* * *

في أحد الأيام بينما كنت أقف مع صديقي على مقربة من الشرطيين المختلفين في هلال رمضان، سحب أحدهم سلاحه وقد ألقمه طلقة، وأطلق النار على صاحبه، ولما كان صاحبه قريباً عليه، فقد أزاح بيده فوهة البندقية عن نفسه، ولكنه لا يدري انه قد وضعني في مرماها، وقد انطلقت الطلقة العمياء، باتجاهي.

لم يدرْ في حسابي أن أموت مبكرا، أو يتم اغتيالي بطلق ناري أعمى من مغفل، لا يفقه من الدين إلا قشرته، ومن أصوله ربما تعداده، ومن فروعه ربما الصلاة فقط، أن استمر عليها بعد انتهاء شهر رمضان هذا الذي يشبه كل ما سبقه وما لحقه من رمضانات.

نحن في كل رمضان نختلف على بدايته ونهايته، وما ضير الإسلام الذي أخذ أغلب طقوسه وعباداته من العرب، ومنها رمضان، ما ضره لو أبقاه ثابتاً كما كانت العرب، ولم يقرنه بالقمر.

بقيت روحي تطوف حول المكان، حيث جسدي، جثة هامدة، مثل كتلة أي كائن حي، دهسته سيارة مسرعة، أو أصابه موت مفاجئ دون أسباب، ففي العراق من قبل ومن بعد، ليس للموت من أسباب، أو عاطفة، تمنع قدومه، أو تستبطئه.

لما لم تجد روحي الهائمة، سوى بالصديق (جاسم عاصي) والبعض ممن يشبهه، بأن يحفظ أحلامي وآمالي، فقد همَّ بأن يقدم مخطوطتي/ رسالتي، إلى دار الشؤون الثقافية، ليحولها إلى كتاب يحمل اسمي ما بقي حيا بين أكف القراء.

لكن المؤسسة العراقية ما برحت تجلدني، أسوة بذينك الشرطيين، اللذين تغافلا وبلحظة عصبية إلى استعجالي مغادرة الحياة دون سبب، وكنت لم أزل بعد لي نصيب فيها، فأحلامي ظلت معلقة في المكان الذي غادرت روحي فيه جسدي.

تستمر السنون، ومثلها أشهر رمضان، وكنت أنا في كل سنة، أطوف بين مكانين، بين المكان الذي أجبرت على مغادرة جسدي، وبين المكان الذي توجد فيه مخطوطتي، أنظرها، وأنفض ما تراكم عليها من تراب، دون طائل.

مضى الآن، أكثر من ثلاث سنوات على اغتيالي، ورسالتي لم تطبع بعد كتاباً يعيد الحياة لجسدي، وعلى الرغم من وفاء بعض الأصدقاء وذكري في مجالس المتأدبين، إلا أن ما يجعلني أعيش من جديد هو أن أتحول إلى أرث ثقافي بين ظهراني الأدباء من الجيل الجديد.

طفت في ليلٍ أُنبه رئيس المؤسسة، ولما كان مخموراً في أحد فنادق دول الجوار، وقد استرق مبالغ المؤسسة بحجة ثقافية هي إقامة زيارة لعاصمة الضباب، من أجل إقامة معرض للكتاب، أو حجة واهية لم تنطلِ سوى على من عينه في هذا المنصب، والسبب هو منفذ جديد للنهب والسلب ولكن بعذر شرعي وما أسهله.

عدت الكرة على من أقرنه معه في سفرته، ولكنه كان مثله مخموراً ومزهواً في عالمه الجديد، وعلى الرغم من أنني لابد أن أشكره لأنه قدم مقدمة لكتابي بعد أن أخذ سنتين إضافيتين حتى خرج للنور، ولكن الصدفة التي قتلتني هي الصدفة نفسها التي فتحت الباب لطبع رسالتي أسوة برسائل الأصدقاء والنقاد الجدد، والسبب هو أن بغداد لبست ثوب الثقافة تحت عنوان بغداد عاصمة الثقافة العربية لعام 2013، وأنا أتقصد ذكر التاريخ حتى تكون شاهدة على زمن لا تطبع فيه الكتب في مؤسسة تُعد عريقة في بلد السواد، ونحييه إلا بعد مضي أكثر من خمس سنوات. والفضل في ذلك يعود لجاسم عاصي وبعض من كان بمثابة الجندي المجهول الذي ظلَّ يحفظ مخطوطتي خوفاً من ادعاء متطفل كتابة رسالتي أو مزور لأسمي، خاصة وانه لم يكن من أخوتي أو أقاربي من أمتهن الأكاديمية طريق حياة.

كل ذلك الذي ذكرته على لساني هو في الحقيقة، ذُكر على لسان من قارنني في الكلية، طالباً وأستاذا، أو من كان يلتقيني عند رصيف المثقفين، بل وحتى من لم يتعرف عليَّ، ولكنه سمع بي من أقراني، وظل يحفظ ذكراي العطر من أفواه الآخرين، وقد تجلى في حفل توقيع كتابي الأول والأخير، من على حدائق نقابة المعلمين، في تجمع تحت عنوان (نادي الكتاب) كان ذلك بتاريخ 2013/ 6/ 19.

عذرا منكم لأني قد أكون أطلت (سيرة موت) سأعود بكم إلى الراوي، مودعا ربما إلى غير رجعة. لم يكن (لواء الفواز) ليطيل الغياب على ألسن المثقفين ومن عرفه، بل حتى في مؤسسة المجتمع المدني، خاصة حسون، حيث كان يلتقي ببعض الشيوخ والمثقفين، كان اسمه يُقرن بمن

فاجأه الموت، وكأنه ينطبق عليه قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأخرى إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذُٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

كثيراً ما كنت أتفكر بموضوعة الموت، وربما قد ورثتها من جدي الأول، ورحت أبحث عن عشبة الخلود، ولكن بلباس أوربي، بعد أن تيقنت أنها أقرب إلى لعبة عبثية، ليس فيها رابط، أو مسبب منطقي، للزوال والبقاء.

أضحت مؤسسة حسون مركز تجمع أغلب أبناء المحافظة، وقد انقسمت إلى شرائح هي خليط من الأدباء الذين لم يكن بعد قد أسسوا لهم اتحادا خاصا بهم، ومثلهم التشكيليون، إضافة إلى وجوه كثيرة، أضحت ترتاد المؤسسة لقضاء بعض الوقت عصراً، يقلبون أوضاع المدينة السياسية والاجتماعية بعد أن كان تداول الوضع السياسي سابقاً تهمة يعاقب عليها القانون.

مثلما أضحت تنظِّم بعض المظاهرات المناهضة للكثير من تصرفات الساسة الجدد، أو مكانا لاستضافة رجال الدين الجدد أيضا، وكذلك إقامة الاحتفالات المختلفة، مرة لمعرض تشكيلي وأخرى لشاعرٍ شاب... الخ.

* * *

في أحدى المرات، وعلى غير العادة، حدث انفجار سيارة مفخخة، عند مفترق طرق، في مركز المدينة القديمة، وراح ضحيتها كثيرٌ من السابلة، والمارة بهدى الصدفة، والسكينة دون حسبان لمثل هذا الموت.

لكن ومن بشاعة الموقف وقد تقاذف الناس في كل الاتجاهات بعد ان تقطعت أجسادهم الى أشلاء، ومنظر الدم، ورائحته تثير الاشمئزاز، راح آخرون مع سبق الإصرار، والترصد على السلب، والنهب لتلك الأشلاء، وبالخصوص أعضاء النساء من اللاتي كُن يرتدين بعض الحلي الذهبية في أيديهن، وكذلك عند الرقبة والأذنين، وقد أصر أحدهم على نزع الخاتم من أصبع كان جزءًا من يد وجسد.

أرسل جبار بطلب ابن عمه للدخول الى المستشفى المركزي، بسيارته الخاصة، ففي مثل هذه الحالات تدخل المستشفى درجة الإنذار، فترفض الحالات العامة، وفي اتفاق مسبق مع أحدهم، دُرج ابن عمه على انه من ضحايا التفجير الإرهابي الأخير.

من ثم سعى جاهدا إلى سفره خارج العراق من أجل معالجته، وبعد ان دخل عدة مستشفيات على حساب الحكومة، لم يكن من بديل لحالته سوى صرف (طرف) له، ومن ثم أدخل إلى مستشفى آخر من أجل تدريبه على المشي بعد دورات في اللياقة البدنية.

رجع ابن عمه (نزيه) إلى العراق وهو يرتدي بذلة أوربية، ولكن باتكاء بسيط من لا يدقق فيه لا يعرف انه معاق، وربما حينما لا يسرع بالمشي تبدو مشيته للوهلة الأولى طبيعية.

انتمى نزيه إلى عائلة جبار، وأضحى له تاريخ سياسي جديد، فهو من ضحايا الإرهاب الجدد، فأخرج له جبار راتبا من الرعاية الاجتماعية، مثلما وظفه بعقد مؤقت في مجلس المحافظة.

كان الساسة الجدد أصحاب دين جديد، قانونه العقوبة الحاضرة،

والثواب المؤجل، وربما هم ورثوا ما طبقوه، بعد أن عطلوا الدستور الذي راح ضحيته الآلاف المؤلفة قوافل في سبيل تحديد مستقبل هذا البلد، في مقابل فقرة توافقوا عليها تحت عنوان ما يسمى قانون الإرهاب، والحقيقة أن الدستور يعمد إلى حفظ كرامة الإنسان، في الوقت الذي سنّوا فيه قانون الإرهاب الذي يستبيح تلك الكرامة، وما الفرق بين نظامين، الأول ادعى الدكتاتورية فأستباح الكرامة، والثاني ادعى الديمقراطية واستباح الكرامة.

ظل نزيف الحياة الجديدة يجري، وهو مازال يقضم الإنسان العراقي، فهو موزع ما بين الإرهاب الحكومي المغلف بالدستور وقانون الإرهاب، وبين الإرهاب الذي يفتك به مرة باسم الطائفية ومرة باسم المناطقية أو الحزبية وغيرها من الحجج والأباطيل.

تحولت منظمة المجتمع المدني، إلى مركز شكاوى المواطنين، والشيوخ والوجهاء، في أحدى المرات، تقدم أحد الشيوخ بطلب لحسون يرفعه إلى الحكومة المركزية، بعد أن عاثَ مرض (الدوباس) بالنخيل قتلاً، من أجل مكافحته، فليس لأحدهم طاقة بمعالجة مثل هذا المرض إلا الحكومة التي تمتلك طائرات، لترش المبيد المناسب للبساتين.

النخيل مثل الإنسان العراقي، ظلَّ مبتليا، منذ تسنم الحكومة البعثية مقاليد الحكم بانقلاب وقح، ومن ثم أشعل الحرب مع الجارة المسلمة، وراح النخيل في البصرة الفيحاء يحترق، وتقطع رؤوسها مثل الإنسان، حتى أضحت تلك البساتين العامرة الكثيفة بنخيلها الباسق الذي يترك ظلاله على شط العرب، وكأنه مظلة من الدفء والأمان أضحت جذوعا واقفة عن الحياة تشهد تاريخ الحرب.

اليوم يعود النخيل ليشهد مرة أخرى حربا، ولكن من الأمراض، ربما البيولوجية، فالنخيل هو الأخ الأكبر في البساتين يستظل بظله أشجار الجمضيات، وما دونه في الارتفاع، من حر الصيف اللاهب، وبرد الشتاء القارس.

كان حسون يحسن استخدام مثل هذه المواقف والأزمات، ويذهب بالطلب إلى مجلس المحافظة، ليلتقي برئيس لجنة الزراعة، ويشرح له الأمر، ويقدم له الطلب، حتى وصل معهم إلى عقد اجتماع في المنطقة الزراعية بين المسؤولين والفلاحين مع بعض الشيوخ والوجهاء.

حضر الاجتماع كثير من وسائل الإعلام المحلية، وبعض مراسلي الصحف المراهقة، ولما كان حسون قد أضمر لمثل هذا اللقاء الترويج لأخيه ونفسه، من خلال تصديه لمشاكل الناس، لكن اللجنة شعرت بذلك، ولم تمنحه الفرصة المخطط لها، ما أدى إلى تصادم بينهم، كونه الجهة المنظمة، وكونهم الجهة القيمة على إيجاد حل لمثل هذه المشاكل من الأمراض.

جاءه البعض من ذوي الأفران الجديدة يطلبون من حسون التوسط لهم من أجل صرف حصة (النفط) الذي يشغل أفرانهم، وقد بينوا له أنهم افتتحوا أفرانهم في العشوائيات الجديدة، التي تعادل بوحداتها السكنية مثل أي حي نظامي وزعت قطعه الحكومة السابقة، لكنه تعذرهم بحجة أن أفرانهم غير مطابقة للشروط الخاصة بالمساحة والموقع. مثلما جاءه أصحاب محلات (كي الملابس) من أجل تزويدهم بالحصة الكافية من (النفط) أيضا، ولكنه تعذرهم في كون العراق يمر بظروف حرجة، وهو لا يحتاج الى مثل هكذا مصالح كمالية، وتستطيع الناس المترفة أن تكوي ملابسها في البيوت.

ذاع صيت هذه المنظمة بين أطراف المدينة القديمة، ومثلها الأحياء التي تشعر بعزلة عنها، في أحدى المرات، أتى شاب يحمل بيده قنينة ماء، ذات لون يميل الى السمرة، وطلب مقابلته، ومن ثم شرح له، عن أن هذه القنينة تحمل ماءَ الشرب وبمجرد إزالة الغطاء عنها، امتلأ المكان برائحة كريهة، شرح له بأنه قد راجع مديرية البيئة بخصوص الموضوع، والسبب ان ابنه الذي لم يصل بعد الى السادسة من عمره، قد نقله الى المستشفى بعد أن شرب من حنفية البيت (الصنبور) بشكل مباشر، وبعد التحاليل تبين ان الماء الواصل للبيوت هو ماء المجاري الثقيلة، ما أدى إلى أصابته بالتهاب الكبدي الفيروسي.

شن حسون على أثرها وبمساعدة أخيه عضو مجلس المحافظة جبار حملة شعواء، على الأيادي الفاسدة التي تعيث بصحة الناس فسادا، وطلب فتح تحقيق بالأمر، وما كان من المجلس وقد أتقن اللعبة إلا أن فتح تحقيقا بالموضوع بعد أن شكل لجنة.

على الرغم من شيوع منظمات المجتمع المدني في المحافظة وقد تعدت المئات، وفي كل المجالات، فلم يكن هناك منفذ إلا وهبَّ مجموعة من العاطلين عن العمل، بفتح منظمة مجتمع مدني، ليس آخرها (منظمة مجتمع مدني لخريجي الكليات والمعاهد).

انكب الشباب عليها من كل صوب وحدب، يقدمون معاملاتهم، وكان رئيس المنظمة، وبكل كياسة واحترام يطلب من المتقدم، الوثائق الرسمية الثابتة، وهي الوثائق الأربعة (الجنسية وشهادتها، وبطاقة السكن والتموينية) مشفوعة بشهادة التخرج.

أكتسب رئيس المنظمة صيتا في المحافظة، وقد أصبح بين ليلة

وضحاها كالنار على علم، يُحسب له حساب في مديرية التربية وقليل عند مجلس المحافظة، وأخذ يقابل مدير التربية الذي أصبح منصبه من ضمن مناصب المحاصصة التي توزعتها اللجان، بشكل مباشر حتى عُقدت صفقة مشبوهة بينهما، عُيِّنَ على أثرها رئيس المنظمة في أحدى المدارس كمدرس، فأهمل المنظمة وترك الخريجين يلعنون حظهم العاثر بعد أن تسنم المنصب الجديد نائبه الذي أكال لهم الوعود من جديد.

مثله خريج كلية الزراعة، وقد أفتتح منظمة تهتم بالبيئة، وأخذ يعقد دورات لأصحاب المعامل والمهتمين بالشأن البيئي، ويهاجم اللجنة الخاصة في مجلس المحافظة، وإهمالهم المستمر بالشؤون البيئية التي تعصف بالمجتمع بعد أن زاوج في الإهمال بين النظام السابق والحالي. ليتعين بعدها ويترك منظمته لنائبه. وأخرى تهتم بشؤون الطفل والمرأة، حتى أن أحد الحاضرين سأله عن سبب تطليقه زوجته، وتَرْكِ أبنائه عند بيت أهله، بعد أن تزوج من امرأة أخرى، فلم يكن إلا ان تعثر بالجواب، وحسبها شؤونا خاصة لا يجوز الخوض بها أمام وسائل الإعلام.

أكثر تلك المنظمات هي المنظمات التي تهتم بالإعلام، وحقوق الإنسان تحت كل لون وشكل، حتى انبثقت منظمة كان رئيسها قاضيا يعمل في محكمة البداءة في المحافظة، تحت عنوان (منظمة حقوق الانسان) لها نظام داخلي فيه انتخابات للرئيس والأعضاء، لكنه أحسن التصرف في شيئين، الأول انه جمع أصدقاءه وخاصته من حوله، وبذلك ضمن البقاء على صدر المنظمة كرئيس، فالترشيح لا يجوز إلا للأعضاء المؤسسين، والثاني انه أستطاع بعد دورة واحدة من أن يعقد صفقات له وأعضاء المنظمة من السفر خارج البلاد، لأخذ دورات في حقوق

الإنسان، حتى أتت اللحظة المناسبة عندما سافر الى (سويسرا) كممثل للمنظمة ومن هناك طلب لجوءًا إنسانيا في كونه قاضيا مهددا من بعض المليشيات المنتشرة في المحافظة.

مثلما حظيَّ كثير من أصحاب تلك المنظمات بمِنَح من الدول الأجنبية إضافة إلى أمريكا، حتى تكشفت عوراتهم، بعد أن افتضح أمر إحدى المنظمات، وقد كان رئيسها وأعضاؤها من أصحاب البيت الواحد، يقدمون الـ(CV) الى الجهات المانحة ويتلقون الأموال بالدولار، بعد أن يوهموهم بعقد جلسات ومناقشات للظرف السياسي المتقلب في ظل الديمقراطية الجديدة.

المشكلة الحقيقية التي لم يتقنها أصحاب هذه المنظمات، أنهم كأصحاب لمثل هذه المنظمات، لابد أن يؤمنوا بأنهم يمثلون السلطة الخامسة، في تسلسل السلطات المدنية، ولكنهم كانوا مثل أي مؤسسة دينية، يلبسون السواد في المناسبات الدينية ويقيمون العزاء، فيشقون الجيوب ويلطمون الصدور، ويلعنون فيبكون ويتباكون، مثلهم مثل نكتة شاعت في الفيس بوك ما نصها، أن الشيطان هرب من العراق، وعندما سأل عن السبب قال:

- يسرقون وينهبون ويقتلون بمعاونتي، وعندما يبنون يكتبون قطعة كبيرة فحواها (هذا من فضل ربي).

المشكلة الحقيقية التي اعتقد البعض أن علم الاجتماع قد شخصها، وهي الازدواجية التي تركبت في الشخصية العربية، والعراقية لنزوحه من الصحراء، والحقيقة إن الدين هو الوجه الآخر لتلك المصيبة، الذي أعتقد فيه البعض أنه ترياق السعادة الدنيوية، والأخروية، ولما لم يجد

ذلك على أرض الواقع، راح يظهر على عكس ما يخفي، متوهما انه يرضي الله، وفي الوقت نفسه يحقق مآربه، ولكنه أفلس من الاثنين.

* * *

أضحت الحياة في العراق من كل رمضان، مهجورة، البرلمان الموقر بين تحويل انتظامه غير المنتظم إلى الليل، أو أن يأخذ إجازة استثنائية طول الشهر المبارك، ليصوم أغلب أعضائه في دول الجوار، والأوربية، لأنها صحية وأكثر مواءمة للصوم.

الموظفون يمنون على المراجعين في انجاز جزء من معاملاتهم، التي أصبحت تهلك كاهل المراجع، بأعذار مختلفة، أولها (اللهم إني صائم) وآخرها، انتهى الدوام ولم تبلغ الساعة بعد (الثانية عشرة)، والحجة لا تحتاج إلى بيان، أو بلاغة، وإنما هو الروتين القاتل، إضافة إلى أن الجميع ينتظر أذان الظهيرة من أجل الصلاة، على الرغم من أن مراجع الدين في البلد، أفتوا بعدم جواز ذلك، لكن الساسة الذين أرادوا تحويل كل مؤسسات الدولة الى جوامع وحسينيات، حتى أن البعض من الوزراء المهجرين، أو المهاجرين، أو المُسفرين، أفتوا بعدم جواز دخول وزارتهم بالحذاء، فتحولت استعلامات الوزارة الى (كيشوانية) لجمع أحذية المراجعين، بدل ان تكون دليل لمساعدتهم.

أما الحياة في القطاع الخاص، فهي أكثر من ذلك، بين محلات مغلقة، وأخرى تفتح على هامش اليوم، حتى يحين أذان المغرب، لينفرط العقد بين الصائمين، ويوم من رمضان قد ولى حتى العام القادم، ليعودوا سيرتهم الأولى بين غالبٍ ومغلوب.

لما كان (المؤمنون حلويون)، فقد ازدهرت محلات بيع الحلويات في عموم البلد، وبالأخص المحافظات المقدسة التي يرومها الزائرون من كل حدب وصوب.

يهب الجميع للصوم في رمضان، وسرعان ما يتهافت البعض منهم، وبالخصوص الصبية والشباب من الذين يهوون التجريب في كل شيء، وعندما يجدون الممنوع، أقوى من المسموح تنهار عقيدتهم الغضة، بين العطش والجوع، على الرغم من تحويلهم أغلب النساء إلى بقرات، في الوقت الذي تحول تلك النساء إياهم إلى ثور، ضمن الشائع من التراث الديني عندما يرى أي شاب فتاة تحاول زيغه عن صيامه فيقول: اللهم اجعلها بقرة في نظري، فترد الأنثى واجعله ثورا في نظري.

أما الآخرون من الرجال الذين لم يعتادوا تغيير نمط حياتهم فيمتنعون عن ملذات الحياة الطبيعية من الأكل والشرب والنميمة، فإنهم وقد تدبروا أمرا وسطا يرضون الجميع فيه، فينامون، فترة الصيام كلها، حتى قبل أذان المغرب بساعة، أو دونها، ليصحوا والأذان على الأبواب، ليتموا يومهم وكأن شيئا لم يكن، حتى آخر يوم من رمضان.

لتبقى شريحة بينهما، وقد تدبرت أمرها، بأن تسافر إلى خارج العراق، وحجتها في ذلك، إنها (على سفر) وبذلك يسقط هذا الفرض، وبالخصوص في الصيف، حيث جو العراق لا يطاق، باستثناء رجال الدين، من الذين اعتادوا الحياة الجديدة، ومكيفات الهواء الكاونترية تنث عليهم هواء اليابان البارد، وقد ضمنوا عدم انقطاع الكهرباء عنهم أبدا، وإلا فصلاة الجمعة تسقط كثيرا منهم.

ليست منظمات المجتمع المدني ببعيدة عن ذلك، فشرع حسون بفتح

أبواب منظمته بعد الإفطار بساعتين، يلتقي فيها الأعضاء والمشاركون والمتسامرون، ومن الذين لا يجدون بدًّا من الخروج من البيت.

أستطاع حسون أن يمد جسور الصداقة والمصلحة، مع كثير من منظمات المجتمع المدني في المحافظات الأخرى، خاصةً والعراق بلد خالد في الفساد المالي، والأخلاقي والإداري، ومن ثم بدأ يزور البعض منها في تلك المحافظات، ويبادلونه الزيارة، فيقيم الأمسيات، والجلسات، يتبادل معهم الهموم الوطنية والشعبية، يستنكر كما الآخرين الأوضاع الشائنة التي عمت البلد، وفي الوقت نفسه، يتبادل بعض الإيميلات الإلكترونية لبعض المنظمات الأوربية الداعمة لمنظمات المجتمع المدني الحديثة في العراق. وفي الوقت نفسه أتفق مع مجموعة من منظمات المجتمع المدني، أن يؤسسوا كتلة سياسية يخوضون من خلالها الانتخابات المقبلة لمجالس المحافظات.

عندما تسربت تلك الأخبار إلى أخيه جبار أرسل بطلبه، وأنّبه كثيراً على ما يريد الإقدام عليه، وهدده بأن يسحب منه التمويل الذي كان يرسله إليه، وعلى الرغم من أن حسون رفض ذلك بحجة أن التمويل هو من مجلس المحافظة وليس منه شخصياً، إلا أن جبار رفض كلامه، مدعيا بأن لولا جهده الشخصي، ومكانته في المجلس لما استطاع حسون أن يديم المنظمة، إضافة إلى الأرباح الأخرى التي كان حسون يحصل عليها تحت هذا العنوان، وهو على إطلاع بذلك.

حدثت مشادة كلامية قوية بين الطرفين، وأضحى كل فرد يخرج ما بجعبته من ملفات تدين الآخر، وتؤدي به إلى التهلكة، لكن جبارا لم تكن من سياسته المواجهة المباشرة، فأرخى تهديداته، وكلامه، وبدأ

يحاول أن يتفق مع أخيه على أمور عامة، آخرها أن يجد له عنوانا كبيرا في مجلس الوزراء تحت مسمى (مستشار).

* * *

لم يكن شهر رمضان لينتهي كعادته، إلا وقد اختلفت الطائفة الواحدة ومقلدوها في يوم العيد، قبل أو بعد اليوم الأخير، كما أختلف أصحاب الدين الواحد في ذلك، بعضهم، يعتقد، أن شهر رمضان (شهر) كما جاء في النص القرآني الصريح، بعضهم يعتمد على رؤية الهلال، وهكذا تعددت الأسباب والأعياد مختلفة.

تعاقد حسون في مجلس الوزراء، كمستشار، أسوة بالآلاف المؤلفة، التي احتكرت هذا العنوان، وكلهم إذا لم أستثنِ أحداً، وقد امتلك الجنسيتين، وكان هذا المنصب بمثابة مكافأة لهم، لأنهم قارعوا النظام، بأنهم لم يستكينوا، ويبقوا في العراق، على العكس من بقى، بغض النظر عن ظرفه، فهو إن لم يكن متعاونا، فهو مهاود له، هكذا كانت نظرة أغلب من كان بالمنطقة الخضراء.

التقى بأحدهم وكان قد تعرف عليه في المحافظة عن طريق مجموعة من الأصدقاء، والمفاجأة الكبرى، ان هذا الشخص (فائز) كان لا دينيا، ومع ذلك فهو يعيش في وسطهم، وهو مقرب لهم بشكل ملفت للانتباه، أصبحا يذهبان، ويجيئان من والى بغداد معاً، ومن خلال رحلاتهم المستمرة عرف حسون أغلب تفاصيل حياة فائز العائلية، والعملية، لكن أهم ما أراد إن يعرفه هو في كيفية حصوله على عمله في هذا المكان، خاصة وقد شاع مفهوم (المخبر السري) في البلاد، وخاف أن يقع فيما لا يحمد عقباه، وأستطاع أن يلملم تاريخ فائز ليقصه علينا بالآتي:

فائز هو من العوائل المهاجرة أبان سبعينيات القرن الماضي للمحافظة، التي استقرت في أحد الأحياء المتوسطة، استطاع أن يتغلغل في أوساط المجتمع بالعموم تحت عنوان مثقف وباحث في أصول الدين، وبالخصوص أصحاب المكتبات ورجال الدين.

تزوج رغماً عنه، من بنت عمه التي لم يستمر الزواج معها لأكثر من سنة، فطلقها، بعد أن أنجبت له فتاة، أخذها أهله بعهدتهم. اشتغل في عدة مهن، منها بيع وشراء الكتب من والى بغداد، واستطاع أن يكوِّنَ له قاعدة من المعارف والأصدقاء لا تضاهى. في الوقت نفسه استطاع ان يحفظ كما هائلا من عناوين الكتب القديمة والحديثة، مثلما، استطاع أن يقرأ البعض منها، ولما كانت كتب الدين ممنوعة، كانت تجارتها رائجة.

التقى ببعض ممن كان لهم قراءات مغايرة عن الآخرين، وبالخصوص في قراءة التاريخ والتراث من جديد، إضافة الى كتب (طه باقر) و(احمد سوسه)، اللذين اهتما بآثار العراق، ولما اطلع على ذلك الإرث الكبير، بدأت تتشكل لديه، والآخرين رؤىً مختلفة وأسئلة محيرة.

هكذا بدؤوا يجتمعون في المقاهي التي غدت السبيل الوحيد للقاء، حتى تعرفا على شيخ في إحدى المدارس الدينية التي تركها بعد ان ملأه الشك فيما يدرس، عن الوجود، وبدء الخليقة، وبعض الأسئلة التي تثيرها الكتب المقدسة، وكذلك عن المذاهب السياسية وليست الدينية التي فرقت الإنسان إلى فرق في كل الأديان التوحيدية. وبدؤوا يقرؤون كتب مثل (تاريخ القرآن) و(السيرة الحلبية)، وكتب عن أساطير العرب قبل الإسلام، وكذلك كتب (سلامة موسى) و(طه حسين) وآخرين.

حتى تبين لهم الخلط الكبير الذي كُتب فيه التاريخ بما يوازي سلطة

الحاكم، ورجال الدين في الأزمان الغابرة، ولكنهم أصبحوا ثلة منبوذة لا يستسيغ حديثَهم أيُّ شخص، في وقت كان أصحاب المذهب في أمس الحاجة إلى التكاتف، من أجل مقارعة النظام البعثي العلماني، وإقامة الشعائر والطقوس الدينية خاصتهم.

مثلما أصبح فائز يلتقي في مركز كربلاء القديمة، عند أحد محال بيع السبح والخواتم والأكفان لأحدهم، وكان هذا الأخير، وكيل أحد مراجع الدين، وكثيراً ما كان يأتي بالحقوق من النجف الأشرف، والعكس صحيح، ويقوم بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين، فهو محل ثقة بالنسبة للجميع وبشكل مطلق.

على الرغم من الظرف السياسي السيئ، إلا انه كان يدير أحد الجوامع في المنطقة، دون خوف من طغيان رجالات حزب البعث، ليس تحدياً لهم، وإنما إيماناً منه، أن الله ينقذه من عيونهم المبثوثة في كل مكان. بالمقابل لم يكن له شأن بالأمور السياسية، أو من يتداولها، وكثيراً ما كان ينصح من يقف عند محله، من الأصدقاء أن يناقشوا كل شيء إلا السياسة ووضعها الحالي.

لكن الأمر تغير، فقد أضحت الحكومة المعينة، تحتاج إلى رجالات دين، ومن يكون محل ثقة لهم، وكان كثيرا من أولئك الذين يشتغلون في المنطقة الخضراء من هذه المحافظة، يرجعون له في انتخاب أشخاص يراهم مناسبين، بل ومؤمنين بالدولة الجديدة.

هكذا العراق وعلى طول الزمن، يحتاج إلى رجال جدد يؤمنون به، لأن الساسة الجدد يخلعون العراق القديم ورجالاته، ليلبسوا عراقا جديدا برجال جدد. لكنه باستمرار كان يرفض حتى أن يقدم لهم

المساعدة، أو المشورة، وكانت رواسب ثورة العشرين تعتمل داخله، وربما رأى اندلاقهم على السلطة والمال، ومن ثم انهيار مبادئهم، وما كانوا يدعون من ظلم النظام السابق لهم، عادوا هم بأكثر منه، وبالخصوص عندما ظهرت فضائحهم من خلال الانترنيت الذي ساد العراق بعد هذا التاريخ، مثل صورة أحد الساسة وهو يقلد وزير الدفاع الأمريكي (رامسفلد) سيف (ذو الفقار)، أو أحد رجال الدين الكبار وهو يولم وليمة كبيرة فيها من كل أصناف الأكل لحاكم العراق (بول بريمر).

لكن المصادفة تخلق ما يعجز عن تخطيطه العقل، ففي أحدى المرات، وعلى غير موعد، كان فائز في محل بائع الأكفان، يتسامر معه في أمور الحياة، دخل عليهما رجل ذو عمامة بيضاء، له معرفة قديمة بصاحب المحل.

بعد الضيافة، طرح المعمم على صاحب المحل أمراً يطلب فيه المساعدة في الحصول على شباب يرومون العمل في المنطقة الخضراء، وبراتب ومواصفات خاصة، بعد أن قدم مقدمة طويلة عن المذهب، وانه لابد أن يتصدى رجاله للحكومة، وان لا يتركوا بعد اليوم مصيرهم بيد الآخرين لأي ظرف كان.

على الرغم أن فائز لم يكن يطق صبرا الاستماع للآخرين كعادته، ولكن في هذا اللقاء وكأن إلهاما نزل عليه، ألهمه الصبر في الاستماع، ولما أتم الشيخ كلامه، تعذره صاحب المحل، بعد أن أنَّبه بشكل مباشر ومن يشبهه بالزي والأفكار، بأنهم طُلاّب دنيا، على العكس ما كان يدعون من أنهم طلاّب آخرة، ولكن النظام البائد كان يلاحقهم دون مبرر، وقد أثبتت الأيام أنه كان يلاحقهم للأسباب التي اتضحت بعد

السقوط، وليس آخرها السلطة، والمال، والنهب، والسلب، والمناصب، واللعب بمقدرات الناس وأرزاقهم... الخ.

من ثم أشار إلى فائز مادحا وواصفاً إياه بأنه من مثقفي المحافظة، وله دراية بأغلب الأمور، لكنه ليس متضررا سياسيا ولا إنسانيا، ولم يكن سجينا سياسيا، أو هو من ذوي الشهداء أو من أي صفات التي نعتم بها مقربيكم، فهو لم يغادر العراق، ولم يقارع النظام، وله في أن يختار أن يذهب معكم، أو يجانبكم المسيرة.

قبل أن يغادر المعمم المحل مع فائز، لم يكن له أن يسكت على هذا الكلام القاسي، وكعادته في عدم المواجهة، وبعد إعطائه العذر، ضرب له مثلا شعبيا موروثا حفظه من احد رجال الدين المحدثين قال: لا تلعنوا هارون بل أعرضوا على أنفسكم الدنيا التي عُرضت على هارون، فان قبلتموها، فالعنوا أنفسكم أولاً.

كانت فرصة ذهبية لفائز، بعد أن وصل دوره في الكلام، والتعبير عن نفسه، فلفائز قدرة غير عادية على الإقناع، ولبس الأقنعة التي تصلح لكل زمان ومكان، فهو في الوقت الذي استطاع أن يحافظ على المسافة من الاعتدال مع رجال الدين على الرغم من أنه يخالفهم بالعقيدة والمنطق والفلسفة، استطاع أن يحافظ على مثل هذه المسافة مع رجال الدولة السابقة، وهو يختلف معهم في كل تفاصيل حزبهم القمعي الفاشستي الدموي... الخ.

طلب فائز من المعمم تفاصيل العمل الذي يريد الآخرون الانتساب إليه، فما كان من المعمم إلا أن أفضى له، وقد رسم له حياة نرجسية، فيها من الهيبة، والأموال، والسلطة، وبأن عنوانه تحت عنوان منتسب

لرئاسة الوزراء، وهذا العنوان بحد ذاته يحميه من كل القوات الأمنية التي أصبحت في كل تفاصيل الشعب العراقي، تتدخل دون وازع، فهي شرطي المرور، وشرطي الداخلية، تطلق سراح من تشاء مثلما تسجن من تشاء، هي قوات مكافحة الشغب، وهي قوات مكافحة الإرهاب، وهي قوات حفظ الأمن، تفتش من تشاء، وتحسس على أجساد من تشاء، هي قوات أنزلت رئاسة الوزراء بها سلطانا، فهي دون الخالق وفوق إرادة المخلوق، تطبق القانون على من تشاء وتعفو عمن تشاء. تلك قوات لا يعلم تأويل عملها إلا رئاسة الوزراء والراسخون في المنطقة الخضراء. ولكن فائز لم يكن ليعطي نفسه بالسهل، فأراد أن يضعه في منطقة حرجة، فسأله وكأنه يلبس لباس سقراط بالحديث:

ـ ولكن ما حال الإرهابيين الذين عاثوا بالأرض فسادا، والقصف المستمر على المنطقة الخضراء، التي حسبتموها محصنة، وصواريخ الإرهابيين تطالها، بل وكيف يتسنى لك العبور من (مثلث الموت) الذي قهر الأمريكان المحتلين، قبل أن يقهر القوات الأمنية العراقية بكل هوياتهم الأمنية السرية والعلنية.

ما كان من المعمم، وقد تصور أن هذا الشاب العاطل عن العمل سيوافق على كل الإغراءات، واستفزاز الذات إلعراقية الغائرة التي تحب السلطة، والتسلط على الآخرين حتى لو كان بعنوان حارس في مدرسة نائية، حتى يتصور نفسه، وكأنه حامي الحمى، ولولا وجوده، لنهبت المدرسة، ومن بعده لفشلت العملية التربوية بالعموم. فرد عليه بالقول:

ـ عزيزي أستاذ فائز، الأعمار بيد الله، وأنا أعلم أن من يلتقون عند صديقي بائع الأكفان رجال مؤمنون، ومن المؤكد أنت منهم، فلا

تنسى ما يذكره الله في كتابه الكريم ﴿قُلْ إن الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَانهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ وكذلك في مكان آخر يقول ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُمْ الْمَوْت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوج مُشَيَّدَة﴾. كل تلك دلائل قرآنية، تقول إن أعمارنا بيد الله، وما عمل هؤلاء الإرهابيين، إلا خروج عن الدين والشريعة السمحاء، وهم في الحقيقة لا يقدمون في عمر الإنسان عندما يطلقون سراح طفل أو امرأة، ولا يؤخرون آخر، فالأعمار بيده.

ثم أتم حديثه بالقول:

- ولا تنسَ أن هناك راتبا مجزيا، وسفرات خارج البلد، وحصانة تمنع عنك كثيرا من التجاوزات، مثلما يصرف لك (كرين كارت) خاص يسمح لك بالدخول إلى المنطقة الخضراء، ويخصص لك سيارة وسائق، إن لم تكن تعرف السياقة، كما يمكنك تعيين أيٍّ من أقربائك وأصدقائك ومن تريد، وغيرها من الامتيازات الأخرى... الخ.

ومن ثم، زاد بإغرائه، في كونه يستطيع أن يقابل أيًا من الشخصيات البارزة والمهمة من الذين يراجعون رئاسة الوزراء، وسيصبح عنده علاقات ضخمة بكل الأجهزة الأمنية، التي تحكم البلد، الذي لم يحكم يوماً بلباس مدني، إلا وكان تحته لباس عسكري قاتم بلون الدم.

خاف فائز أن يطلب مهلة للتفكير، فتذهب الفرصة من يده، والتي يعتقدها أنها لا تأتي إلا مرة واحدة، مثلما، خاف إن وافق بسرعة يوافقه المعمم بالبداية، وينكث عهده فيما بعد، فأطال الحديث معه، عما يريدون من مستمسكات، ومدى المخاطر التي تحيط بهذا النوع من العمل، وكان يظهر له الموافقة ولكن مبطنة بالرفض، وكذلك يظهر له الرفض المتردد بالموافقة. فما كان من المعمم، إلا أن طلب من فائز أن

يلتقيا في اليوم الثاني ليتمّا حديثهما، وهي مسافة زمنية كافية، لفائز كي يتخذ مثل هذا القرار المحفوف بالخوف.

* * *

فيما بعد، عرف حسون من فائز، أنهم في عام (2005) حصلوا هو ومن كان معهم في مجلس رئاسة الوزراء على قطعة أرض في أرقى منطقة في بغداد من جهة الكرخ، بمساحة (400) م، وآخرون بأكثر من هذه المساحة، كل حسب تسلسله في المجلس. مثلما كان يتقاضى راتبا تقاعديا، لأنه كان عضو مجلس محافظة سابق، إضافة إلى راتبه في مجلس رئاسة الوزراء.

لكن طموحه الحقيقي هو أن يحصل على لجوء في أي من البلدان الأوربية، فالحياة مستحيلة في هذا البلد، الذي كان ومازال بين امتحانين، أما حروب داخلية، وأما خارجية. مع ذلك هو في السنة الأولى من دراسته للماجستير، بعد أن أتم دراسته للبكالوريوس في كلية التربية، نتيجة الفراغ الذي كان يتمتع فيه آنذاك.

كل تلك المميزات ألهبت شهية حسون للحاق بأقرانه، طلب النصح منه، في أن يدله على منافذ المشاريع، والمقاولات، لكن فائزا نَهَرَهُ، في كونه موظفا في أعلى التسلسل الإداري للحكومة، ولا يجوز له التكلم معه بكل هذه الصلافة، بل كيف يتصور أن كل من يعمل في هذا المكان فهو إن لم يكن لصاً، فهو مشروع لص.

افترقا، في العمل، وسكن حسون في الأماكن المخصصة للموظفين في أحد الأماكن داخل المنطقة الخضراء، وأضحى يذهب إلى زوجته وبيته في الشهر مرة واحدة.

لم يفق حسون من الردع الذي صده (فائز) وظل يبحث عن أي منفذ يدخله إلى عالم المشاريع والمال، حتى استطاع أن يحصل على مزايدة أمدها سنة واحدة، وهي رفع مخلفات المنطقة الخضراء، من إفرازات البيوت، والقصور، بعد أن علم من بعض العيون، أن قيمة (كاروبة/ساحبة) سيارة نقل نفايات من داخل المنطقة الخضراء إلى خارج حدود بلدية أمانة بغداد، مليونا دينار عراقي، والسبب أن أصحابها يتعرضون باستمرار، أما للقتل، أو التفجير، أو الاختطاف، من قبل الإرهابيين الجدد، ما جعل قيمة عملهم يبلغ مثل هذه المبالغ. لكن حسونا لم يكن ليبالي، مازال العراق فيه الكثير ممن يريدون العمل بموازاة الموت كما هو والآخرون من الذين يعملون في هذه المنطقة.

أصبح حسون مقاولا صغيرا، وسط آخرين، يحلم أن يصل إليهم، وبدأ يتطور، فبدلا من أن يستأجر سيارات لنقل النفايات، أشترى هو تلك السيارات وبدأ يضع عليها سائقين بأجرة معلومة، خاصة بعد أن عَلِمَ أن قمامته كان ينتظرها كثير من الفقراء في مكب النفايات لأنها متميزة وخاصة.

من ثم فتح له مكتبا في منطقة (شارع السعدون) يديره هو في الباطن، وفي الظاهر، أحد زبانيته، يسرب له بعض المناقصات ومشاريع الاستثمار الصغيرة، كتشجير الجزرات الوسطية، أو بناء المدارس القديمة... الخ.

في الواقع، كان عمله يتحدد في أخذ بعض (العطاءات) بأبخس الأسعار ومن ثم يبيعها لأصحاب المكاتب الهندسية، والمكاتب المختصة الأخرى مقابل أجر معلوم في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى، وعندما يجد أن العطاء فيه مجال للمفاوضة، يطلب أكثر من المعقول، وهكذا بدأ يُحمِّل تلك المشاريع أكثر من طاقتها.

بين الحين والآخر كان أخوه جبار يأتي للمنطقة الخضراء، أما للاجتماع مع أقرانه من المحافظات الأخرى، تحت رعاية الوزير المختص، وأما لأمور خاصة أخرى لا يجهر بها لأخيه، وكان حسون يستغل مثل هكذا مواقف ليبين للآخرين انه من عائلة سياسية عريقة في مقارعة النظام السابق.

دار بينهما حوار حول من يدير منظمة المجتمع المدني خاصته بعده، وقد فشل أخوه خالد في إدارتها، وسبب له كثيرا من المشاكل مع من كان يرتادها، ما اضطره إلى تحويلها إلى مكتب شخصي، يعقد فيها اجتماعاته الشخصية، والسرية بعض الأحيان، والعامة في أحيان أخرى، وبإدارة خالد أيضا.

لكنه أكتشف بعد حين، وقد حولها خالد إلى مكتب (سمسرة) من جديد، لاستقبال من يريد أن يتعين كمنتسب في وزارة الداخلية، أو الدفاع، مقابل مبالغ مالية، مثلما كان يتعهد بتخليص بعض ملفات الفاسدين من النزاهة، مقابل مبالغ باهظة. حتى طفحت رائحته، بعد أن جاء العديد منهم يشتكون عنده، عدم تعيينهم، ويطلبون إرجاع المبالغ المستحصلة من قبله، مثلما رفعت النزاهة شكوى عليه، فأحالته للتحقيق، ولم يستطع تسويه الأمور إلا بشق الأنفس، بعد أن كلفنه كثيرا من المبالغ والمراضاة، وإفرازها أن يقدم خالد استقالته من سلك الشرطة.

أكد حسون كلام أخيه، خاصة وإن خالدا في الأيام السابقة كان يتصل به من أجل تخليص بعض المواضيع في النزاهة، مثلما يؤثر على بعض الشخصيات فيها من أجل غض النظر عن بعض الشخصيات المعروفة وتسويتها، أو حرق ملفاتهم أو حجز بعض الدرجات الوظيفية في

وزارتي الداخلية والدفاع، وحجته في ذلك، أنه من طلب ذلك، وكنت أنا أنفذ تلك المطالب، وأبعث له بعض الدرجات الوظيفية.

مثلما كان حسون يستغل مجيء أخته صباح في بعض دورات حقوق الإنسان، والمرأة والطفل، ليظهر معها في وسائل الإعلام، وكذلك عند المختصين، والخاصين من الذين يقيمون اجتماعات ليست للإعلام، وإنما للتشاور ووضع الخطوط العريضة لسياسية البعض من أعضائهم في مجالس المحافظات. وقد شكت له أمر أخيها جبار وفساده المالي، في بيع صهاريج النفط وأنابيب الغاز إلى كثير من المقاولين، وتجار السوق السوداء، ما سبب أزمة حادة في المحافظة، وكثيرا ما كان يسرب لبعض الإعلاميات خاصته، عن أن الأزمة مفتعلة، وأن فلول النظام السابق هي من تبث تلك الدعايات الصفراء بين المواطنين، كما ويستغل صور بعض الصهاريج المقلوبة والمحروقة في الطريق المؤدي من بغداد إلى المحافظة، مستغلا ضعف الرقابة الحكومية، ناهيك عن وجود أزمة أصلا في الوقود، ولكنه يستغلها أبشع استغلال.

فعل معها مثلما فعل مع أخيه جبار، بعد أن كشف لها بعض أوراقه أمامها، وقد رتب له بعض اللقاءات السرية، والعلنية مع وزير النفط، وكذلك مع بعض المديرين العامين من الخط الأول في الوزارة من أجل تزويد المحافظة بكميات أكبر، في كون وضعها خاصا، حيث يرومها كثير من الزائرين في المناسبات، والأعياد، إضافة إلى زيادة نفوس المحافظة من المهاجرين الجدد، ولكنه في الحقيقة كان يستغل كل ذلك لمصلحته الشخصية.

استطاع حسون أن يكون له شبكة من العلاقات مع أشخاص على

مختلف المستويات، وفي مختلف الاختصاصات، سافر إلى دول عدة، من أجل دورات في الإدارة، وحصل على عدة شهادات، حتى أصبح له سيرة شخصية ضخمة، وعند رجوعه إلى العراق، كان يقيم دورات وورش لتعليم ما تعلمه هناك.

لم تعد أمواله تسعها المصارف العراقية، التي بدأت تثير علامات استفهام لدى البعض، مثلما خاف من بعض العيون التي تراقب كل شاردة وواردة، من أن تفتح له ملفا، خاصة والعراق في حربه الداخلية كانت ولازالت هي (حرب ملفات). ليس هذا بالمهم، لأنه أصبح في دائرة، يعرف أخبار وأسرار الآخرين كما يعرفون هم أسراره، ولكن الفرق في مفاتيح القوة وليس في ملفات الفساد.

آثر تهريب أغلب أمواله إلى بعض بنوك دول الجوار، مثلما حوَّل البعض منها إلى أسهم في البورصات من أجل تبييضها، وكذلك، اشترى كثيرا من الأملاك في الإمارات العربية والأردن ولبنان.

وفي أحد زياراته الشهرية إلى بيته، ومن ثم بيت أهله، التقى بأخيه خالد، ولكن على غير ما تركه، فقد كانت لقاءاته مع أهله قليلة، وكذلك مع أخوته، ولكن هذه المرة اتصل بهم تلفونياً، وجمعهم في بيت العائلة.

اجتمع به على انفراد، بعد أن أتموا وجبة العشاء، سأله عن وضعه الجديد، وفي نيته، أن يعزيه عما آل إليه وضعه، وبالخصوص التسوية التي أدت إلى تركه وظيفته، لكنه وجد وضعه على غير ما توقع.

كان في نيته، أن يستقدمه إلى العاصمة بغداد، ومن ثم يحوله إلى مقاول كبير، بعد أن تكشفت له أسرار المال والمشاريع، فهو لم يفكر

أبدا، في منصب سياسي، قدر تعلق الأمر بالكسب المالي، ونفوذه، وسطوته في كثير من دهاليز الوزارات، والدوائر، والشركات، وأي وكر أو فج يؤدي إلى المال.

لكن خالد قابل ذلك بكثير من الاحترام المبطن بالسخرية، لمشاعر أخيه الأكبر الذي يحمل همه، فهو يعرف مسبقاً ما يكن له، لأنه أصلا يعرف نفسيته المركبة على النفاق والمال، ليس هذا وحسب وإنما يطلب ثأراً من الدنيا، التي أذلته للنساء، شكره على مشاعره النبيلة والسامية، وأخبره انه يعمل الآن مقاول، ولكن مع الشرطة أيضاً.

تعرف خالد على شبكة كبيرة تعمل في مجال بناء وتجهيز كثير من مستلزمات مديرية الشرطة، فبعد انهيار أجهزة الدولة، أصر النظام الجديد، أن يبني أنظمة حديثة في وزارة الداخلية والدفاع، ويجهزها بكل ما هو متطور وحديث. ولكن على ما يبدو، ان هناك ثلة فاسدة، تشتغل في الظلام، كما الأرضة، أو الحشرات التي لا تعيش إلا في الأماكن القذرة، وقد استفحلت هذه الثلة حتى تحولت إلى عصابات، ضخمة لا يعرف القضاء عليها، حتى أجهزة المراقبة التي أنشأتها الحكومة، ومنها مديرية الشؤون ومكتب المفتش العام.

ابتدأ خالد العمل، أولا كمقاول ثانوي، للمقاول الكبير الذي يستحوذ على كل المقاولات التي تخرج من الجهة المصدرة لها، سواء أكانت (تندر) أو (مناقصة) أو (مزايدة) باختصار، هو الجهة الوحيدة التي عن طريقها يتم دخول وخروج كل المقاولات، وقد أستعد من قبل لهذا العمل، فحصل على هوية غرفة تجارة، واستأجر مخزنا ضخما مع مكتب في الحي الصناعي، مثلما استجلب حرفيين في عمل الحدادة،

لكنه وفي أحدى الجلسات الليلية، استطاع خالد أن يسجل للمقاول الكبير شريطا صوتيا، بعد حفلة فيها من النساء، والخمور ما يفقد العقل والتوازن، وهو من قبل قد خبر خبايا، وأسرار الشرطة، في إيقاع أحدهما بالآخر، أما عن طريق التسجيل صوتاً، أو صورة وصوت، ليكون دليلا دامغا يدين المقابل، ويستخدم كورقة ضغط عند الحاجة.

وصل إلى الشخص الرئيس الذي كان يتعامل مع المقاول الكبير، بعد توصية منه مباشرة، بعد أن طمأنه على أن الترتيبات معه، هي نفسها إن لم تزد، واستطاع أن يأخذ منه بعض المناقصات في تجهيز الملابس، وبالخصوص تلك التي لا يتجاوز مبلغها الخمسين مليون دينار، أما ما فوق هذا المبلغ، فكان يعلن في الصحف الرسمية، ومن ثم يعمل خالد ترتيبا ما بين وزارة الصناعة والمعادن، والشخص المسؤول، من أجل أن ترسو عليه. ولكنه في الحقيقة، يقدم ميزات غير التي أعلنت في الصحف الرسمية، وكل ذلك باتفاق مسبق ومبيت بين الطرفين، ليس هذا حسب، وإنما الجهة المسؤولة (لجنة الفحص والقبول) هي من غير أهل الاختصاص، وبالتالي فهي روتينية أكثر منها عملية.

تيقن حسون من رد أخيه خالد انه في وضع مالي يفوق ما تصور، وبالتالي هو ليس بحاجة له.

(5)

رمضان بلون العراق الجديد

قال الشيخ: إن جوهر الاختلاف بين العلماء يكمن في اجتهاد كل منهما، وإذ يختلفون فيما بينهم في دين الله، فليس هذا مدعاة لإبْطال أحدهما على حساب الآخر، وبالتالي أينما يظهر الهلال وتثبت الرؤيا، فهي بداية شهر رمضان ومثله نهايته. وبعد أن ناح وبكى وأبكى بعض من في المجلس، أثنى وبارك القائمين عليه ودعا لهم بالتوفيق والسداد، ثم نزل من على منبره، وجلس بالقرب من جبار وقد جاؤوا بالميكروفون إليه، في مكان تميز عن الآخرين بفرشه، والوسائد المحيطة به، إضافة إلى الحاشية التي تحيط به من الحمايات، والرعية، تنحنح قليلاً وثم بسمل وصلعم، وقال:

ـ انتم تعلمون إننا نمر بأقسى رمضان على مدار السنة الهجرية، في كون انه قد أتى في شهر تموز حتى آب، وتلك أقسى أشهر القيظ، مثلما تعلمون أن يوم العشرين من الشهر السادس هو أطول النهار فإن في يوم الحادي والعشرين من شهر آذار يتساوى الليل والنهار، ومثله اليوم نفسه من شهر أيلول. وأنا أطلب منكم التحمل وشد الأحزمة على البطون، في حالة تعثر الدولة في توزيع الوجبة الغذائية، وهي

ميزة العراق التي يتفرد بها عن أغلب دول العالم، مثلما أتمنى منكم تحمل الجو الحار، وانقطاع الكهرباء، فإن المؤمن مبتلى، وإيمانه على قدر ابتلائه، وسأخبركم بخبر ربما سمع به أغلبكم، إن درجة الحرارة باليابان بلغت (37) درجة، فتوفى البعض منهم ودخل ما يقارب (2000) شخص إلى المستشفيات، بينما عندنا بلغت درجة الحرارة فوق الـ(50) درجة دون أن يحصل أي شيء في المجتمع بل على العكس من ذلك، تعمل الناس وتشرب الشاي، وتمارس حياتها الطبيعية دون أي معوق، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن أرضنا مباركة، وأهلها هم من أنصار صاحب الزمان ومناصرون له.

وكان أغلب الجالسين بالمجلس والمحيطين به شخصياً، هم من يرومون التعيين في أيٍّ من دوائر الدولة التي أصبحت رواتبها أكثر من مقبولة، بعد أن فتحوا الحدود على مصراعيها، لدولتي الاحتلال القديمة، إضافة إلى التنين الأصفر، الذي غزا أسواق العالم المتطورة، فكيف بالعراق الذي لم يخرج بعد من الاحتلال الجديد، ولم تشفَ جراحه بعد من براثن الحصار الذي أنبتها في ظهره حتى أنزله تحت الأرض.

لم يكن أي من الجالسين ليبالوا بشرعية المكان الذي يجلسون فيه ويقيمون فيه صلواتهم ودعاءهم، وكلهم يعرف أن هذا المكان وقد ضمه جبار إلى بيته الجديد الذي اشتراه، بعد أن علم أن أصحابه قد هاجروا من العراق، في بداية السبعينات.

بعد أن أتم حديثه أمر من خلفه، بأخذ أضابير الذين اجتمعوا حوله، ومن ثم انفضت الجلسة، بعد أن أخذ كل المنصرفين سحورهم السفري، وقد أعد سابقاً، لم تكن الساعة تبلغ الثانية بعد منتصف الليل، حتى بدأ

(المسحراتية) بالنداء (سحور... سحور) وأصوات الطبول تتوالى، فلم يكن من جبار الذي لا تنقطع عن داره الكهرباء، وقد استرخى تواً وهو يتثاءب لينام، حتى أفزعه هذا الصوت، فما كان منه إلا أن خرج مذهولاً، وكأنه لم يسمع بنداء السحور من قبل، وربما اعتقد أن وضعه الآن أختلف عن قبل، ولما كان (المسحراتي) لا يفرق بين سياسي وعامة الناس، فيطرق طبله بنفس القوة والحماسة، وهذا ما لا يروق له، فأمر حمايته، بأن يلقنوه درساً، ويمنعوه من أن يمر من هنا بعد الليلة.

لم يكن أغلب الصائمين، ينام الليل لينتظر، صوت الطبل والمسحراتي، فهم بين متابع للمسلسلات العربية، على أغلب القنوات الفضائية، ان كان داخل البيت، ومنهم من يدخله بعد أن يتم لعبته الشعبية (المحبيس) ليأكل، ومن ثم ينام النهار بطوله، ولا يستيقظ حتى تنذر بوادر أذان المغرب بقليل.

في النهار، المدينة مهجورة وكأنها وقد أصابها مرض الطاعون، فهجع أهلها في البيوت خوفاً من العدوى، الشوارع مقفرة، والأزقة مهجورة، والوجوه مكفهرة، والسلام بين الأشخاص يتم بالإشارة إن خرجوا لضرورة قصوى، والدوائر الحكومية خفضت ساعات العمل فيها، بالرغم من أنهم لا يحتاجون هذا التخفيض من قبل، والسفر بين المدن والمحافظات محظور، لأن الواجبات لا تبيح المحظورات، فتؤجل الأعمال، وتوكل الأمور إلى بارئها، وما الضير في أن ينام المسلم كما نام أصحاب الكهف ليروا الآخرين برهان ربهم.

في العراق الجديد، يتوقف الزمن ويسقط من حسابات الحكومة ثلاثة أشهر، هم رمضان ومحرم وصفر، إضافة إلى المناسبات من الوفيات والولادات.

في رمضان يتحول أغلب الباعة المتجولين من مهنهم المعروفة إلى بائعي حلويات، في الوقت الذي يزيد أصحاب محال الحلويات المعروفة أسعارهم، ومثلهم أصحاب البقالة، في مضاعفة أسعارهم وبالخصوص التمر، وباقي الفاكهة الأخرى. كما تتحول جلسات البرلمان والحكومة إلى ما بعد الإفطار، فالساسة الكرام صائمون، إلا عن المشاريع والاستثمارات الصباحية.

* * *

لم يكن جبار بعد الذي وصل إليه يقتنع باستثمارات المحافظة، وسلطة النفط والغاز التي هو رئيسها، فكر مليا بأن يتحول إلى (البرلمان الموقر)، فهناك حيث العاصمة مركز القرار الاقتصادي والسياسي، ولربما صفقة واحدة تنقله إلى مصاف الملياردرية، أو من الممكن أن يصل إلى بعض المراكز السياسية المتقدمة في سدة الحكم، ويكون هو المشرع والمنفذ والمفتي، والنقطة الأساسية التي خاف أن يظهرها لمقربيه أن أقرباء رأس السلطة بدؤوا يزحفون نحو مجلس المحافظة، وقد تجهزوا بدعم رأس السلطة، ماليا ومعنويا، وسياسيا، وكل ما من شانه أن يدعمهم باتجاه الفوز، فقد جندت لهم العشائر، والمجالس التي تنطوي تحت لوائها، والتابعة في العلن إلى رأس السلطة، مثلما جند الحزب الذي يرأسه في التصويت لهم، والأهم من كل يافطات الإعلان والدعاية، هو التعيينات التي سعى لها الشباب العاطل عن العمل، مع افتتاح الكثير من المقار المؤقتة والصحف والجمعيات الخيرية، وغيرها من المنافذ التي تبيع الأحلام والأوهام لكل من يريد أن يتعلق بأمل حتى لو كان كاذبا.

كانت بعض سيارات الحمل تحمل أكياس المال التي يوزعها أحد أقرباء رأس السلطة من المرشحين في الأحياء الشعبية، وهي المكان الذي يراهن عليه أغلب المرشحين، والمنحدرين من القرى، والأرياف، فحكامنا هم من القرى، تلك المناطق التي حددتها (ميس بيل) منذ بداية القرن المنصرم، هكذا توالد على حكم العراق، رجال قرويون وإن ارتدوا لباس المدنية، واعتمروا قبعة وشربوا سيكار (الجرود).

ان النقطة التي راهن عليها جبار هو أنه أصبح يمثل الحزب الديني في محافظته، بعد أن استطاع أن يزيح من طريقه الرئيس السابق للحزب، وهو صاحب النضال الطويل مع رأس السلطة، وكان من الرعيل الأول الذي وضع أسس الحزب ومواده، وكانت هذه النقطة جوهرية في ترشح جبار لعضوية البرلمان، إضافة إلى مكانته الخاصة عند أهل السلطة في العاصمة، وهو في الوقت نفسه يُعد من عراقيٍّ الداخل، وهذا يساعد على تبييض وجه السلطة أمام وسائل الإعلام التي كثيرا ما أشارت إلى أن من يحكم العراق الجديد هم مغتربون ومن ساسة الخارج، في انه فهم اللعبة السياسية التي تقوم على التوافق الداخلي، والخارجي مع القوى المتنفذة والمؤثرة، أو المتحكمة بالقرار السياسي.

أما أخته صباح، فهي الأخرى أصرت على الترشح للبرلمان، وطلبت من أخيها جبار أن تخوض المعركة الانتخابية معه بالقائمة، وإلا ستترشح مع قوائم أخرى، وهي أيضا علمت اللعبة السياسية، وأصبح طموحها أن تعبر إلى حيث وزارة المرأة، أو حقوق الإنسان لتقترن بوزير أو دونه بقليل.

كانت هذه الدورة أكثر صراعا للترشح للبرلمان، وكان الدين هو الصفة المائزة للمرشحين، حتى أن بعض الأحزاب العلمانية طفقت

تتحالف مع بعض الأحزاب الدينية الناشئة من أجل الوصول إلى القبة المقدسة من كل دنس، بينما راحت الأحزاب الدينية العريقة في تأسيسها خارج العراق، والعارفة بكل دهاليز الساسة الأجانب، ومطابخ دول الجوار تعمل عملها في بث الدعاية الصفراء في أوساط الناس الفقراء، في انه من لا ينتخب القائمة المؤشرة من قبل المرجعية الرشيدة، تحرم عليه زوجته وهو يوم القيامة من الخاسرين، بينما ذهبت دعاية أخرى الى بث الطائفية والفرقة بين أبناء المجتمع الواحد، في أن نظام البعث المقبور عائد من جديد، ويجب أن يحشدوا آراءهم اتجاه رجالاتهم المرشحين من قبل الحوزة التي تمثل أمر الله في الأرض.

بينما عمدت بعض التيارات الدينية، إلى تشويه المرشحين العلمانيين، من خلال نشر ملصقات مناصِفةً بين وجوههم وصدام حسين، وأكيد أن مثل هذه الصور تثير الرعب في قلوب الناخبين البسطاء.

كانت الجوامع، والحسينيات تستصرخ الناس في اختيار قائمة معينة، ولكن دون (ميكروفونات) وإنما عن طريق الاجتماعات العلنية داخلها، وفي المقابل كانت التيارات الدينية الأخرى تعمل على تثقيف ناخبيها باتجاه مرشح بعينه، وهكذا انقسم العراق إلى مجاميع متناحرة، مثلما انقسمت المحافظات إلى مجموعات متقاسمة، والخاسر الوحيد هو تفتيت العراق إلى مجاميع متناحرة، يا ترى هل هي هذه الديمقراطية الجديدة؟! ديمقراطية الترويج بالصور والإعلان !، ديمقراطية النهب والسلب والسرقة ! ديمقراطية فوضى الإعلام، والكاتم، والانفجارات، والعبوات الناسفة، واللاصقة، وكل ما من شانه قتل الحرث والضرع، قتل الحلم والشباب والأمل.

اتصل جبار بالقيادات العليا لحزبه يستشيرهم بشأن أخته، وانه بذل جهدا كبيرا في إقناعها لتخوض الانتخابات في قائمتهم، لما لها من قاعدة شعبية في مديرية التربية، وحقوق المرأة، والطفل، والمنظمات الإنسانية الأخرى، وانه إن لم تفز بـ(الكوتة) فإنهم سيحصدون أصواتها، كانت الموافقة قد تمت بعد الشرح الواسع الذي قدمه لهم، وقد راهن على فوزها، وفي المقابل، فانه اتصل بأخته، وأخبرها بقبول الجهات العليا من التي تتحكم بنتائج الانتخابات قبولهم ترشيحها في قائمتهم بعد الجهد الكبير الذي بذله في إقناعهم بذلك.

بلغ عدد المرشحين ما يزيد عن الثلاثمائة بقليل من أجل شغل احد عشر مقعداً، توزعوا على أكثر من كيان سياسي، أو كتلة، أو حزب، كان عدد النساء فيها خمسا وثمانين، وباقي المرشحين هم من السياسيين المحنكين، حصل جبار على الرقم (1) كمرشح عن قائمة الحكومة، مثلما حصلت أخته على الرقم (4) من القائمة نفسها، لم يكن هناك قانون يمنع ترشح الموظف الحكومي بشرط الاستقالة، بل من حقه أن يمارس حقه كمرشح مع احتفاظه بمنصبه، وبذلك تكون الناس بين فكي كماشة، إن فاز المرشح، فإن من رشحه من الناس لم يروا بعد إعلان النتائج وجهه، فسرعان ما ينقل سكنه إلى بغداد أما مع زوجته القديمة وأولاده، وهذا قد يحصل، وأما يقترن بزوجة جديدة تليق بالمنصب الجديد، وإن لم يفز فتلك الطامة الكبرى التي سيعانيها الناس من هذا الموظف الكبير الذي لم يفز بالانتخابات، وبالتالي سيخلق المبررات لإيذائهم في معاملاتهم، ويضع العراقيل من أجل تعطيل مصالحهم، فقد أظهروا العداء له، وليس له إلا أن يظهر العداء لهم.

لكن جبارًا وأخته أظهرا مصداقيتهما من خلال المجالس الرمضانية السابقة، مثلما أظهر كل منهما جهده في التعيين، وإنصاف الآخرين، مثلما عمد كل منهما، وبطريقته الخاصة إلى إظهار مثالب الآخرين في شرائهم الذمم من خلال توزيع المال الحرام، أو بالدعاية الترويجية الفاضحة من أجل وصولهم إلى المناصب السياسية التي تُعضد سلطان الدكتاتورية، وقد جاءته بعض الاتصالات من بغداد تحذره من الكلام الذي يقوله في مجالسه الخاصة والعامة والاحتفالات التي يقيمها للناخبين خاصته، لكنه كان يردعهم بحزم، لا أخلاق في الانتخابات وهي ساحة حرب ولكل محارب أجندته كي يصل إلى برِّ الأموال، وما المرشحون إلا مجموعة من المغفلين ليس همهم سوى إحساسهم أنهم مهمون للبعض، أن تدغدغ مشاعرهم ببعض الشعارات الدينية الطائفية مخلوطة بوعود طوباوية، مع خلفية سياسية، وشراء ذمم بعض المؤثرين من رؤساء العشائر، وبعض الأعيان الجدد، وهذا لا يخفي الخوف الظاهر على جميع المرشحين بمن فيهم أقرباء رأس السلطة، لذلك تجدهم في الشهر الممنوح للدعاية لا يتركون شيئا دون أن يكون لهم فيه إصبع، أو أذن تسمع ما يدور، ليس آخرها الملاعب الشعبية التي تفرغ الشباب الجامحة طاقاتها، أو تقتل وقتا لا مكان له سوى الساحات الرملية، وبعض المساحات الفارغة.

مثلما اجتهدت صباح في اجتماعاتها المستمرة مع بعض الثكالى، والأرامل، والعوانس والخريجات، حتى أصبح بيتها مكانا (تحج) له النساء، وكانت هي قد استعدت لمثل هذا اليوم، حتى فتحت غرفتين من بيتها الجديد لتكون بمثابة قاعة للاحتفال، واللقاء بالناخبات، مع

بعض الهدايا وهي عبارة عن قطعة قماش لعباءة فاخرة، وأحيانا أخرى مصحوبة بظرف مالي لمن هي أكثر تأثيرا، كأن تكون مديرة مدرسة، أو ناشطة في مجالها، أهملت أمها، وفي الخصوص عندما أعلنت المفوضية بدء الحملة الانتخابية، فبينما هي تزدهر وتنشط كانت أمها تذبل وتنحدر، فقد بانت النعمة عليها، حتى إن إحساسها في كونها محط اهتمام الآخرين كان يعطيها شيئا من القوة، وأصبحت تعتني بملبسها المستوردة، أضحت سيدة مكتنزة الجسد صدرها ناهض ويغري بحمالاته، ولكونها مطلقة فكانت مطمعا للكثير من أقرانها في مجلس المحافظة، وحتى عندما رشحت نفسها للبرلمان كانت كذلك، يطلب ودها البعض ويتملقها البعض الآخر حتى شابت علاقتها بعض الشائعات، عندما كانت تقضي ساعات متأخرة في المجلس مع رئيسه أو بعض أعضائه.

عاد جبار للعرافة مرَّة أخرى، لتكشف طالعه، وهو طيلة الفترة السابقة كان يقدم لها خدماته، ليس آخرها أن كتب لها قطعة أرض باسمها في مكان مميز، كونها متضررة من النظام السابق، وكذلك مكنها من أن تحج بيت الله الحرام.

كانت هذه المرَّة الجلسة خاصة، استمرت لأكثر من ساعة، أطلعته على أخبار من استكشفوا عن طالعهم من المرشحين، وأغلبهم من أقرباء رأس السلطة، سألني بعضهم عليك فأخبرته:

ـ إن نجمك صاعد... وستكتسح في الانتخابات.

ثم أعطته خرزة، وطلبت منه أن يلبسها في كتفه، ثم يذهب إلى الأحياء الشعبية، عندها ستعمل الخرزة عملها، وستتهافت عليك القوائم

من أجل الائتلاف، على الرغم من مثل هذا الأمر ليس بيده، وإنما بيد رئيس القائمة المرشح على العاصمة، وكان له ما أخبرته العرافة بشأنه، وصلت أخباره الى القيادات العليا في بغداد، وعن السرادق التي يحتشد فيها أنصاره وناخبوه، طلبوا منه أن يعمل دعاية للقائمة ككل، لكنه رفض ذلك، وأصر على ان تكون دعايته خاصة به وأخته، كان يعلم بسره وربما استند في ذلك على العرافة من انه صاعد للبرلمان، وفي الوقت نفسه، هو يعرف اللعبة السياسية جيدا، لاحتمالاتها المفتوحة على كل شيء، فخلفية القائمة ورئيسها مرتكزة على الفساد ولكن ما يغطي عفونتها ميزانية العراق الانفجارية، وأما السبب الثاني، فقد كان يعلم أن بعد صعوده للبرلمان احتمال أن ينفصل عن القائمة، وينتمي لقائمة أخرى تلبي طلباته، وربما يؤسس قائمة جديدة هو يرأسها.

جاءه اتصال أربكه ثم بدأت تتوالى عليه الاتصالات من أكثر من طرف من أهله، عندها انطلق موكبه مسرعا بعد أن اعتذر من ناخبيه، عن أمر عاجل حدث لعائلته، فكر في نفسه وحمد الله على ما أحسن توقيته (يجب أن يقيم عزاء مختلفا، وان يجزر فيها جزورا يملأ بطون ناخبيه ويزيد)، أعلنت وفاة أمه في المستشفى، ولم يكن معها ساعتها إلا زوجها الكبير في السن، فالعائلة متبعثرة بين مصالحها، والانتخابات، وبيتها مهجور إلا من زوجها وبعض الحيوانات الأليفة.

نصب جبار السرادق أمام بيته، وفي أغلب الأحياء الفقيرة، وجزر فيها الأغنام، حتى أن البعض تهكم عليه بالقول: سيحدث خلل في الثروة الحيوانية، بينما قال آخر: مصائب قوم عند قوم فوائد، فلنشبع بطوننا هذه الأيام الثلاثة، وليشبع بطنه هو طيلة السنوات الأربع، وقال آخر:

يا ليت تموت أمهات المرشحين، حتى تشبع الفقراء، بدأ شيوخ العشائر يتقادمون من أجل تقديم العزاء، والولاء لمرشحهم، وقد أفرط جبار في استقبالهم وتحيتهم، حتى انه استقدم أكثر من عشرة أشخاص يقدمون القهوة الخاصة للشيوخ ومن تبعهم، مثلما اشترى أكثر من خمسين رأس غنم (باجة) والتي سيقدمها أمام كل شيخ، تحية إكبار وتمييزا له، كانت هذه الحالة تتكرر كل يوم من أيام العزاء الثلاثة.

على العكس منه كانت أخته صباح، فقد ألمتها وفاة أمها فعلا، لما كانت تمثله من سند ودعامة لها في ظروفها السابقة، وتمنت أن تؤجل موتها قليلا، كي تسفرها الى أوربا لتنفخ فيها الروح رغما عنها، ولكنها وللأسف كانت مشغولة في حملتها الدعائية، ولم تعر أهمية لأمها، حتى صعد عليها مرض (الغنغرين) لينتشر بجسمها ويقتلها، لقد انشغلت عنها فترة أكثر من شهرين، هي فترة التفاوض مع الأحزاب حتى استقامت مع أخيها في قائمة، ومن ثم رتبوا عملية نزول الدعاية الانتخابية وغيرها من مشاغل الترشيح.

تقاطرت المعزيات وكل معها نائحة، وبالخصوص من اللاتي يشغلن مناصب مهمة في الحكومة ويأملن من وراء صعودها أن يرتقين إلى مناصب عليا في الحكومة الجديدة، وبالخصوص وزارة المرأة، أو التربية، أو حقوق الإنسان، أو أي منصب في أي وزارة. على الرغم من أن صباح كانت تعرف اللعبة، وان أغلب المعزيات جئن من أجل مصالحهن، لكنها مسكت نفسها، وراحت تتقبل العزاء، والحزن يسود قلبها قبل أن يملأ وجهها.

* * *

كان مرشحو الانتفاضة يعتقدون أنهم يفوزون بأكثر من مقعد، وعلى الرغم من أنهم يراهنون على دماء سالت تحت الأرض وربما اختنقت دون أن يسمع أنينها أحد مع لعب الأطفال، ومحفظات العجائز. كما كانوا يراهنون على ظلم النظام البعثي، وما خلفه الإرهاب الذي تمثل بالقاعدة ومن ثم الزرقاوي وما سيتبعه، إلا أن ما غفلوا عنه هو أن الناس لم تعد تفكر فيما مضى، بل تفكر فيمن يحقق لها مصالحها الآنية، والمستقبلية، كنت أسمع حديث أحدهم من على حافة رصيف هو امتداد لمقهىً نجلس فيها مع بعض الأصدقاء، وهو وإن تأخر بدعايته الترويجية في تعليق صوره، بسبب أن أحد مرشحي الكيانات الأخرى قد رفع اسم الانتفاضة الشعبانية شعارا له، لكنه كان يعتقد جازما انه من الفائزين، والى البرلمان من الواصلين، والى الفساد من المتحدين، ونحو الحكومة عاملين، كثيرا ما كان يسجع في حديثه فيطرب مستمعيه.

كانت الجدران ملونة باللافتات الإعلانية، حتى أن بعض الأعمدة التي تحمل شرفات الشقق أضحت نتنة من الملصقات التي مرت عليها أكثر من انتخابات، وبقيت صورا مشوهةً تحكي قصة مرشح لم يفز، ولكن كان له شرف المنافسة في جولة غير شريفة.

لم يكن لمرشحي الانتفاضة أي برنامج انتخابي أسوة بأغلب الأحزاب والكتل والائتلافات، مثلما لم تكن على صيغة واضحة من نفسها والآخرين، فهي ليست إسلامية متطرفة ولا منفتحة، لم تكن علمانية ولا ليبرالية، ما أعرفه وأسمعه من بعض المرشحين أن غايتهم الرئيسة هو رفع الظلم عن الانتفاضيين وأبنائهم الذين أصابهم حزب البعث في مقتل، وكثيرا ما ضحكت في سري منهم، ربما هم لم يسمعوا

بعام الاحتلال، وما بعده مثلما لم يسمعوا بالمؤسسات التي أفرزتها الحكومة واقتاتت على دمائها، يبدو أنهم لا يملكون غير هذا الاسم، اسم الانتفاضة الشعبانية، ليستعطفوا به الناس كي ينتخبوهم.

أغلب الناس كانوا يميلون إلى مرشح الحكومة، أو العامل في الحكومة، كي يشترطوا عليه أن يبلط شارع أو يزودهم بشبكة كهرباء، أو يؤسس لهم شبكة ماء ومجاري، بعض الناخبين في القرى والأرياف كانوا يشترطون بناء مستوصف، أو مدرسة، ولم يدر في خلدهم أن ينتقموا من النظام السابق الذي أحدث (هولوكوست 1991)، إنها فرصتهم الوحيدة والفريدة، وبمجرد أن ينتهي شهر الدعاية الترويجية، عندها ينسى الفائز أن هناك أناسا اتفق معهم على تنفيذ طلباتهم التي هي احتياجات طبيعية لكل شعوب العالم، ولذلك بقيت الدعاية الترويجية لمرشحي الانتفاضة الشعبانية في حدود المدينة القديمة للمحافظة.

مثلما لم يدر في خلد مرشحي الانتفاضة عدم الفوز بأي مقعد برلماني، لأنهم بمثابة الأنصار، وظيفتهم الحقيقية أنهم كانوا الحاضنة، ووقود الذريعة التي تحجج بها المهاجرون عند أصحاب القرار، أما الحكم فلن ولم يكن لهم، فإذا كان الأنصار في بداية الإسلام قد رضوا على مضض بالرسول أن يذهب معهم في معركة (حنين) بينما ذهبت قريش بالغنائم كلها، فإنهم هم من تحملوا رهبة حرب الأحزاب، وعندهم تأسست الدولة الإسلامية ولكن بحكومة قرشية، هكذا كان العراق بمثابة المدينة التي هاجر إليها المهاجرون من كل بقاع العالم ولكن بعد سقوط الصنم في ساحة الفردوس وهم مرغمون أن يبقوا أنصارهم، أما المهاجرون فمنهم الحاكم والحكومة، الوزير والوزارة، المدير والإدارة.

بعض الأحزاب العلمانية من التي لها قاعدة عريضة في العاصمة، كانت تنشر صورها الترويجية على استحياء في مركز المدينة القديمة، وبعض أحيائها الشعبية، فالجو ملبد بالدين ورجال الدين، وممكن وببساطة أن يلتفوا عليهم، ويحرقوا صورهم، بدعاية بسيطة إنهم من أتباع النظام السابق، أو إنهم ضد الحكومة ذات اللون الواحد، أو إنهم ليسوا دينيين، أما تماسيح أحزاب الحكومة، وقطط الأحزاب الدينية الصفراء فكانت لها حصة الأسد في ترويج دعايتهم الانتخابية في أي مكان وزمان.

لم يكن حسون ليفوت مثل هذه الفرصة الذهبية للقوائم الكبيرة الحاكمة في المنطقة الخضراء، وتعهد أكثر من حزب ديني كبير، أن ينشر لهم دعايتهم الانتخابية في كل مكان تقع عليه عين الناظر، مثلما اتفق مع بعض المطابع على أن تعمل صور المرشحين، وهكذا أصبح حوت دعاية، ومثله أخوه خالد في المحافظة، فقد تعهد دعاية جبار وصباح، وبعض الأحزاب الحاكمة، حتى تناثر في الصحف أن قيمة ما صرف من حديد في الدعاية الترويجية ما يكفي لبناء مجمعين سكنيين.

أحد مرشحي الحكومة، لم يكتف بأن زرع في كل حي يفتقر للخدمات مكتب دعاية وترويج، تحت عنوان مؤسسة خيرية توزع الأحلام المغمسة بالوعود الكاذبة من تمليك المتجاوز على أملاك الدولة، إلى توزيع سندات طابو ليس لها أصل في سجلات البلدية، إلى توزيع الأموال، بل راح يعقد مهرجانات مختلفة يكرم فيها الإعلاميين الكبار والفنانين من الذين ركنوا في مقاهي المدينة، أو استكانوا في زاوية جامع، أو حسينية ينتظر الساعة التي يعلن فيها رحيله، ليس

آخرها مهرجان (للسينما والتلفزيون) دورة (شفيق شفيق) في أحد الأحياء المتوسطة، عرض فيها بعض الأفلام القصيرة، وسمح للحضور بالتصفيق المحظور، مكان الصلاة على محمد وآل محمد، تخللها بعض الكلمات له وأعوانه ومساعديه ومن كانت الدورة باسمه، بينما كانت الحاشية توزع ما لذ وطاب من العصائر، والبسكويت على من احتشد في القاعة على اعتبار أنهم محل اهتمام المرشح البرلماني، وأغلبهم كان يبحث عن تعيين، أو نقل من دائرته، أو أغراض شخصية أخرى.

كان الرهان الحقيقي لكل المرشحين هم شيوخ العشائر، في المدينة، والقرى، والأرياف، لاعتقادهم أنهم أكثر تأثيرا على أبناء عمومتهم لتداخل مصالحهم، لكن هؤلاء الشيوخ فطنوا اللعبة، وراح يرشح نفسه أو من يعتقده أكثر جدارة وشعبية وشهادة من عشيرته، وهذا ما أفرز الكثير من الإشكالات بين العشيرة الواحدة، أو المنطقة الواحدة، هكذا هي الديمقراطية الجديدة في العراق ومثلها كل ما ينتجه الغرب نسيء استعماله.

لازلت أتذكر جيدا القول المأثور للزعيم الراحل (كبر الشنكة، وزغر الصورة)، وحكاية هذا القول المأثور، عندما زار عبد الكريم قاسم أحد أفران الخبز الشعبية، ووجد في أعلى الفرن صورته بحجم كبير، مقابل قطعة عجين صغيرة، فقالها حتى انتشرت بين الناس، وأصبحت شعارا لتأسيس مبدأ العدالة، فالخبز هو وقود الشعب، وأديم الأوطان، الخبز هو الغاية الأولى وبعدها يأتي كل شيء، بالخبز يحيا الإنسان وبعده كل الأشياء تأتي بالتراتب، لا مساومة أو مقارنة على الخبز، وصدق القائل عجبت لشخص جائع ولم يخرج للناس شاهرا سيفه، الأول أن توفر ما يديم بقاءك، وبعدها تأتي القيمة الإنسانية.

لكن الانتخابات التي أعقبت الغزو، كانت تعتمد على الصور الترويجية الكبيرة، وربما أغلبهم لا يعرف من هي عاصمة أمريكا التي جعلت حياة العراقيين جحيما، أو ربما إذا سألته عن الطوارق أو متى تأسست المملكة العراقية لتفاجأ بالقول وهل كان العراق مملكة قبل اليوم، هكذا كان أغلب المرشحين، هدفهم الوحيد، والرئيس أن يصل إلى قبة البرلمان من أجل الاستحواذ على المناصب، والامتيازات، والاستثمارات، وكل ما يكبر كروشهم، ويزيد أرصدتهم.

* * *

مضى أكثر من خمسة عشر يوما على الدعاية الترويجية للانتخابات البرلمانية، وقد عاثت الأمطار النيسانية مع بعض العواصف الترابية بأغلب الصور، بين من وقعت على الأرض وتمزقت، أو تشوهت، وكانت بحق حفلة تجميلية للكثير من الأسماء هم بين عمليات تجميلية فوتوشوبية، مثلما كان البعض منهم يخفي اسم أبيه أو جده الفاضح، واستعاض عنه أما باسمه واللقب، أو باسمه والعشيرة، وفي الوقت نفسه هدأت نفوس المرشحين، بعد أن فقدوا بريقهم، وقد وجدوا صورهم حتى على صناديق القمامة والبنايات المهدمة وأظهر الدراجات النارية ذات العجلات الثلاثة.

مثلما كان الناخبون بين مؤيد، ومعارض، وممتنع، ومتردد، وكانت الحوارات بينهم في المقاهي، والبيوت، والشوارع، وسيارات الأجرة العامة، فهي حديث الناس ووكالات الأنباء، والصحف العراقية، والخارجية، والمنابر الدينية، والحوزات العلمية، لكن الشيء المتفق عليه بين الجميع أن هناك عزوفا كبيرا عن المشاركة في الانتخابات،

وخاصة بعد أن اتضح من خلال البطاقة الإلكترونية أن لا أحد يريد أن يذهب للمركز الانتخابي لاستلامها، باستثناء المتحزبين، والمستفيدين، والوصوليين، فما كان من بعض الأجهزة الصفراء إلا أن بثت دعاية مفادها، أنها البطاقة الإلكترونية الانتخابية، ستكون مضافة إلى الوثائق الأربعة التي يطالب بها المواطن في مراجعته لأي دائرة، ولما كان وقع هذه الدعاية ليس بكبير، والسبب انتشار الفساد الأخلاقي، والمالي، والوظيفي في دوائر الدولة بالعموم، أعادت تلك الدوائر نشاطها وبثت دعاية أخرى في أن أي موظف لم يستلم بطاقته الانتخابية سيحرم من الراتب، بل وثبتوا ذلك من خلال بعض القوائم التي وزعت على الموظفين كطلب معلومات وفيها رقم البطاقة الانتخابية، ما زاد خوف الموظفين من أن يحرموا من وظائفهم، حتى هرعوا إلى المراكز الانتخابية لاستلام بطاقاتهم، فالأهم في هذه العملية ليس حث الناخب على المنتخب، وإنما لتبيان الأمر لمنظمات خارج الحدود العراقية انه تم توزيع البطاقات وان الشعب مؤمن بالعملية الديمقراطية، ودليلهم أن نسبة المستلمين لتلك البطاقات فاق ثلاثة أرباع العدد، ولا يهم بعد ذلك أشارك من استلم بطاقته أم لم يشارك.

أعاد البعض تجديد دعايته، مثلما نزلت صور جديدة لكيانات ارتأت أن تقوم بدعايتها في النصف الثاني من الشهر، بعد أن خف سعير المتنازلين في بداية الشهر، لكن وكما يبدو من البرامج التلفزيونية التي استضافت الكثير من المرشحين ومن مختلف القوائم، أن الانتخابات تتجه إلى رؤساء الكتل نفسها، مع تغيير بسيط ببعض الوجوه المستهلكة والتي كانت بالعموم أبواقا لرؤساء الكتل، وفي كل الأحوال كانت

جيوب حسون وخالد، تكبر وكروشهما تتضخم، وهم يحمدون الطبيعة على غضبها.

في يوم الصمت الأخير، كانت وجوه المرشحين شاحبة مرتبكة خائفة مضطربة، إلا من كان عدد مراقبيه يفوق الألفين، أو الثلاثة بل وحتى الأربعة آلاف كمراقبين موزعين في أغلب المراكز الانتخابية، وكلهم ضمن أجر معلوم، ومكافأة بعد الفوز والبشارة، ويكفي لمثل هذا المرشح أن يكون فقط عدد من يراقبون لكيانه نزاهة العملية الانتخابية بهذا العدد، فكم سيكون عدد ناخبيه من أعوانه وعشيرته، ومواليه ومن تأمل في تعيين أو قضاء حاجة له؟

بعض المرشحين اتجه إلى المراقد المقدسة حانيا متوسلا ذليلا ناذرا النذور، البعض الآخر جلس في البيت، وقد شحن موبايله برصيد لا ينفد لو بقي مفتوحا في اليوم التالي بطوله، بعضهم أخذ حبوبا مهدئة للتوتر الذي بدأ يتغلغل داخله، ولا يعرف السيطرة عليه، أما جبار فقد اتصل بالعرافة، وشرح لها عن القلق الذي بدأ ينتابه، لكنها طمأنته بالفوز الساحق، البعض الخاص ذهب إلى جلسات خاصة، وأخذ يحتسي ما يفقده وعيه، وليس الانتخابات، بينما راح البعض الآخر إلى بغداد عصرا كي يتخلص من قلقه الذي كاد يجنه.

كان يوم الأربعاء يوما انتخابيا بحق، فأغلب المحلات مغلقة، وكذلك دوائر الدولة، فلا طرق مفتوحة للتنقل، ولا سيارات تحكي قصة يوم جديد، لا عربات تنقل فضلات البيوت التي استعدت لوجبات الغذاء، لا أطفال يحملون حقائبهم الجميلة، والبراءة تسبقهم لمستقبل واعد، الفتيات اللاتي علبت رؤوسهن بحجاب لم يخرجن إلى يومهن الجديد، النساء

اللاتي يرتدن الأسواق قرن في بيوتهم، الفقراء، والمساكين لا يستعطون الرب في هذا اليوم، من يعتاشون يوما بيوم، كان بالنسبة لهم هذا اليوم قد أجل رزقهم إلى يوم آخر برزقين، عمال البناء سكنوا عن عملهم، توقفت عجلة الحياة من أجل ثلة مرشحين يقودون البلد إلى المجهول.

العصافير مرتبكة، لا تعرف سبب الهدوء الذي استكانت له الحياة في هذا اليوم، لقد اعتادت طيور المدينة مثل أناسها على ضجيج السيارات، والانفجارات، والتهجير، كان أول تهجير للطيور الداجنة البيضاء، والملونة بعد أن هجر أهلها من البصرة إلى باقي محافظات العراق بطيورهم، وأثاثهم، وأشيائهم البسيطة، الهجرة الثانية للطيور، بعد أن بدأ التفجير والتفخيخ في المناطق السكنية المكتظة بالعوائل، حتى هدَّت أكثر أبراج الحمام من هول العصف وطارت طائشة في الجو لا مكان يلم فيض براءتها وانتمائها للمكان الذي تدجن عليه، الهجرة الثالثة جاءت بعد الغزو بسنتين، عندما بدأ أهل بغداد يهجَّرون من مناطق سكناهم مع طيورهم الحمراء، والملونة، أما الهجرة الرابعة فكانت عندما جاء بعض مهجري أهل ديالى من القرى التي ورثوها عن ابائهم، وأجدادهم، وكانت الطيور في أقفاصها المعمولة من جريد النخل معهم، وكأنها آخر الوفاء منهم لمناطقهم التي لن يعودوها بعد اليوم أبدا.

حتى أشجار الجزرات الوسطية، تلك التي اعتادت على أصوات السيارات الحكومية المستهترة، وأبواق سيارات قوات سوات والمتجحفلة معها، وهي سيدة الشارع دون منازع، بعلوها الشامخ، ودروعها الحديدية التي تغطي أبوابها، وجنديها الذي يمسك بزناد الإطلاق على كل من تسول له نفسه أن ينظر ولو نظرة عابرة ليسأل ما أشبه اليوم بالأمس.

الصحف المحلية والقومية عكفت عن الظهور، والطرق الخارجية أغلقت أبوابها، البزول الصغيرة التي أنهك السمك الصغير فيها في إجازة إجبارية، ومثلها مزارع الأسماك الأهلية، الثمار المعلقة في أغصانها الطرية بقيت هذا اليوم تستمد الحياة من عضدها، والخضروات التي تفترش الأرض بساطا أخضر ظلت متعلقة بفضاء السماء دون أن تمر عليه يد، أو مقص يحصدها.

امتلأ الشارع بأطفال المدارس، ولما لم يكونوا قد اعتادوا ألعاب الأطفال التي ورثناها عمن سبقنا، فقد كانت ألعابهم باهتة، فهم جيل التلفزيون، وقنواته الكارتونية الخاصة، أما من كان صبيا وفتىً فكان عهدهم بالأنترنيت حديثا، وصداقاتهم في أغلبها افتراضية، لذلك سجل عالم الفيس بوك أكبر مشاركة منهم حتى أن الانترنيت في هذا اليوم كان ثقيلا جداً، بعض الموظفين استغل هذا اليوم، في تصليح ما تراكم عليه من أعطال في حاجيات البيت الذي لا تنتهي، بعضهم راح يجلس عند أقرب مقهى يشرب المعسل، وينفث دخان غضبه، وهو يرى بعض العوائل متجهة إلى مراكزها الانتخابية من أجل إسقاطِ الفرض وخوفا على وظائفهم.

البعض الآخر جلس أمام جهاز التلفزيون، من أجل متابعة الأخبار، والخروقات التي يتعمدها بعض متنفذي الحكومة، أملا منهم بأن يحققوا الرمق الأخير من الفوز واستفزاز الناخب، بعضهم ذهب إلى قنواته المفضلة، والتي تعرض آخر الأفلام الأجنبية، ومثله البعض الآخر ذهب إلى قنواته العربية التي تعرض دراما تلفزيونية ليتم ما بدأه في متابعة مسلسله اليومي.

كان الصباح فاترا في أول بهجته، والناس متذمرة من توقف عملها، بينما أغلب الموظفين في فرحة، وقد رافق يوم الانتخاب عطلة لليوم الذي يليه، وتهادت بعض العوائل إلى مراكزها الانتخابية، بعض الرهانات كانت على قدم وساق بين مجاميع الشباب من الذين يدافعون عن مرشحيهم، أو من يعتقدونهم يفوزون بالمرتبة الأولى، أو الثانية، وقد اكتظت المقاهي بهم.

عند العصر بدأت كثافة المنتخبين بازدياد مضطرد، ربما عادة عند العراقيين، أن لا يقولوا رأيهم إلا في لحظة حرجة، أو عندما يحشرون في زاوية ضيقة، وقد امتدت بطوابير بسيطة، مثلما هم مترددون في آخر لحظة وأمام لحظة الانتخاب من الممكن أن يغير العراقي رأيه، وينتخب من كان يرفضه ليس حبا، وإنما بغضا بآخر، وكلاهما لا يعرف أحدهم الآخر، أو ينتخب شخص لا يبغضه أو يحترمه، ولكنه إسقاط فرض شرعي يعتقده.

لم تراهن صباح على الاقتراع الخاص، على العكس من جبار ورؤساء القوائم الكبير من المتنفذين في التعيين على ملاك وزارة الداخلية، والجهات الأمنية المختلفة، وبالعموم فإن الاقتراع الخاص شبه محسوم للقائمة الحكومية والتي لعبت دورا هاما في تعيين الكثير من بسطاء الناس ليكونوا دعاية انتخابية مجانية، وفي الوقت نفسه، يكونوا وقوداً للأخطاء القاتلة للكثير من السياسات الخاطئة التي اقترفتها الحكومة في مناوأتها لخصومها وما نتج عنه من تدهور أمني واقتصادي واجتماعي.

بدأت بعض التسريبات ليلا من قبل المراقبين التابعين لبعض الكيانات السياسية الكبيرة، ولكن المفوضية خرج الناطق باسمها، يخبر

الجمهور أن كل ما يسمعه من خلال الفضائيات والوكالات هو غير رسمي ولا يمثلها، رفضت التصريح في أول يوم واليوم الثاني، وكان القلق سيد الموقف بين المرشحين، حتى تناثرت بعض الدعايات عن انهيار عصبي لأكثر من مرشح، أما الشعب فعاد إلى نمطية حياته التي اعتادها، ولا يحب أن يغيرها لأي سبب كان، بعد أكثر من أسبوع، ظهرت بعض النتائج الأولية، وهي ملامسة لأغلب التوقعات العالمية، في فوز التماسيح الكبيرة بحصة الأسد، لكن لم يتبين اسم الناخب بعد، وبعدها بأسبوع أو أكثر بدأت النتائج النهائية تظهر من خلال المفوضية.

كانت صباح ومثلها جبار على قناعة كبيرة بأنهما صاعدان إلى القبة الزرقاء، لكن لم تكن سعادتها بالقدر الذي يوازي سعادة أخيها جبار بصعوده إلى البرلمان، الذي راح ينثر الأموال على حمايته وكل المحيطين به، وقد رافق ذلك إطلاق العيارات النارية الكثيفة إلى السماء، وكأنها تبعث رسائل تهنئة إلى من يجلس فيها، بعض شيوخ العشائر، والمتزلفين، والمتطفلين، والمهنئين لكل فائز والمدعين أنهم انتخبوهم، بدؤوا بالتوافد عليها، ولكن للسياسة حبل يمتد على طول رقبة كل من لا يحسن اللعب به، لذلك كانت التهنئة الحارة والقبلات المجانية والأحضان وبعض القرابين كانت تسبق الشيوخ المهنئة تزلفاً.

كثيرا ما كانت صباح تفكر بأنه لا عودة في السياسة إلى المربع الأول، وهذا يعني أن تكون لها قاعدة سياسية قبل القاعدة الجماهيرية عند رئيس الكيان، ومن ثم تصل للجمهور عن طريق الشاشة التلفزيونية المجانية، التي كثيرا ما كانت تعتمد على البرامج الحوارية، وبأنه من الممكن أن تكون لها قاعدة شعبية كبيرة عندما تتكلم باسم الدين المعلن، والطائفية

المبطنة، مثلما كانت تفكر بأن أي منصب وزاري سيجعلها أكثر احتكاكا بالجمهور، وبما أن الفساد مستشرٍ في الحكومة العراقية حد النخاع، فإن ذلك سيوقعها بعد أول دورة برلمانية لها، ولذلك راحت تفكر أن تكون عنصرا مؤثرا في الحزب الذي انتمت إليه، وأن تكون متصدية للبرلمانيين من القوائم الأخرى من خلال تلك البرامج التلفزيونية الحوارية.

* * *

استلمت وحمايتها سيارات مصفحة تحسبا لأي طارئ، من عبوات لاصقة، أو سيارات مفخخة، أو أي مواجهة مفترضة مع القاعدة، أو المناوئين للعملية السياسية، وقد كان بعض حمايتها ممن عهدتهم وهي عضو مجلس محافظة، لكنها أضافت إليهم حماية جديدة ممن أختارهم لها رئيس القائمة، وهم أيضا من المحافظة، لكن ممن قد دخلوا دورات خاصة بالأردن وعلى يد قوات أمريكية خاصة، إضافة إلى معرفتهم بالطرق المختصرة في بغداد، والمؤسسات الأخرى، لفت انتباهها أحدهم، وكان شابا قد لامس الثلاثين من عمره، مفتول العضلات، ممشوق الجسد، يمتلك نظرة قاسية، حازما في كلامه، شعره فحمي، كان دائما لا يعلو هامته إلا قليلا، كثيرا ما كان يلبس نظارات سوداء، يمتلك طولا أكثر من أقرانه ما فرض سيطرته عليهم.

عمل سابقا مع نائبة قد خسرت الانتخابات، كان عمرها أكثر من خمسين سنة بقليل، منقبة، لم تظهر في الإعلام أبدا، مثلما لم تحضر إلا قليلا من الجلسات البرلمانية، وقد ذهبت إلى مكة أربع مرات للحج، ومثلها للعمرة، أما في المناسبات الدينية فكانت تقضيها في محافظتها، تقيم العزاء، وتولم الغذاء، وقد رشحت نفسها بعد ضغط من

قبل قائمة الحكومة، في كونها مرحلة غيومها الدين وأرضها السياسة، إضافة إلى كونها كانت مديرة للرعاية الاجتماعية، وقد بذخت الكثير من المعونات بحق، وبغير وجهه في الأشهر الستة الأخيرة التي بدأت مفاوضات دخولها إلى القائمة الانتخابية كمرشحة، مثلما عمدت إلى مساعدة الكثير من الأرامل والشيوخ في صرف رواتب لهم، وبجنبهم بعض رواتب لميسوري الحال، من الذين استخدمتهم كدعاية انتخابية من خلال محلاتهم المنتشرة في طول المدينة وعرضها.

لكن صباح كانت مختلفة تماما عن النائب السابق، فهي قد لامست الاربعين من عمرها إلا قليلا، تمتلك جسدا لم ينهكه رجلٌ كل ليلة، لها خصر لم يجعده جنين ظل ينبض لشهور، لها ساقان، مخضبان باللون الوردي أملسان لم يحززهما جوراب، أو يتعرضا لحرارة شمس، أو ثقل بضاعة، أصابعها أغصان ورد لم ينغمسا في ساحة صحن مغمس بالمرق، أو يدورا في بقايا طعام، يداها ناعمتان كأنهما بقايا مرمرة مصقولة لم تعلق على جدار بعد، فيهما عروق خضراء تنبض بالحياة، وجهها الدائري المكشوف، رغم قسوته غير المبررة، كان يحمل أنثى مختبئة تريد رجلا ليس ككل الرجال، ليس ضعيفا حد الرفض، وليس قويا حد الصدام، كانت فكرة الزواج مؤجلة وكأنها تريد أن تنتصر لأنوثة ظلت مختبئة، ولم يستفزها أي رجل حتى هذه اللحظة، عيونها تحمل أكثر من حلم، حاجباها اللذان رسمتهما بالتاتو يوحيان وكأنهما سهمان يحملان رسل الغرام لمن يستحقهما، شعرها الأسود كليل دامس كثيرا ما كانت تنتظر من يمسده، فراشها البارد وإن كان بلون الثلج، لم يستطع أن يدفئه كل مجدها السياسي الزائف، تعرف أنَّ المرأة مهما وصلت في السياسة فلابد أن يمتطيها فارس،

ومع أنها كانت تبغض هذه الهواجس، وتمنت لو انقلبت الآية، لكن ليس بيدها أن تغير ناموس جسد الإنسان وتكوينه.

فكرت أن تنقل حياتها إلى بغداد، فلم يعد لها شيء في كربلاء، الأب الذي تاه في ملكوت حيواناته الأليفة، وحديقته الكبيرة، بعد أن انتفت حاجته، ووضعت الانتخابات أوزارها، وقد تركته أمها وحيدا، بعد أن اعتاد على طغيانها، وفي الحقيقة حمل هموم البيت، فقد كانت هي الأب والأم في وقت واحد، والسبب أنها تمتلك المال، بينما كان أبوها ليس أكثر من سائق في الأمانة العامة لمصلحة نقل الركاب، ويعمل على سيارة خاصة لنقل الركاب عصراً لخط معلوم البداية والنهاية.

أخوها حسون الذي نقل حياته، وزوجته الثانية إلى بغداد، بعد أن انتقم من زوجته الأولى، فسحب ابنته منها، بعد أن سقطت حق الحضانة منها، بتزوجها من آخر، على الرغم من أنها طلبت أن يردها لذمته، وقد لاحظت الغنى الذي بان على وضعه الجديد بعد التغيير، لكنه رفض طلبها، ليس لأنه لا يحبها، فقد كانت هي الحب الأول الذي لم يختره ولكن تعوّد عليه، ولكنه خاف أن تكون نسخة طبق الأصل من أمه، وربما لأنه لا يريد أن يعود لامرأة قد كشفت على رجل آخر حتى لو كان ذلك الكشف شرعيا.

أما ناهض فإنه قد حصل على قطعة أرض، وقرض حكومي وبناها وهو يسكن مع زوجته فيها، دون أي طمع بالحياة، وقد رفض طلبها بأن تقربه منها، لمعرفته المسبقة بأنانيتها ودورها التسلطي الذي ورثته من أمها، إضافة إلى معرفته السابقة بها كطفلة، وهي تنتهز الفرص من أجل أن تقترب من أمها بأن تشي بأحد أخوتها، والأهم، أنها استطاعت

أن تحول حياة صديقتها في معهد المعلمات إلى جحيم بعد أن سرقت خطيبها، وهي على علم مسبق بالحب الذي يربطهما من قبل والذي ترجم إلى خطوبة، وسيتكلل بالزواج، لولا خلاف بسيط وقع بينهما، وقد استعان بصباح كي تذلل الخلاف، إلا إنها كانت بالنسبة لها فرصة ذهبية بأن تحول مرسى خطيب صديقتها إليها، ليفك خطوبته، ويتقدم لخطبتها هي، ولكن ما أن تم ذلك، ومرت الأيام، حتى بدت المشاكل تكشر عن أنيابها، لتتهمه بأنه من مستوىً دون مستواها، وبأنه لا يظهر الولاء لأمها، وهي لا تحب مثل هذا النوع من الرجال، حاول الخطيب أن يرمم العلاقة من جديد بينهما، إلا إنها ازدادت بغطرستها، وبدأت تضع شروط جديدة لإتمام الزواج، وهكذا ضاع الخطيب بين حبيبته القديمة وخطيبته الجديدة، كل ذلك جعل من ناهض يبتعد عنها.

أما أخوها خالد فقد أصبح من المقاولين الكبار، وهو ليس بحاجة بعد اليوم حتى لجبار، فله العلاقات التي تؤهله للوصول إلى أي مكان، وقد أمتلك أكثر من بيت وسيارة، مثلما أصبح له بعض المعامل التي تصنع بعض ما يدخل في مقاولاته للحكومة المحلية.

لكن حسون على خلاف أخوته كان أكثر ترحيبا، وحفاوة بأخته، وأخيه في بغداد، وقد أولم لهم الولائم، وافتخر بهم بين أصحابه، ومن ثم دعاهم إلى حفلة خاصة في الإمارات العربية بعيدا عن أعين الحساد والمنافقين، وأصحاب النزاهة وغيرها من الجهات الرقابية التي ليس لها وظيفة سوى أن تكون أداة طيعة بيد رئيس الحكومة، فتخرج ملفات من تشاء وتخفي ملفات من تشاء.

تفاجأت صباح بدعوة حسون إلى خارج الحدود من أجل التهنئة، ولم

تتصور أنه بلغ من الإمكانات بحيث يصل به البذخ إلى هذا المستوى من التبذير، رفضت الدعوة بحجة أن الوقت غير مناسب، ومثله جبار، الذي كان يعلم عن حسون الكثير، ولكن يعلم أيضا عن ملفات الفساد التي كانت تحيط به، على الرغم من أنه مد جسور علاقاته مع أبناء الوزراء، والمدرين العامين، حتى وصل إلى أبناء رئاسة مجلس الوزراء.

(6)

رمضان ليس الأخير

بفاصل أمده ثلاثة أشهر عن الانتخابات البرلمانية لاح شهر رمضان، وقد عقدت الجلسة الأولى بعد أن ترأسها أكبرهم سناً، ورفعت الجلسة لحين اتفاق الكتل على تشكيل الحكومة من خلال انتخاب رئيس لمجلس الوزراء، ولما كانت العقدة بالمنشار، وكل جهة، أو كيان، أو كتلة أو فئة، أو مكون يحاول قدر الإمكان الاستحواذ على أكبر كمية من الكعكة العراقية، فكان الاتفاق صعبا جدا، إلا بتدخل دول الجوار، وأمريكا، ولكن على ما يبدو، أن الجهات الخارجية جعلت الجهات الداخلية تدور في ساقية، ونعلم أن الدائرة هي من الأشكال التي ليس لها بداية وليس لها نهاية ولذلك طفق الجميع يدور في هذه الساقية.

انتهزت صباح فرصة التشرذم، وذهبت لأداء مناسك العمرة، مع بعض خاصتها من النساء، والبرلمانيات، بينما بقي جبار يدور في كواليس السياسة يبحث له عن منصب سيادي مهم، يستطيع من ورائه تثبيت نفوذه السياسي، والمالي الجديد، ولكن على ما يبدو، كانت الأمور أو اللعبة السياسية تحركها أطراف خارجية، وكثيرا ما بقيت الأطراف المؤثرة الداخلية في أماكنها، ويجتمع من يمثلهم، دون أن يكون له حق الإفتاء في الرأي النهائي.

كانت أغلب الاجتماعات تتم ليلا، في كون أغلب الأعضاء صائمين كما يدعون، ولذلك، كانت الموائد المسائية معمرة بالحلويات المستوردة، المشكلة التي واجهها الجميع أن الفقرة الخاصة بتشكيل الحكومة رجراجة، ففي البدء كانت تشكل من خلال الكتلة الأكبر التي تفرزها صناديق الاقتراع ولما لم يكن ذلك على هوى البعض ممن يسيطرون على المحكمة الاتحادية، راحت الأخيرة تفسر هذه الفقرة بما تشتهي الجهة المشتكية، فأعلنت: أن تشكيل الحكومة لا يخضع لفوز الكتلة الأكبر، وإنما إلى الكتلة التي تتشكل بعد انتهاء الانتخابات، وتكون الكتلة، أو الائتلاف الأكبر. وهكذا دخل الشعب العراقي في متاهة جديدة أفرزتها المحكمة الاتحادية، ومن قبلها الدستور الشائك، بأغلب فقراته.

تسربت بعض الإشاعات عن قرب اتفاق الكتل على إعلان الحكومة، وسرعان ما كذبه بعض البرلمانين المخضرمين من الذين عبروا إلى البرلمان لأكثر من دورة، بحكم الديمقراطية الجديدة، عادت دوامة الاجتماعات من جديد، ولم تكن بغداد هي مركز الاجتماعات، بل توزعت بين أربيل وطهران وعمان، وبعض السفارات الأجنبية في المنطقة الخضراء، وكانت تلك الاجتماعات بين السريَّة، والعلنية.

كانت أطراف العراق تتآكل مثل جرف نهر، من الداخل والخارج، فالنزاعات مؤجلة، والسبب هو التخاصم المستمر بين أطراف الحكومة، على المناصب، والمصائب، وكل ذلك يدفع بغوغاء الناس من الذين تترأسهم بعض الجهات الدينية إلى التصعيد، ما أدى إلى إعادة الحرب الأهلية الطائفية التي استعرت في نهاية النصف الثاني من العقد الأول من

القرن الجديد، فالعراق لم يرسَّم حدوده مع إيران والكويت، ولما كانت تلك الجهتان هما من يمثلان بعض أطراف القوة في اللعبة السياسية العراقية، فقد كانت الاتفاقات بين هاتين الدولتين يشوبها الكثير من الريبة، والسرية، وكذلك بين تركيا والسعودية، اللتين تتحكمان بكثير من القرار العراقي، فكان لهما الدور الأكبر في تخلخل الوضع السياسي في البلاد، أما من الداخل، فكانت القاعدة التي بذرَ النظام البعثي بعض حيامنها في أرض خصبة، بدأت تنبت براعمها، ففي البدء كانت متمثلة بالزرقاوي الذي أهلك الحرث والضرع، وما أن تم قتله شرَّ قتلة، سرعان ما أنبتت بذرة شيطانية جديدة اسمها (داعش) بدأت في سوريا، وانتشرت في العراق وبالخصوص الجهة الغربية، التي كانت تتنازعها الصحراء والبداوة، والجهة الداخلية الثانية، كانت هي إقليم كردستان، الذي ينازع حكومة بغداد، الكثير من الحدود المحلية لنينوى وديالى ومطالبا بكركوك... الخ. وفي كل ذلك كان العراقي البسيط يحلم بضوء لا ينطفئ، وماء صالح للشرب، وحقوق أولية مثل أي إنسان مدني.

راهن رئيس الوزراء السابق على الوقت، والمغريات، والوعود، والمناصب، وعمد إلى محاولة تفكيك بعض الائتلافات السابقة، وضم الفائزين إلى كتلته، أملا في أن يكون الكتلة الأكبر، بعد أن فشل في تحقيقها من خلال صناديق الاقتراع، وكانت بعض الكيانات قاب قوسين أو أدنى من التوافق على أن تكون الكتلة الأكبر، لكن رئيس الوزراء كان يعمل جاهدا على عدم وصول تلك الجهات إلى هذا التوافق.

ازدادت السيارات المفخخة، وأصبحت تسعر بالناس قتلا وشواءً وتقطيعا، ازداد التهجير في بعض المناطق المختلطة، مثلما ازداد طغيان

الموظفين الكبار في أغلب دوائر الدولة، بدت الحياة الاقتصادية، والسياسية شبه متوقفة، ودوائر الدولة عبارة عن بنايات خربة إلا من الموظفين الذين يسيسون المعاملات الصغيرة أما الكبيرة فهي معطلة لحين إقرار الحكومة.

نادت بعض الجهات الدينية الرفيعة والمترفعة عن الناس بضرورة الاتفاق على تشكيل الحكومة، لكن الأطراف الفائزة كانت تصر على مواقفها، بدأت بعض الأطراف الدولية المتنفذة في العراق من الضغط على تلك الأطراف من أجل التنازل، وتشكيل الحكومة، لكن كل طرف كان يضمر العداء للطرف الآخر، وقد أعدَّ العدة لمحاكمته كأكبر مفسد، وفاسد على وجه الأرض، وبالتالي لم تُسفر تلك المفاوضات عن شيء.

بدأت هجرة بعض رؤوس الأموال إلى خارج الحدود، مثلما بدأت هجرة بعض الطوائف الصغيرة إلى تركيا كمحطة تسجيل وانتظار وصولا إلى أوربا، بينما كانت الهجرة الداخلية، وبالخصوص من بغداد وديالى، وأطراف الموصل إلى المحافظات كانت بشكل مرعب، مثلما بدأت المحافظات المستقبلة لتلك الهجرة تتضخم بشكل ملفت للانتباه، وكأنها أصبحت هي بغداد، تضم الفئات المختلفة من القوميات، ولكن تنتمي لمذهب واحد.

انتهى شهر رمضان والبرلمانيون صائمون، ولكن كان العيد كعادته باهتا بلون الخريف ولم يتمخض عن أي نتيجة، شاع بين الناس، أن انقلابا سيحصل في المنطقة الخضراء، وسيعلن رئيس الوزراء السابق الأحكام العرفية، ويحل البرلمان الذي لم يجتمع إلا مرَّة واحدة، وانتشرت مثل هذه الدعاية على لسان الجيش السري الذي يتغلغل في عالم الفيس بوك

السري، مثلما انتشر بين عوام الناس من خلال المخبر السري، بدأ بعض البرلمانيين من القومية الكردية بالرجوع إلى محافظاتهم الكردية، مثلما سافر بعض البرلمانيين من المرشحين عن القوائم العلمانية إلى عمان، ودبي، وبيروت، أما البرلمانيون من الإسلاميين، فقد كانت مهمتهم الوحيدة هو الدعاية والإعلام، والإعلان، عن فساد الدورة الحالية، ومحاولتهم الانقلاب على الدستور في عدم اجتماعهم من أجل ولادة الحكومة الجديدة، وإنَّ الاختيار الأفضل هو إبقاؤهم على رئيس الوزراء السابق في كونه خبر الإرهاب، والاستثمار، والتعامل مع دول الجوار وكل متطلبات الحكومة.

مضى الآن أكثر من ستة أشهر، والعراق بلا حكومة، أو برلمان، وكان القصد من وراء ذلك، هو إثبات دول الجوار المتناقضة أنه لا يمكن أن تكون حكومة في العراق إلا بتوافق الخارج على حساب توافق الداخل، وما العملية الديمقراطية المزعومة والانتخابات التي يطبل ويزمر لها الكثير إلا مسرحية ماسخة لا تؤثر نتائجها بما يتم الاتفاق عليه بينهم.

أصيب جبار بخيبة أمل كبيرة، بعد أن وجد التفتت يفتك في عضد الدولة العراقية من خلال ساستها المفسدين، والفاسدين، وهو في قرارة نفسه يقول: على الرغم من أنني انتهازي، ولكن لم يخطر ببالي أن أصل إلى هذه المرحلة من العفونة، كيف لي أن أكون بهذا المستوى من التردي، وأنا أرى بلدي يذهب في مهب الريح، دون أن يكون لي موقف صريح، وواضح، في ردع الأجهزة الاستخبارية التي تسرح، وتمرح في المنطقة الخضراء، مثلما أرى سفراء بعض الدولة الكبرى ترسل ليلا بطلب بعض رؤساء الكتل البرلمانية، مثلما أرى بعض أولئك

الرؤساء يقدمون تنازلات يندى لها الجبين من أجل البقاء أو الحصول على مناصب جديدة.

بدأت السفارة الأمريكية في المنطقة الخضراء والتي تُعد من أكبر سفارات العالم في بغداد بالتدخل بشكل مباشر في رأب الشرخ الذي بدأ ينتقل من أروقة البرلمان إلى الإعلام المرئي وبعض الصحف المناوئة لبعضها البعض، مثلما بدأت تتضارب الأخبار بين الناس، وأصبحوا في هرج ومرج، حتى تناقل البعض من صدامات في بعض المقاهي الشعبية بين من يمثل رئيس الحكومة السابق وبعض الذين يمثلون الأحزاب الدينية الصاعدة للبرلمان.

تسرب جزء من الاتفاق الذي استطاعت السفارة الأمريكية أن تطرز بعض أحرفه، وهو أن ينتقل رئيس الوزراء السابق إلى منصب في رئاسة الجمهورية، بما يحفظه من المساءلة من قبل القضاء، في كون هذا المنصب له مميزات ليس أولها الحصانة، وآخرها وجود الكتلة التي يمثلها في البرلمان ما تمنع عنه إثارة أي ملفات فساد، أو إرهاب أو غيرها طيلة فترة حكمه السابقة.

لكن مشكلة منصب رئيس مجلس الوزراء ظلت عصيَّةً على الاتفاق، والسبب أن رئيس الائتلاف، والحاصل على أكبر عدد من المقاعد، وهو في الوقت نفسه صاحب أكبر كيان استطاع أن يأتلف فيه ليكون الكتلة الأكبر يمتلك جنسية إيرانية ثانية، وهذا ما لا تسمح به أغلب دول الجوار، وكذلك أمريكا، وفي المقابل فإن الإسلاميين لا يؤمنون بالحدود الجغرافية، أسوة بكل الإسلاميين المتطرفين، لاعتقادهم أن الدين لله، والأرض للإسلام، ولا غضاضة في أن يمثل المسلمين أيُّ شخص بشرط أن يكون أفضل الموجودين.

ونزل الاختلاف الى أبسط التفاصيل بما فيه منصب نائب مدير عام للدوائر غير المؤثرة، فالمحاصصة، والطائفية وصلت بفضل الساسة ذوي الجنسيتين إلى كل مفاصل الدولة العراقية وحكومتها، ما زاد في فرقتهم، وتأخر تشكيل الحكومة، وهناك ربما سبب خفي بين كل أطراف البرلمانيين هو انعدام الثقة بينهم جميعا على الرغم من ادعائهم أمام الإعلام بغير ذلك.

عمل جبار جاهدا على التوفيق بين بعض الأطراف من الذين يعرفهم في محافظته والذين تعرف عليهم فيما بعد في أروقة المنطقة الخضراء، والذين ذهب إليهم كمرسال من قبل رئيس الوزراء السابق، ولكن باءت محاولاته بالفشل، شعر جبار بأنه من الممكن أن يخرج من هذه الفوضى خالي اليدين، بالخصوص بعد أن وقع رئيس الوزراء السابق على منصبه الجديد، وعدم مطالبته لقائمته بأي منصب سيادي، وبأن كتلته ستكون معارضة إيجابية في البرلمان، بدأ يفكر جديا بالانسحاب من الكتلة والانضمام إلى الائتلاف الجديد، لما فيه من مغريات ومناصب وزارية جديدة، وكثيرا ما كان يترك بعض الشكوك عند الذين يفاوضهم في بداية تشكيل الحكومة من أنه من الممكن أن ينتمي إليهم لما وجد فيهم انتماءً وطنيا وحرصا أخلاقيا على النهوض بالعراق الجريح.

اجتمع بأخته صباح ليبلغها بما آلت إليه العملية السياسية، وعن خذلان رئيسهم لكل الذين في قائمته من أجل الحفاظ على مكاسبه السابقة، والأهم هو الحفاظ على رأسه، مثلما اجتمع بأخيه حسون، ليتدارس الأمر، لما يعرفه عن أخيه من علاقات متداخلة مع الكثير ممن يقطنون المنطقة الخضراء، ويشكلون جيشا سريا من المعلومات

عن أغلب الموجودين، وقد نصحه حسون بالانتقال إلى القائمة الأكثر حظوظا بالفوز بمنصب رئيس الوزراء، قبل فوات الأوان، وكذلك قد قدم النصيحة نفسها لأخته.

بدأت قائمة رئيس الوزراء السابق بالهيكلة، أسوة بكل القوائم الخاسرة في الحرب السياسية الجديدة، إذ ليس المهم الفوز بالمنصب البرلماني، وإنما الأهم هو الحفاظ على الدور المؤثر في صنع القرار السياسي، هذا ما كان يشكل هاجسا لكل رؤساء الكتل، وليس للبرلمانيين الجدد.

لم يدم طويلا شهر العسل بين جبار وأخته مع رئيس قائمتهم، وخاصة بعد أن تأكد عن طريق أخيهما حسون أن رئيس الوزراء قد وقع تنازلا عن منصبه السابق، والمناصب السيادية الأخرى الذي كان يرأسها وكالة، مقابل عدم مثوله أمام المحاكم أو محاسبته.

انتقلا سرا إلى الائتلاف الجديد، بعد أن حصلا على وعود بأن يشغل أحدهما منصب وكيل وزير الطاقة، بينما تشغل صباح منصب وكيل وزيرة المرأة لمدة سنتين، مثلما بدأ الآخرون ينسلون من قائمة رئيس الوزراء السابق إلى الائتلاف الأكبر مقابل مناصب خارج العراق لأهلهم، وأقاربهم، فالخريطة السياسية دائما تنسخ الخريطة التي قبلها، ليعود التأسيس من جديد.

لعب حسون الدور الأكبر في تقريب وجهات النظر بين أخوته ورئيس الائتلاف، ما جعل له حظوة أكبر لدى الطرفين، وألمح للطرفين، بأنه يتمنى أن يحصل على منصب رئيس هيئة النزاهة، لما لديه من خبرة طويلة في مجال الاستثمار، والعقود، وكذلك معرفته بأكثر الشركات

السوداء، والبيضاء، وكذلك الفاسدين، والمفسدين، والأهم تاريخه كلاجئ سياسي وإنساني، إضافة إلى انه من السجناء السياسيين.

مضى على المفاوضات والتداول بين الكيانات المؤتلفة، والمتحاربة، والكتل الصغيرة ستة أشهر، وقد أنهكت الدولة العراقية، وأصاب اقتصادها ركود كبير، ولولا رواتب الموظفين الصغار لتوقفت الحياة بشكل كبير، كانت السفارة الأمريكية تضغط بشكل أكبر على كل الأطراف المتناقضة، وبالخصوص من يمثلون القائمة الكردية، التي تزداد مطالبها عن كل دورة انتخابية جديدة، كانت الرئاسات الثلاثة محسومة عند الجميع، لكن التفاوض يتم على ما دون ذلك من وزارات، ووكلاء الوزارات، والمدرين العامين، ووكلاء المدرين العامين.

حدث تغيير طفيف بالاتفاق الذي أبرم بين الأخوة الثلاثة، ورئيس الائتلاف، في أن تكون صباح الناطقة الإعلامية باسم الائتلاف، في مقابل أن يصبح حسون رئيس هيأة النزاهة، لكن صباح رفضت هذا المقترح، في كونها تريد منصبا وزاريا لطالما حلمت به، وقد سعى جبار وحسون إلى إقناعها بما تم التوصل إليه، وإن الأيام حبلى بالمفاجآت، وقريبا سيتغير هذا الوضع وما عليها إلا الصبر.

فرح رئيس الائتلاف بالاتفاق الجانبي الذي أبرمه مع الأخوة الثلاثة، ليس حبا بهم، وإنما المرحلة السياسية الجديدة كانت تتطلب وجوها جديدة، لم يعتدها الناس، بعد أن شاب الوجوه القديمة الكثير من الفساد، والملل عند المشاهدين عبر القنوات الفضائية.

بدأت عجلة الحكومة العرجاء التوافقية تسير ببطء، وكانت فرحة

مصطنعة قد رسمها الساسة الجدد بحكومتهم الجديدة أمام الإعلام والعالم، ولكن خبايا الحكومة الترقيعية كانت قد تسربت إلى أكثر من ثلاثمائة نائب، وبالتالي فإنها ستتسرب إلى الإعلام، ودول الجوار، باستثناء المواطن العراقي الذي وضع أمله في التغيير.

بدأ رئيس الحكومة الجديد الذي تربى في أحضان الدولة الجارة الأم، استلام مهامه الجديدة، وقد وجد أغلب الوزارات السيادية المهمة، والتي تمثل عصب الأمن، عبارة عن تكتلات حزبية ومنافع تبادلية، مثلما وجد مجلس رئاسة الوزراء عبارة عن أتباع لرئيس الوزراء السابق، عمد الأخير إلى جعل كل الأمور المهمة عبارة عن أدوات طيعة بيده يحركها من خلال الخيوط التي يمسكها بيده، والملفات التي أعدها لأغلبهم.

أعاد رئيس الوزراء الجديد، منظومة مجلسه، بعد أن غيَّر الكثير منهم، وقد علم ولاءهم للرئيس السابق، عقد مجلس الوزراء جلسته الأولى بحضور كل الوزراء، لم يكن يستطيع التغيير، كونه أتى هو أيضا عن طريق المحاصصة، ولكنه سعى جاهدا إلى الوصول إلى أقصى درجات النزاهة، بعد أن عمَّ الفساد كل أركان الحكومة العراقية السابقة، أرسل بطلب رئيس هيأة النزاهة، للتداول بشأن ملفات فساد المسؤولين السابقين، وكان حسون قد أعدَّ ملفات عن أغلبهم، بعد أن استعان بمن سبقه في الهيأة، ولعلمه المسبق وتعامله مع بعضهم في صفقات مشبوهة كثيرة، مثلما استطاع أن يسحب أكثر من ملف أعدَّ له من قبل، ويحرق أصولها.

بدأ البرلمان يعقد جلساته الاعتيادية، وقد ورث من الدورة السابقة أكثر من مائتي مشروع قرار، بعضها قرئ قراءة واثنتين، وبعضها أصلا

لم يصوت عليه، كانت هذه الدورة ينتظرها الكثير من مشاريع القرارات والقوانين، لا سيما مشروع الموازنة للسنة السابقة والتي لم تقر بسبب النزاعات بين القوائم والكتل.

بدأت النزاعات التي حاول الجميع التغاضي عنها بالظهور مرة أخرى إلى السطح، فقد أصبح العراق بلدا مستهلكا بامتياز، ومعنى أن يعود من جديد للزراعة، والصناعة، والتجارة، أن تكون ضربة قاضية لتلك الدول التي أصبح التبادل التجاري بينها، والعراق وفي الحقيقة من طرف واحد يفوق العشرة مليارات دولار سنويا، وكأنه الحديقة الخلفية لتلك الدول، فهو المستورد الأول، وبامتياز للسيارات، والمخللات، والمبردات، والبطيخ، وكل ما يخطر على بال أي إنسان من الممكن أن يقرأ في التاريخ فيما بعد أنَّ العراق كان يستورد المخللات واللبن، فيقول إن التاريخ مليء بالكذب، والتضخيم للكثير من الأشياء التي لا يستوعبها العقل.

مثلما عاد قادة الشمال إلى مطامعهم المعلنة ولكن غير الرسمية إلى السير قدما في تكوين حلم الدولة المستقلة، تمتلك قرارها دون الرجوع إلى المركز، وفي المقابل صدحت بعض الأصوات في تكوين أقاليم فيدرالية في الجنوب، والوسط، أما نواب المحافظات الغربية فكان الإرهاب يعصف بهم، وهم بين خيارين أحلاهما مر، بين الركون للإرهاب، وهذا ما لا يقبله أغلبهم، وبين من يريد العودة إلى عراق موحد يحكمونه هم، بعد أن تمخضت التجربة الديمقراطية عن تفتت العراق، ولو كان بشكل غير معلن.

لكن العصب الرئيس لأي دولة مدنية كان هو الكهرباء، او لنقل الطاقة بالعموم، والتي صرفت عليها مليارات الدولارات ولكن دون

جدوى، اسند هذا المنصب وكما تنص عليها المحاصصة إلى إحدى الكتل الغربية، وأنيط منصب وكيل الوزارة إلى جبار بعد مفاوضات شاقة بين كتلتيهما، ومنه أخذ لقبه بعنوان جبار الوكيل.

بدأ جبار الوكيل بدراسة كل الملفات السابقة، والصفقات التي عقدت في زمن الوزارة السابقة، وكان الفساد يعلوها حتى هامتها، أخبر الوزير بالفساد، والشبهات التي تحيط الصفقات السابقة، وبأنه من المستحيل أن تسري الكهرباء في أسلاك المواطنين، ومعامل الدولة إذا بقي الحال كما هو عليه، مثلما نقل هذه الأخبار إلى رئيس كتلته الجديدة، ولما كان الجميع محكوما بمجلس رئاسة الوزراء، فكان لابد أن يقدم تقريرا من قبل وزير الطاقة إلى رئاسة المجلس، لكن رئيس المجلس طلب من الوزير، ووكيله التريث حتى يجدوا حلا لهذا الموضوع، وبالخصوص أن وزير الطاقة السابق قد غادر البرلمان، ولكن رئيس كتلته وبعض خاصته كانوا موجودين في منافذ مختلفة من الحكومة الجديدة.

اجتمع مع أخيه حسون، وأعلمه بالذي اكتشفه من صفقات الفساد، والمليارات التي هدرت جراء تلك الصفقات، والمشكلة ليس بالمال المهدور، وإنما بالكهرباء التي لا يمكن أن تصل إلى المواطن ضمن هذه العقود الزائفة، أما النقطة الثانية التي اكتشفها والتي تخص عقود استثمار النفط، فكانت أكثر فسادا أيضا، أقترح على رئيس كتلته حلول آنية ومستقبلية، في أن يستورد كهرباء من إيران كحل آنيٍّ ومستعجل، وأن يلغي كل الاتفاقات، والعقود السابقة ويعقد مع شركات عالمية جديدة عقود جديدة، مع توفير حماية من قبل شركات خاصة، بعد أن استفحل موضوع الميليشيات في أغلب مناطق العراق بمختلف مشاربها.

فرح رئيس الكتلة بالحل الأول وبأنه سيفيد الدولة الإسلامية، بعد أن احتضنته، وأمثاله طيلة العقود الثلاثة المنصرمة، أما الحل الثاني فكانت تشوبه شبهات في كون أغلب الشركات العالمية كانت تخاف من دخول العراق حتى لو توفرت لها الحماية من قبل الشركات الخاصة، وهي بالتالي ستطلب مبالغ مضاعفة لأي منظومة كهرباء، أو عقد استثمار لآبار النفط، والأهم كيف يمكن لرئيس الكتلة ومن ثم الائتلاف أن يستفيد من مثل هذا الموضوع.

طلب رئيس مجلس الوزراء من وزير الطاقة، ووكيله عدم وصول موضوع العقود الفاسدة إلى الإعلام، وبالخصوص أن المواطن العراقي لا يأمل من الحكومة سوى بليل تكون فيه المصابيح مضاءة، حتى لا يتحول البيت إلى مقبرة للأحياء، وترك كل شيء للساسة.

بدأ وزير الطاقة بالتناوب مع وكيله، برحلات مكوكية، من أجل إبرام عقود جديدة لمنظومات، ومحطات توليد كهرباء، وكانت بعض السفرات يرافقه فيها أخوه الأكبر حسون، من أجل الاطلاع على شركات الحماية الخاصة، والأسلحة الشخصية المستخدمة، والسيارات المدرعة ضد الرصاص، والعبوات اللاصقة، وكل جديد في عالم الشركات.

بينما كان البرلمان يعقد جلساته، وقد بدأت العضو صباح تبرز، بالخصوص بعد أن أصبحت رئيسة اللجنة القانونية، وتمر عليها كل مشاريع القوانين، كي تقرأها، وتبت بصلاحيتها من عدمها، أو تطلب بعض التعديلات عليها كي تكون متوافقة مع الدستور، بعد أن حفظت أغلب فقراته، وكذلك النظام الداخلي الذي أقره البرلمان الجديد مع بعض التعديلات البسيطة، ولكن كل ذلك لم يكن يسعفها للكثير من

مسودات مشاريع القوانين التي كانت تقدم من بعض النواب، ما اضطرها إلى الاستعانة ببعض المختصين من رجال القانون.

ومن ثم اختارت ثلاثة أشخاص من ذوي الاختصاص في القانون الدولي، والدستوري وآخر ضليع بالقوانين العراقية من الستينيات، وحتى الدستور الجديد، واتفقت على أن تعرض عليهم كل مشاريع القوانين التي تقدم من قبل النواب، مثلما طلبت منهم أن يقدموا لها مشاريع قوانين بما يخدم بغداد، والعراق، محليا ودولياً، ولكنها تعمدت أن تختار من بين الثلاثة شابا أكمل دراسة الماجستير، وهو متميز عن أقرانه، فارع الطول وسيم الوجه، جميل المظهر، حاسم في كلامه، طموح، ربطت بين اسمه وتطلعاته، واعتقدت أنه من الممكن أن تستميله نحوها، فعقدتْ في كونها مطلقة كانت تلاحقها داخل البرلمان من أغلب الرجال، وكذلك كانت الأعضاء يقترحن عليها أن تتزوج من أي عضو أعزب من الذين صعدوا في الدورة الأخيرة وهم بين أقرباء لرئيس السلطة السابقة، أو من الخط الثاني من المغتربين الذين عادوا إلى العراق، وتوزعوا في الرئاسات الثلاثة ولم يتزوجوا.

لكنها وبكبريائها المعهود، كانت ترفض كل المقترحات، والتلميحات، ولكن بداخلها كانت تتمنى أن يحصل ذلك، فكثيرا ما كانت تسأل نفسها (وماذا بعد) حتى لو أصبحت وزيرة، أو رئيسة وزراء، كثيرا ما كانت تقف أمام المرآة بعد نهار مضني، وتنظر التجاعيد البسيطة التي بدأت تظهر تحت عينيها، تنظر إلى يديها، التي بدأت متجهة نحو الشيخوخة، شعرها الذي بدا باهتا بعد أن كان فحمي اللون، لا أنيس لليلها الطويل، فراشها البارد بدأ يمتص أنوثتها التي بدأت تفتر، مالها الذي

أصبح مطمع لأخوتها والمحيطين بها، أمومتها الملحة والمؤجلة، كيانها كأنثى غير موجود، أو مؤثر في خارطة الرجال، حاجتها النفسية إلى رجل يحكمها، يحبها، يقبلها، يضربها، يحلم معها، يبكي في حضنها، في طفل تكبر أحلامه معها، أو بنت تزهر مثل أشجار الربيع قداحا أبيض، وأورادا بلون الحب يضيء المحيطين به، في مطبخٍ هو المملكة الحقيقية للمرأة الشرقية، أو كلمة ماما من طفل يريد شيئا عند أول بقال، في حقيبة طفل يلبسها على ظهره، أو قلم رصاص يطلب منها أن تبريه، في ليلة شتاء بارد يتبول طفلها في فراشه بردا، وعجزا أن يقوم منه وهو دافئ، أو من بنت تتحول من أطوار الطفولة إلى بواكير الأم الأولى وهي تأتيها خائفة لأول طمث لها، كل تلك الأسئلة وغيرها بدأت مثل وسواس يلاحقها، يسهرها ليلها الطويل، هواجس تجعلها تسرح في حياتها غير المجدية، طموحاتها المسعورة إلى ما لا نهاية، غطرستها وعنجهيتها على الآخرين دون وجه حق، تكبرها على المحيطين بها.

أقترح (توفيق) وهو أحد أعضاء اللجنة القانونية التي تعمل في الظل، على النائب (صباح)، بصياغة مشروع قانون يمنع تفتيت الدور في الأحياء البغدادية القديمة مثل (الوزيرية، المنصور، الكرادة، زيونة، وغيرها) من الأحياء العريقة، وتحويلها إلى قطع أراضي صغيرة بواقع مائة متر، وما يفرز مثل هذا الإجراء من تزاحم النفوس، وتراكم الهموم، وتحويلها من أحياء راقية إلى عشوائيات تشوه الواجهات، وتقلص المساحات، وتضغط على المدارس والمستوصفات، وان اللعب بأصل المساحات يجعل من بغداد عبارة عن ثكنات هامشية ليس فيها من جماليات المنظر، والتخطيط العمراني المنشود أي ميزة عن أحياء البستنة، والتجاوز للأحياء الشعبية.

وافقت صباح على هذا المقترح وقدمته كمشروع قانون (منع تفتيت الأحياء القديمة) لكنه جوبه باعتراض كبير من قبل أحدى الكتل الإسلامية، التي عدتهُ تمييزا عنصريا، وطائفيا وطبقيا بين أفراد المجتمع كونه يمنع أفراد المجتمع من التحكم بملكيتهم، مثلما يمنع اختلاط الطبقات الدنيا، والوسطى بالطبقات الراقية، علما أن مثل هذه الأحياء يسكنها أغلب من كان في النظام السابق، وبالتالي فإن أي مشروع قانون يبقي الوضع السابق على حاله مرفوض، واستطاعت هذه الكتلة أن تجمع تواقيع الكثير من النواب لرفض مثل هكذا مشروع، وعلى الرغم من أن صباح سعت جاهدة إلى توضيح فكرة المشروع في كونه يخدم بغداد أصلا بكل أطيافها، لأنه يحافظ على البنية المعمارية لها، وبدل من أن تتحول إلى عشوائيات متداخلة، تبقى محافظة على رونقها، وسعتها وحدائقها، وكل ما يجعل منها مدينة حالمة، بدل أن تكون مدينة مزدحمة في مراكزها القديمة والجميلة، وتشوه من قبل محدثي النعمة الذين جاؤوا بعد الاحتلال. أن المصلحة العامة للمجتمع هي فوق المصلحة الخاصة للأفراد، وإن الحفاظ على البنية المعمارية لتلك الأحياء هي الحفاظ على الشكل العام، والخارجي لبغداد كعاصمة فيها من الأحياء الراقية التي تُعد بمثابة الرئة النظيفة بحدائقها الواسعة، ومتنزهاتها الكبيرة، بدل أن يهرب أصحاب رؤوس الأموال إلى خارج العاصمة، أو العراق بعد أن تضيق بهم تلك الأحياء وقد تحولت إلى عشوائيات شعبية مكتظة بالزعيق والضجيج والأنفاس المتداخلة.

مضت السنة الأولى، وقد قدم الكثير من النواب مشاريع قوانين تخدم مصالحهم الخاصة، ومنها قطع الأراضي على متن دجلة العزيز الذي تحولت ضفتاه إلى مستعمرات للبعض منهم، إضافة إلى السلف،

والجوازات الخاصة، والعلاجات الطبية لعائلة العضو، مثلما رُفضت بعض المشاريع التي تقدمت بها القوائم الإسلامية ومنها (إعادة محاكمة التاريخ) والتي فرحت بها العضو صباح، لكن لجنة الظل القانونية رفضتها، لأنها مخالفة للدستور وتثير النعرات الطائفية بين مكونات المجتمع الواحد، والأهم لا جدوى من مثل هكذا مشاريع، فرفضتها صباح وراحت تغرد تحت قبة البرلمان، وأجريت لقاءات صحفية من وراء رفضها تقديم مثل هكذا مشروع إلى سدة البرلمان، وكتبت بعض المقالات الصحفية في الصحف القومية، بعد أن أعادت كتابتها اللجنة القانونية، وكذلك رفضت مشروع قانون (إعادة محاكمة الجغرافية) من (معاهدة أرضروم الثانية) وحتى (خيمة صفوان) وغيرها من القوانين البائسة التي لا تمت بمصلحة للمواطن، وكان الفضل في كل ذلك يعود للجنة القانونية التي تعيش في الظل.

طلب أحد النواب بعد أن حصل على تواقيع عشرة نواب من أجل تقديم استجواب لوزير الطاقة ووكيله، خاصة بعد أن شاع في البلد عن عقد صفقة بأكثر من خمسة مليارات دولار مع بعض الشركات العالمية من أجل نصب منظومات كهربائية عملاقة، لحل أزمة الكهرباء، ولكن الوضع كما هو عليه دون تحسن، باستثناء تعثر سريان التيار الكهربائي الإيراني بين الحين والآخر، ما استدعى أن تجتمع صباح بأخيها جبار ليلا:

ـ اليوم قدم أحد النواب استجوابا لرئيس البرلمان، ولوزيرك وأنت، لكن رئيس كتلتنا هدده بأن يقدم استجوابا مقابل لوزير الصحة ووكيله.

ـ أنا، والوزير مستعدان للمثول في البرلمان الموقر من أجل توضيح الصورة للجميع.

ـ هل أنت متأكد من قولك... هل فاتحت الوزير بذلك؟.

ـ لا. والأفضل هو ما أقدم عليه رئيس الكتلة، سأشكره غدا، لأننا لم نقدم على خطوة عملية حتى هذه الساعة.

ـ وما حقيقة صفقة الخمسة مليارات دولار؟.

ـ لقد اتفقنا مع شركة عالمية من أجل نصب بعض المنظومات الكهربائية الضخمة على ضفاف دجلة والفرات من أجل توليد الكهرباء، وطلبوا الكثير من الضمانات، وتوفير الحماية من قبل الشركات الأمنية الخاصة، وتحويل نصف المبلغ قبل البدء بأي عمل، حتى يتم تصنيع الطوربيدات، وكل ما يمثل البنى التحتية لها.

ـ هل صحيح أن هذه الصفقة يشوبها الفساد؟.

ـ أنت تعرفين أن في العراق الكثير من المتربصين، وعندما لا يستفيدون، أو يشعرون أنَّ العراق يحاول أن يتقدم خطوة إلى الأمام فأنهم يثيرون زوبعة الفساد من خلال الفضائيات والأنترنيت.

ـ هل لأخينا حسون طرف في هذه الصفقة؟.

ـ نعم أخذ على عاتقه تجهيز شركات الحماية الأمنية الخاصة لكل موظفي الشركة التي ستأتي من كوريا الجنوبية وألمانيا وماليزيا.

ـ تقصد أنها مجموعة شركات في عطاء واحد؟

ـ نعم.

ـ وهل تأكدت من سلامة العقد، هل عرضته على مختصين في مجال تنظيم العقود القانونية والدولية؟.

ـ لا يحتاج إلى ذلك، فقد سافرت إلى ألمانيا، والتقيت بممثل الشركة الذي ينوب عنه.

ـ وكيف كان الاتفاق الأولي حتى أبرمت الاتفاق؟.

ـ في البدء كان عن طريق الأنترنيت، ولكني، والوزير لم نحول المال حتى قمت بالسفر إليهم والتقيت ممثلهم على أرض الواقع، وكان صاحب مكتب فخم جداً، وقد أقمت عندهم ثلاثة أيام اطلعت فيها على بعض مشاريعهم عن طريق الأقراص المدمجة، وكذلك النماذج التصميمية التي كانت بغاية الروعة، وقد صورتها وجئت بها إلى الوزير الذي قدمها بدوره إلى مجلس الوزراء وقد وافق المجلس بعد أن عرضت عليهم الأقراص المدمجة، وصور النماذج التي ستطبق على أرض الواقع في العراق.

ـ أنا غير مطمئنة لهذا المشروع، أرجو أن لا تكون متورطا بشيء.

ـ أختي العزيز، لا تخافي، مثلما أتمنى أن لا تؤثر بك الإشاعات من المغرضين، التي تحاول إعاقة عملنا، بل على العكس أنا متفائل جدا بهذا المشروع.

ـ أتمنى ذلك، لا تنسَ أن تتصل برئيس الكتلة وتشكره على دفاعه عن وزيرك، وأنت.

ـ لن أنسى.

قالت صباح في سرها، إنَّ أخاها جبارا كان من أكبر الفاسدين عندما كان عضو مجلس محافظة، ومسؤول النفط والغاز، وقد تعرض لأكثر من محاولة اغتيال، مثلما أراد المجلس أن يستجوبه لأكثر من مرَّة لكنه

لم يفلح بهذا، وأكيد انه حصل على عمولة كبيرة من وراء هذا الصفقة سواء بالاتفاق مع وزيره، أو دون علمه.

عادت هلوسات الليل من جديد إلى صباح، فعندما ينقضي ضوء النهار ويجن الليل، تتكلم الجدران، وتصبح للأشياء عيونٌ تستجوب الآخرين، لم تكن لتهنأ بكل ما حولها من حرس وخدم، فشعور الأمومة والوجود لا يضاهيه شعور، وإحساس أنك جزء من الآخرين وتعمل لمصلحتهم دون مقابل كعائلة، لا يتلمسه إلا من كان جزءًا منها، فكرت في أنها يجب أن تصارح توفيق في إعجابها به وميولها نحوها، أو حتى تهمزه عسى أن يبادر ولو بخطوة إلى الأمام عندها ستتكفل بالباقي، لكن تلك الأفكار لم تكن لتقضي على وسواسها، فنصحها بعض الأطباء بأخذ حبوب منومة، بعد أن كذبت عليهم، بقولها أن الأرق يمنعها النوم نتيجة التفكير بمصالح الشعب من أجل سن قوانين تخدمه.

صباحا اتصلت بتوفيق وطلبت منه الحضور عصرا لأمر طارئ يخصها، وقد قررت أن تجد حلا لمشكلتها التي لا تنتهي، والتي تستفحل ليلا عليها، وتهدأ وتنتهي نهارا، لم تحضر جلسة البرلمان أسوة بالكثير من أعضاء البرلمان، فقد انتابها صداع شديد، منعها من النوم حتى أخذت أكثر من حبة مهدئة ومنوم، تناولت وجبة واحدة كانت هي إفطارا، وغداءً في الوقت نفسه، ظلت الوساوس تنازعها بين ما هي عليه، وبين توفيق، الرجل الشاب الطموح الذي يحلم أن يتم شهادته العليا ويتعين كدكتور في جامعة بغداد، هي عضو برلمان يشار لها بالبنان، جواز سفرها دبلوماسي، عندها قطعة أرض على متن دجلة، راتبها مميز، وبإمكانها أخذ سلفة كبيرة لأي سبب، أو بدونه، عرضت عليها أكثر من جهة تمرير

بعض مشاريع القوانين مقابل بعض العروض الاستثمارية، لكنها رفضت البعض، ووافقت على البعض الآخر ما جعلها تجني بعض الملايين من الدولارات التي حولتها إلى بعض البنوك العربية، لها بعض الأسهم في شركات الاتصال العراقية، والعربية، بعد أن ساومتهم على دفع الأقساط المترتبة عليهم، أو حجز أصولها، وإقامة دعوة قضائية عليهم نتيجة تأخيرها، مثلما استطاعت أن ترتب مع من يمثل وزير الزراعة من أجل الحصول على أراضٍ زراعية بعقود طويلة الأمد على أمل تحويل جنسها من زراعي إلى ملك صرف حتى تحولها إلى أحياء سكنية. كانت تحلم بإمبراطورتيها المقبلة من المال، والسياسة، والاقتصاد في النهار، وفي الليل تحلم بالأمومة والعائلة والأطفال، وبين هذين المتناقضين كان الظلال الأسود تحت عينيها يزداد، ولم يفعل المكياج عمله في إخفائه.

عندما حانت ساعة اللقاء، كانت قد ارتدت أغلى ملابسها التي أتت بها من دولة الإمارات العربية، مثلما لبست حجابا بلون الكاردينا، وأخرجت جزءا من شعرها الأسود الذي اعتنت بصبغ بعض جوانبه بعد أن نبتت فيه بعض الشعيرات البيضاء رغما عنها، نهضت لاستقباله، وليس من عادتها مثل هذا الموقف، طلبت عصيرا له وقهوة لها، اختارت وقتا يكون فيها فندق الرشيد خاليًا من رواده، مثلما اختارت مائدة بعيدة عن الأضواء حتى لا يقطع عليها أي من النواب، أو الخط الثاني منهم خلوتها التي بنت عليها الكثير.

رحبت به، ومن ثم بدأت بمقدمة عن الجهد الكبير الذي يبذله في مساعدتها، وعن مشاكل البلد الكبير التي ورثها، والمشاكل الجديدة التي استحدثها السياسيون الجدد، ولابد من سن مجموعة قوانين

تحصن المواطنين، وتستجلب لهم حقوقهم من الحكومة التي أغلبها من ذوي الجنسيات المزدوجة، بل وأن أغلب الوزراء عوائلهم خارج البلد، في الوقت الذي يخرجون من خلال شاشات التلفزيون، يبكون ويتباكون على الوطن الجريح، وعن الإرهاب الذي يعصف به، وعن الشعب الذي مزقته الطائفية.

كانت إجاباته أغلبها بنعم، مع بعض الإيهام عن الفقرات الأخرى، وما أنتجه البرلمان من قوانين تخص البرلمانيين دون المواطنين، ثم طلبت منه:

- أريد منك أن تجد لي مشروع قانون للأرامل والمطلقات والثكالى.
- لا يمكن إيجاد مثل هذا المشروع، لأن الدستور يقول في الباب الثاني من الفصل الأول (الحقوق) المادة (14)، إنَّ العراقيين متساوون أمام القانون دون تمييز بسبب الجنس، أو العرق، أو القومية، أو الأصل، أو اللون، أو الدين، أو المذهب، أو المعتقد، أو الرأي، أو الوضع الاقتصادي، أو الاجتماعي.
- أنت لا تعرف ما تعانيه المطلقة من ألم، وبالخصوص عندما يجن الليل عليها دون زوج يدفئ فراشها، أو طفل يؤنس وحدتها.
- أعانها الله على ليلها الموحش...
- والأهم، أن المرأة لا تشعر بوجودها إلا من خلال الرجل.
- هما قرينان لبعض، أحدهما يشعر الآخر بالحياة، وبوجوده.
- طيب. اسمح لي بسؤال خاص.
- تفضلي، أنا بالخدمة.

ـ لماذا لم تتزوج حتى الآن؟.

ـ لم تكن الظروف لتساعدني، والأهم أن أبني نفسي ومستقبلي وبعدها أفكر بالزواج.

ـ ولكنك تمتلك شهادة الماجستير، وأنت معيد في الجامعة وإن لم يصدر بعد أمر تعيينك، بالمناسبة أنا كلمت لك وزير التعليم العالي والبحث العلمي، وسيصدر أمرك قريباً.

ـ شكرا جزيلا لمساعدتك، أنتِ صاحبة فضل في كل ما تقدمينه لي، وفيما يخص زواجي، فأنا لم أجد حتى هذه الساعة المرأة التي تثير انتباهي، وتستفز قلبي، وتلهب مشاعري...

ـ يبدو أنك عديم النظر، ولا تقيم الأشخاص الذين يهتمون بك.

ـ عفوا سعادة العضو، لم أقصد ذلك أبدا، وإنما العين لا تعلو على الحاجب...

ـ أية عضو، أرجوك أرفع الألقاب بيننا، نحن الآن في جلسة مكاشفة، جلسة إنسانية بعيدة عن العمل، أريدك أن تأخذ راحتك تماما وتتكلم بما يجول في داخلك.

ـ لا أفهم ما تقصدين !!...

ـ أريد أن أتكلم مع شخص عن همومي الشخصية لرجل يقدر ذلك، دون أن يضع في اعتباره كوني عضو برلمان، ورئيسة اللجنة القانونية، أفهمت ذلك؟

ـ نعم. أنا بخدمتك تكلمي عما تشائين وستجدينني طوع بنانك...

ـ لا أريدك هكذا، بل أن تجادلني وتختلف معي.

ـ عفوا لا أستطيع ذلك، فأنا أعمل عندك، وما تقولينه يجب أن نعمل عليه.

ـ ولكني الآن لستُ في جلسة عمل، وإنما في جلسة خاصة مع شخص أحترمه، وأريد رأيه.

ـ أنا بالخدمة. تفضلي، وكلي آذان صاغية لسعادتك.

ـ ناديني باسمي كما أناديك باسمك.

ـ لا يمكن ذلك.

ـ بل ممكن.

ـ حاضر. تفضلي.

ـ توفيق. إن الليل يأكلني بوحشته، هل الليل يؤذيك بوحشته.

ـ لا، أنا في الليل أقرأ، ولا يوجد عندي فراغ نهائياً.

ـ من يخدمك ويقوم بأشيائك؟.

ـ عندي أمي وأختي تقومان بواجبي.

ـ وهل يمكن لهما أن يعرفا خصوصية الرجل مثل الزوجة.

ـ بالتأكيد لا، ولكن ليس بالإمكان أحسن مما كان.

ـ هههههه هذه مقولة رأس النظام السابق.

ـ بل هي حكمة فلسفية، وليست له.

ـ والحل في رأيك، كيف أقضي على وحشة الليل؟.

ـ إن سمحتِ لي أن أقترح عليكِ أن تتزوجي.

ـ أعرف ذلك، ولكن أنت قريب من مجلس البرلمان، وتعرف الرجال بين متزوج وطامع، بل إن الكثير منهم طلق زوجته القديمة، وتزوج من جديدة من سن بناته.

ـ أخاف أن أعلق، فتغضبي.

ـ أرجوك خذ حريتك فيما تريد قوله.

ـ هو نكران للجميل من قبلهم اتجاه زوجاتهم اللاتي وقفن خلفهم، وما أن صعدوا إلى البرلمان حتى أرادوا أن يغيروا كل شيء حتى زوجاتهم، وكأنهن لباس عتيق لا يتماشى مع الوضع الجديد للنائب الجديد.

ـ باستثناء النساء.

ـ حتى الأعضاء النساء، فقد انفصلن عن أزواجهن، هل تريدين أن أعدَّ لكِ أسماءهنلا؟.

ـ أعرف، لا داعي لذلك، ولكن الفرق أنهن أنجبن أولادا، وهن الآن في عقد الخمسين، أما حالتي فأنت تعرف أنا مطلقة وليس لي أولاد يسلون حياتي المقيتة، وبالخصوص في هذا الليل الموحش في بغداد.

ـ عندك حق، لابد أن تتزوجي.

ـ الحمد لله أنك نطقتها.

ـ سيدتي، إن سمحتِ لي بهذا القول، مهما حاولتِ إن تزيلي الحواجز بيننا، يبقى الأمر في أنني أعمل عندك، وبالتالي لا يمكن أن أتجاوز

منذ بدء حديثك، وأختصره بالقول تزوجي، كنت أريدك أن تفرغي ما كان يرهقك.

ـ يعني أنت تعرف ما أريد.

ـ الذي فهمته من حديثك، أنك تعيشين وحدة قاتلة، وتريدين أن تنتهي من هذه المشكلة بالزواج.

ـ الحمد لله أنك فهمت ما أقصده.

ـ نعم، فهمته منذ اللحظة التي جلسنا بها، ولكن ليس بيدي الحل، فأنا أستطيع أن أصيغ لك مشروع قانون، أو أرفض، أو أقبل مشروع مقدم من أحد النواب في كونه مطابقا، أو مخالفا للدستور، ولكن لا يمكنني أن أجد حلا لمثل هذه المشكلة.

ـ يبدو انك لم تفهمني أبدا.

ـ أنا بخدمتك سيدتي.

ـ يجب أن أنهي الجلسة، نلتقي في الموعد المقرر في مثل كل مرة.

ـ على الرحب والسعة، اسمحي لي.

قالت في سرها (هل يعقل أنه فهم قصدي، وتغابى عنه، أو أنه حقيقة لم يفهم ما أصبو إليه)، ربما تغافلت العضو النائب، إن ما تزرعه من خوف، وتسلط في قلوب الناس، لا يمكن أن يمحى من جلسة واحدة، وإن القسوة والتسلط على رقاب الناس، ليس من السهل محوه، وتحول ذلك التسلط إلى علاقة على مستوى من الندية والتكافؤ.

عاد توفيق إلى أهله، وهو منتشي، بعد أن كان عرض النائب صباح

واضحا، بطلب الزواج، لكنه تغافل عنها من أجل أن يعطي لنفسه فرصة التفكير، واتخاذ القرار الصحيح، وفي الوقت نفسه يأخذ رأي أمه التي كانت السبب من وراء وصوله إلى ما وصل إليه.

رفضت الأم العرض المقدم من قبل النائبة لابنها، وطلبت منه أن يقترن بزوجة باكر، وليست ثيبا، فلا مبرر لذلك، فالمال، والسلطة رأس مال متنقل، ومن الغباء أن يقضي الإنسان عمره في الركض وراء سراب، لم يتحول إلى حقيقة أبدا، والنقطة الثانية، إن مثل هذا النوع من النساء اللاتي استطعن أن يصلن إلى البرلمان العراقي وسط هذا الموج الصاخب من الأوضاع المزرية في البلد لهي امرأة قوية قد تودي بالرجل إلى التهلكة، وبالتالي فإن أي خلاف بين الرجل، وزوجته يكون غير محمود العواقب، والأهم أنه شاب، والمستقبل زاهر أمامه وهو غير مجبر على الزواج من امرأة تكبره سنا ومالا وسلطة، أما أخته، فكانت مع الرأي الذي يقول الحياة حقل تجارب لا ينتهي، وما على المرء إلا أن يحسن الاختيار في التجربة التي يقدم عليها، والأهم إن الإنسان مسلوب الإرادة، يقوده قدره إلى حيث يريد، وما الإنسان إلا أداة طيعة بيده.

ظلت الشكوك تساور توفيق، بين أن يقدم رِجلا ويؤخر أخرى، فالتردد صفة إنسانية بامتياز، والخطوات التي يقدم عليها، ستكون محض اختيار، نتائجه مرة تكون من رجم الغيب، ومرة تكون متوقعة ضمن استراتيجية مدروسة، وكثيرا ما كان يتداخل الرجم مع الحسابات العلمية، وكثيرا ما كانا يتنافران، أغلق موبايله، في يوم اللقاء المتفق عليه في اجتماعهما الدوري مع النائب صباح، عاد أحد أصدقائه، وهو في الوقت نفسه أستاذه، ومشرفه في رسالة الماجستير سابقاً، طلب منه

الرأي، والنصيحة فيما قُدم له من عرض، وكان الأستاذ واضحا معه، في أنه إن كان انتهازيا فعليه أن يغتنم هذه الفرصة من أجل تحقيق طموحاته المشروعة بطريقة غير مشروعة، وهو ركوب الموجة، والضغط على مشاعره في كونه شابا سيدفن نفسه في حضن امرأة ربما هي عاقر إذ لم تنجب من زواجها السابق، أو هي يابسة كونها نتاج عملية سياسية ذكورية بامتياز، وما النساء إلا إطار يجملها، وفي كونها أكثر منه مالا وسلطة، وهي من محيط ثقافي غير المحيط الثقافي الذي نشأ فيه توفيق، إضافة إلى الفارق العلمي الذي بينهما.

أما إن كان شابا طموحا يصعد سُلم الحياة درجة درجة، دون أن يستعجل الأشياء قبل نضجها، فأنه من الأولى أن يرفض طلبها، ويستمر في دراسته وصولا إلى دراسة الدكتوراه ومن ثم يتحول إلى فقيه في القانون الدولي، فالمجتمع العراقي، والعربي، والعالمي في انحدار مستمر والمشاكل تزداد كل يوم، ما يعني أنَّ له مستقبلا زاهرا في خضم الأوضاع الإقليمية، والعالمية المتلاطمة، وليقترن بزوجة بمستواه العلمي، أو مقارب له على أقل تقدير.

ظلت الشكوك تساوره في أي خطوة يقدمها، أو يؤخرها، فالفرصة في اعتقاده لا تأتي إلا مرَّة واحدة، ونسي أو تناسى أن الفرصة تأتي دائما، ولكن الفرق في اقتناصها، ومستوى اليأس الذي يتصاعد في الإنسان مثل الزمن، أو المرض الدائم، ليعتقد أنها لا تأتي إلا مرة واحدة، لكن ما يشفع عند نفسه رغم علميته، وتفقهه بالقانون أن التراث الشعبي يقول حكمة (تزوج التي تحبك، ولا تتزوج التي تحبها)، هل يجرب، وما ضرَّ التجريب شيئا، أن يتزوج منها، ويضع الشروط التي تحميه منها إن

أراد الانفصال عنها، وأن يتم دراسته، وينجب طفلا واحدا من أجل بناء حياتهما بطريقة صحيحة.

حضر الاجتماع الشخصان فقط دونه، وعندما سألتهما عن غيابه، لم يكونا يملكان جوابا، باستثناء أن موبايله مغلق، ما جعلها أمام أمرين، أما أنه علم قصدها فرفضه، وأراد أن ينهي علاقته، والعمل الذي يربطه بها، وأما أن أصابه ظرف طارئ منعه من الحضور والاتصال، أو أن هناك شيئا غامضا لا تعرفه وإياهما.

مرّت على غيابه ثلاثة أيام، وموبايله مغلق، وهي لم تتوانَ عن الاتصال به باستمرار وكان الرد ميكانيكيا: الجهاز مغلق أو خارج منطقة التغطية، يرجى الاتصال في وقت لاحق... فكرت أن تذهب إلى بيته لتطفئ ظنونها التي بدأت تلعب بها، وكانت تبني أملا على أن يكون السبب الرئيس من وراء غيابه هو إعطاء نفسه مهلة للتفكير، بعد أن تيقنت أنه قد علم مرادها من الجلسة السابقة، وإنما لبس ثوب الاستغفال من أجل التفكير، فالزواج قرار مصيري، ولابد من التريث في الإقدام عليه. لكن كبرياءها منعها من الإقدام على مثل هذا التصرف الصبياني، أو المراهق وهي نائب في البرلمان، ورئيس اللجنة القانونية التي تتحكم في مصائر الشعب العراقي كله.

عندما حان اجتماع لجنة الظل القانونية، كان هو حاضرا، وعندما رأته من بعيد تهلل وجهها بحضوره، حتى إذا ما وصلت إليه، كانت نظراتها استفسارية عن غيابه، وردَّ عليها بنظرات مبتسمة تعلمها القبول، سلمت على الجميع، وجلست، وبدت أمامه أكثر حزما، وسألت توفيق عن سبب غيابه، وغلق موبايله، أخبرها أنه كان أمام حدث تاريخي ربما يغير حياته إلى حياة أفضل، وكان لزاما أن يتريث ليأخذ القرار الصائب.

كان هذا الكلام يشعرها بالسعادة، والوجود، فقبلت اعتذاره، وأرادت أن تنهي الاجتماع بأسرع وقت على الرغم من كثرة المشاريع التي حولت إليها من قبل رؤساء الكتل، وبعض النواب المستقلين، فأعطت كبيرهم محاضر المشاريع، وطلبت منهم أن يدرسوها، فإن كانت متوافقة مع الدستور، كان لزاما إقرارها، وإن كانت مخالفة كان لزاما رفضها، وأن كانت تحتاج إلى التعديل عمدوا إلى ذلك، ثم أنهت الاجتماع وطلبت من توفيق أن يبقى معها، وسمحت للآخرين بالانصراف، قالت له والشوق ينط من تعابير وجهها:

ـ تأخرت كثيرا... (وعيونها تود أن تخرج من محاجرها)؟

ـ لابد أن آخذ الوقت الكافي. مثل هذه المواضيع تحتاج إلى قرار مفصلي (وكان حازما في كلامه).

ـ والى ما وصلت؟ (كانت وجنتاها بين اللون الأحمر والأصفر، وكأنها مراهقة في سن السادسة عشرة).

ـ لابد أن أخبركِ بشيء قبل أن أخبرك بقراري. كنت أعرف ما تقصدينه منذ لقائنا الثنائي، ولكني لا أقدم على خطوة مصيرية قبل أن أتأكد من كل شيء، (كان يتعمد المماطلة، لأن كلمة نعم تعني تحول الموضوع من ملعبه إلى ملعبها، ولذلك قرر أن لا ينطقها إلا في اللحظات الأخيرة والحاسمة).

ـ من ماذا تريد أن تتأكد. وهل تأكدت؟ (كانت كلماتها ممزوجة بين العصبية والاسترخاء، فهي تريد أن تتزوج اليوم قبل الغد، ولكن ليس لها إلا أن تصبر وتصابر عليه، فهو فرصة ذهبية لامرأة في عمرها).

ـ هل لديكِ أولاد من زوجك السابق؟ (أصابها بمقتل، فهو يعلم أنها لم تنجب طفلا منه، ولكنه كان يقصد كسر جبروتها، وفرض سيطرته عليها منذ البدء).

ـ لا أبدا. لم أنجب منه، فزواجنا لم يدم طويلا (شعرت بالانكسار، وربما علمت أنه يقصد إذلالها، وإنها قد انكشفت على غيره بطريقة شرعية)

ـ وما سبب عدم الإنجاب؟ (أراد الإسراف في تصرفه، وشعر من خلال عينيها، إنها تعلم ما يذهب إليه من وراء القصد).

ـ لا أعلم، ربما لم أكن متهيئة نفسيا للزواج، ومن ثم الإنجاب، وربما كان السبب من ورائه هو وليس أنا (شعرت بالإحباط في كونها من المحتمل أنها لم تنجب، وربما السبب بها، ولم تتبع أخبار زوجها السابق حتى تعرف إن تزوج وأنجب أم لا).

ـ أين سنتزوج؟ من غير المنطق أن نعيش في سويت داخل فندق الرشيد، ومن المستحيل أن تعيشي في بيتنا، لأنك نائب ورئيس لجنة، يعني ستغلق الشوارع، لتلعننا الناس عند كل أذان (منذ البدء كان يريد أن يظهر لها وضوحا تاما في علاقته الزوجية، وبأن مستواه المعاشي لا يوازي مستواها المعاشي ويجب أن تتكفل بكل إفرازاته من أجور، وسيارات وغيرها من متطلبات الحياة الجديدة).

ـ نستأجر بيتا ونعيش فيه أسوة بالآخرين (علمت أنَّ كفتها أوطأ من كفته، فهو الشاب، والمتميز، ودائم الصلاحية، على العكس منها، والتي لم يبقَ من صلاحيتها إلا سنوات معدودات تأمل من ورائها أن تحصل على كلمة ماما، وبيت الزوجية الذي يحقق لها الدفء على العكس من ملايين الدولارات التي زادت حياتها جحيما).

ـ أهم شيء أهلي، أمي، وأختي، لا أستطيع الإخلال بالتزاماتهما، وأفضل عدم الارتباط على التنصل عن الوفاء لهم (شعرت بالحزن الشديد، وقد تركت والدها وسط الحيوانات الأليفة، ولم تفكر أن تأخذه معها إلى حيث حياتها الجديدة، أو تزوجه، أو حتى تترك من يخدمه، وقد أهمل مثل الكثير من الأشياء التي أصبحت غير ضرورية في زمن الإيقاع السريع والاستهلاك).

ـ نعم.

ـ تتقدمين بطلب التفرغ للجامعة وأنتدب كمستشار قانوني للجنة القانونية البرلمانية التي تترأسينها، من أجل البقاء قربك (وكان يقصد من وراء طلبه، أن يصل الى أغلب الجهات السياسية ويقيم علاقات قد تنفعه في المستقبل وتحصنه عند أي طارئ).

ـ أتمنى ذلك (وكانت تشعر بسعادة من وراء طلبه، وقد شعرت بغيرة الرجل تجاه حريمه، ولم تدرك مآربه من وراء طلبه هذا).

ـ يجب ان يكون المقدم والمؤخر وكل متطلبات الزواج بما يتناسب ووضعي المادي (أراد ان يشعرها انه غير طامع بها).

ـ لا تحمل هم لكل شيء أنا أتكفل بكل شيء (قالتها بعاطفة المرأة الغبية التي تريد الاستحواذ على الشيء دون ان تفكر بعواقب الكلام الذي نطقته).

ـ هذا لا يجوز أبدا (أنتفض من مكانه واقفا، وهمَّ بالذهاب).

ـ أنا آسفة جدا لم أقصد الإساءة (ثم مسكت يده وقد سرى في جسدها شيء من الدفء وسحبتها الى الأسفل)... الزواج تعاون، ولا بأس أن يتعاون الزوجان على صعوبة الحياة.

ـ من البدء لا بد أن يعرف كل منا واجباته وحقوقه (وبداخله كان يعرف أن الزواج غير متكافئ، وكان لابد أن تتحول مقاليد المال، والصرف إليها، ولكن كان لا يريدها بهذا الشكل المعلن، أشعره أسفها بنوع من التعالي عليها، بعد أن كان يقدم لها فروض الطاعة في عمله).

ـ هل يناسبك أن أتقدم لخطبتك الخميس القادم (وكان يعرف كيف يعزف على الوتر الذي يطربها، ويجعلها أكثر طواعية وليونة بيده).

ـ فقط أمهلني اليوم كي أتصل بأخوتي، وأبي، وأهيئهم لذلك.

ـ وأنا كذلك لا بد أن أهيئ نفسي وعائلتي لهذا اليوم...الى اللقاء.

ـ أنتظر... سيوصلك أحدهم الى حيثما تريد.

ـ نظر إليها (بقصد التذكير بالاتفاق الذي أبرم حالا)، ثم تركها، والابتسامة على وجهه، وقد بادلته هي بنفس الابتسامة.

لم تطل الانتظار بل اتصلت بكل من حسون، وجبار وحددت معهم موعدا كي يلتقيا ليل اليوم، ومن ثم أخبرتهم بأن أحدهم يروم التقدم لخطبتها في الخميس القادم، ويجب ان يكونا موجودين لإتمام الموضوع، وأخبرتهم بأن لا يحرجا العريس بأي أسئلة، ويجب ان تكون جلستهم أريحية سمتها الضحك، والحلم بمستقبل زاهر، وإن جرى عكس ذلك فأنها لن تغفر لهما تلك الخطيئة، أخبرتهم بصراحة أكثر أنها فرصتها الأخيرة، فالمال والسلطة، لم يجعلا منها زوجة، وحبيبة، والأهم أن تكون أم، أنتم تتمتعون بكلمة بابا، وقد ضمنتم لهم مستقبلا زاهرا، ولابد أن تساندوني في ذلك أرجوكم. طمأناها على ذلك، بل

وطلبا منها أن تسمح لهما أن يقدما يد المساعدة له، لكنها رفضت، وطلبت منهم أن تكون مهمتهما محددة وهي الموافقة فقط.

* * *

في صباح اليوم التالي شدت الرحال إلى كربلاء، من أجل تهيئة بيت أهلها، وكذلك لتخبر أباها، وأخوتها خالد، وناهض بالموضوع، وكانت المأساة، فقد وجدت أباها بلحيته الكثيفة، وملابسه الرثة، وقد عاد مثل أي مراهق من جديد، ولكن دون حيوية، فهو رجل ناهز السبعين بقليل، ولم تعد لديه القدرة على خدمة نفسه، فكان البيت عبارة عن منفىً لرجل أعزب، أو لفقير مقطوع العقب، لا تتعدى وجبته عن صحن بلاستيك (سفري) فيه بقايا رز مخلوط بالمرق، وبقايا رغيف لم يجد الأسنان القوية كي تقضمها، ملابسه الوسخة المتراكمة عند كل الزوايا، الغبار الذي سكن أغلب أنحاء البيت، حتى أن القادم لا يستطيع أن يضع يده على أي مكان دون أن تتسخ.

كانت أغلب أشياء البيت بين متهالكة، أو في طور التهالك، الحنفية التي عند حافة الممر، كانت قد تركت بقعة كبيرة من خيط الماء المستمر، زجاج الباب الداخلية عند المدخل قد انكسر بعضه، ما جعل بعض العصافير تدخل لتبني أعشاشها، غرفة الاستقبال بطقمها الرئاسي وموائده ذات الأركان المذهبة أكلها التراب، صورة الأم، تلك المغرورة بعنفها، قد أعشوشب التراب عليها، أسوة بصورة أحد المراجع التي كانت تتوسط الجدار، الستائر الصفراء بلون الجراد، كانت زواياها مقطوعة عن حمالتها، ولم تجد من يصلحها، أما القماش الذي يقف حائلا بينها، والشمس ليمنع من في الخارج عن رؤية من في الداخل

أصفر نتيجة العواصف الترابية التي مرت على البلد دون تنظيف، سقف الغرفة كان ملعبا لبعض السحايا (أبو بريص) وقد تضخمت أشكاله حتى أصبح ينوء بثقله، وهو يمسك بالسقف عنوة، زواياها التي أصبحت بيوتا عامرة للعنكبوت، في ركن الاستقبال كان جهاز التلفزيون المغطى بغطاء أبيض مثلث الشكل لم يفتح منذ أن هجر الجميع البيت في أحلك الظروف، أو أعزها، حتى أن مفاتيح الكونترول قد أخذت غير أشكالها الدائرية وكأن عمرها الافتراضي قد انتهى، فمالت بعض المفاتيح الدائرية إلى الاعوجاج، أو الانتفاخ، أو الضمور.

عند الصالة المتصلة بغرفة الاستقبال كانت الباب الفاصلة بينهما عصية على الفتح، بعد أن تقوست الأرضية وتعرجت لتمنع انسيابيتها، ما اضطرها إلى أن تعود إلى الباب الرئيس كي تدخل إلى (الهول) الذي وجدته يشبه الاستقبال مع زيادة بسيطة في كونه قد ترامى في بعض زواياه بقايا طعام وصحون بلاستيكية، أو ربما كان في المكان الذي يجلس فيه الأب بعض الدفء المتبقي من زيارة صديق له، أو قريب تقطعت به السبل.

عندما همت بالخروج إلى الحديقة كي تتخلص من بعض العفونة التي بدت واضحة بأركان البيت كله، وجدت الحديقة قد يبست وماتت أشجار الزينة التي كانت تمثل سياجا من الألوان المختلفة، حتى أشجار الآس العصي على مغادرة إخضراره، كان يائسا يلفظ أنفاسه الأخيرة، بعد أن ضعف عضده وتفرق جمعه، وكأنه شجرة خاوية تعيش أيامها الأخيرة في صراع مع الموت.

عريش العنب الذي كان يظلل الممر الرئيس حتى باب الاستقبال يبس، ومات وأصبحت أغصانه مثل جذوع النخيل المقطع لبناء سقف بسيط

في بيت تجاوز، وهو من قبل كان يحمل ثلاثة ألوان، وأنواع من العنب، وعندما يتدلى ثمره، كان وكأنه ثريات تضيء الممر مثل النجوم في ليلة قمر غاضب آثر المغيب وأناط مهمة إنارة السماء إلى بناته النجوم، عندما ذهبت باتجاه الحديقة التي تشبه البستان الصغير، كان كل شيء وقد انهزم في معركة غير متكافئة، فقد تهاوت أوراق شجرة الحمضيات، ويبست أغصانها، وتعفنت برتقالة ظلت صامدة عند أعلى الشجرة، قلب النخيل كان قد تراكم سعفه القديم عليه، حتى أضحت عثوقه غير مرئية للناظر، وقد عشش بعض الغربان والعقعق فيها، وهي من قبل كانت تفيض على البيت والجيران، وكان أكثرها رطبا في شهر رمضان يوزع من أجل الثواب بأمر الأم، أرض الحديقة كانت مليئة بالأوراق الساقطة، وقد غطت الأنهر الصغيرة التي كانت تغذي الجميع بماء الحياة.

دخل بلبل إلى الحديقة المهجورة، وقد بدا تغريده حزينا سرعان ما غدرها هاربا من وحشة قد تصيبه، أو مكيدة قد تمسكه، كانت وكأنها حديقة قد عشش فيها الشيطان، فالأشجار جاردة من كل شيء باستثناء لحاء أسمر مائل إلى السواد، في نهاية الحديقة كانت أقفاص الحيوانات مفتوحة الأبواب، فالطيور الداجنة من أغلى الأنواع (الرواعب، والكمرلي، العرفلي، البلجيكي، الإسرائيلي) لم يبق منها إلا بقايا ريش أبيض ومرقط وأحمر مائل إلى الصفرة، بيوت الماعز الشامي التي كان يقصدها الكثير ممن يقتنون هذا النوع من أجل التزاوج وقت الربيع بدا حزيناً، بقايا بيض مقسومة نصفين جراء تسلسل جرذ أو فأر قد استرق الوصول إليها وقام بمضغ سائلها اللذيذ، بعد أن بدا بيتها مهجورا، بدا مشهد بيوت الحيوانات كأنها بقايا مدينة تعرضت للسلب، والنهب بعد

انتهاء حرب شعواء بين الموت، والبقاء، أو أصابها وباء ما دعا ساكنيها إلى الهجرة قسراً، سيارته القديمة، التي أكلها الصدأ وبدت واقفة كأنها تمثال أثري وجد بعد رحلة بحث، وعناء طويلة لم يصمد منه إلا شكله العام وقد تآكلت بعض أطرافه.

لم يكن البيت القديم على استعداد لاستقبال سكنته القدماء، وكان لابد من إيجاد بيت بديل يليق بالسكان الجدد، والطارئين، الذين يريدون الرجوع بسرعة إلى حياتهم الجديدة بكل زيفها، ولما كان بيت ناهض لا يليق بالأعضاء الجدد، وحياتهم الجديدة، فلم يكن من اختيار إلا بيت خالد الذي كان من رجالات الحياة الجديدة بثوبها الفضفاض وفرصها الذهبية، اتصلت به أخته وطلبت مقابلته على وجه السرعة، اجتمعا في البيت، وأوضحت له القصد من وراء مجيئها وطلبت منه أن يكون على مستوى اللقاء مع أهل بيت خطيبها، مثلما طلبت منه أن يرسل بطلب أبيه بعد أن ينظفه ويغسل له، ويطعمه جيدا ليظهر بالمظهر اللائق أمام الجميع، ومن ثم تركت له عشرة آلاف دولار نظير هذه الخدمة، ومن ثم عادت أدراجها إلى بغداد بعد أن طمأنها خالد على أن الأمور ستسير على ما خططت له.

كان جميع الأخوة حاضرين في بيت خالد، وهو بيت تفوق مساحته الألف متر، تتقدمه حديقة في غاية الاعتناء، يتوسط حديقتها ببساطها الأخضر أرجوحة بيضاء، وفي الجهة المقابلة منه مائدة بلاستيكية مع أربعة كراسي، يسورها سياج من نباتات دائمة الخضرة، تخترقه نشرة كهربائية بأضواء مختلفة، خلف السياج الأمامي كانت هناك بعض أشجار الحمضيات من التي تتحمل حر الصيف، وبرد الشتاء، وعند

الجهة المقابلة من السياج، كانت هناك شجرة السدر العملاقة، مع نخلة عالية هندية الأجواء.

عند غرفة الاستقبال التي كانت فارهة الطول، وتحتوي على أكثر من طقم، مع بعض التحفيات النحاسية، والفضية التي تملأ الموائد المتناثرة، يتوشح الجدار الذي يقابل الجدار المطل على الحديقة بشبابيكه ذات الزخرفة النباتية التي استوردها الحدادون من الكتالوجات السورية في الآونة الأخيرة، آية الكرسي المذهبة، مثلما يساندها من الجانبين صورة للأمام علي بن أبي طالب ويجلس تحت قدميه أسد، وفي الجهة الثانية صورة تخيلية للأئمة الإثني عشر، مع صورة له، وهو في أوج زهوه.

عندما وصل الخطيب، وأهله إلى بيت خالد بعد أن أرسلت معهم أحد حراسها كي يدلهم على البيت، كانت هي قد سبقتهم إليه، وقد أثارت مشكلة مع أخيها خالد، عن عدم سعيه لجلب أبيه من الواقع المزري الذي يعيش فيه، ورد عليها أنه لم يدخر جهدا في إقناعه، ولكنه رفض المجيء، بحجة رفضه أن يكون إطارا للآخرين من الذين أنكروه، وتنكروا له، واستعاض عنه بعمه وابنه.

كانت الجلسة بروتوكولية، قدمت فيها حلويات من الدرجة الأولى، مع صحون تنوء تحت أحمال أغلب أنواع الفواكه الصيفية، والشتوية، وكأنها مسابقة لطريقة عرض، أو استعراض لعضلات العائلة، واعتزازهم بابنتهم، رحب حسون في كونه الأخ الأكبر للعائلة، بتوفيق وعائلته، مثلما رحب كذلك عمه أحسن ترحيب، ثم بدأت المجاملات بين العائلتين، كان قد حضر مع توفيق عمه الوحيد وخاله، فردوا عليهم بمثله، ثم بدأ الكلام عم توفيق بعد أن طلب من الجميع الصلاة على محمد، وبدأ

بالديباجة المعروفة في مثل هكذا مواقف من وصايا الرسول وأحاديثه، منها من استطاع الباءة فليتزوج، وكذلك تكاثروا فإني أباهي بكم يوم القيامة. ثم تقدم بطلب يد كريمتهم صباح لابنهم توفيق، فوافق عم صباح وبارك ذلك فارتفعت أصوات الهلاهل من خلف الغرفة من النساء التي كانت آذانهن قد تدلت من رؤوسهن وهن ينتظر الموافقة.

المواقف في مثل هكذا اجتماعات كانت دائما محسومة من قبل، فالنساء يرتبن كل شيء وما الرجال إلا دمى، أو واجهة تجميلية لتلك الاتفاقات، انفض المجلس بعد قراءة سورة الفاتحة، وإتمام الخطوبة، وعاد كل إلى عمله ومشاريعه، مثلما أصبح لقاء كل من صباح وتوفيق طبيعيا لا يحمل أي مواربة، أو يتحمل أي كلام مغرض، ولما كانت صباح في عجلة من عمرها طلبت من توفيق أن يحدد يوم الزواج على أن تتم المراسيم في العراق، ومن ثم يسافران إلى أي دولة عربية أو أجنبية ليقضيان شهر العسل.

لكن اللافت في هذه الجلسة، إن جبار قد لمح أخت توفيق وهي شابة عشرينية العمر زاهرة الجسد، مدنية التصرف، جامعية التعلم، حسنة الملبس، متوسطة الطول، نحيفة الخصر، ترتدي حجابا لا يغطي من شعرها إلا خلفيته، فهي أصلا من عائلة لا تعرف الحجاب، وإنما كانت حاسرة عن شعرها قبل مجيء الإسلاميين إلى السلطة ودخول أتباعهم حرم الجامعة، وكل المفاصل المدنية في الدولة العراقية، فخاف الكثير من الناس على مدنيتهم، لا سيما النساء، فطفق الجميع يذهب إلى تصرفات رجعية من أجل الحفاظ على حياتهم، فبعد أن كانت الجامعات ميدان التحضر، والانفتاح بعلاقاتهم الاجتماعية، وسفراتهم الجماعية،

أضحت أقرب الجامعات دينية، حيث ترى النساء محجبات حتى لو كن مسيحيات، أو من العوائل المنفتحة، مثلما خصص جامع في كل كلية من أجل إقامة الصلاة، مع إقامة الاحتفالات الدينية الحزينة والسعيدة.

* * *

وكأن الشعب ينسى حاجته للكهرباء في الشتاء أو يغض الطرف عنها، ويبكي وينوح ويشتم الحكومة في الصيف، لأن صيف العراق لا يطاق، وكان وزير الكهرباء ووكيله، ومديروه العامون، فاسدين أسوة بأغلب الوزارات، دخلت السنة الثانية، والكهرباء تغيرت تغيرا طفيفا وغير ملموس، وكانت المولدات الأهلية هي العكاز التي تتكئ عليه الحكومات المحلية والمركزية، على الرغم من الفساد الذي طالهم أيضا، من خلال توزيع زيت الغاز لمولدات وهمية، استفادت منها حاشية رئيس اللجنة المسؤولة عن توزيع النفط والغاز.

فاحت عفونة الصفقة الفاسدة التي عقدها وزير الكهرباء، ووكيله مع أحد الأشخاص من الذين يدعون أنهم أصاحب شركات عملاقة، فقد ادعى أنه أنجز الكثير من المشاريع في أمريكا اللاتينية ودول شرق آسيا، وتبين أنه قد استأجر مكتبا فخما، واستقدم بعض النماذج من الشركات التي تعنى بموضوع الكهرباء، مع الرسوم التي حصل عليها من الأنترنيت، وبعض الماكيتات التي صممها له بعض المختصين، مع خلفية بسيطة عن الكهرباء والمنظومات التشغيلية.

سعى جبار جاهدا، إلى التعاقد مع بعض الشركات العالمية من جديد عن طريق السفر إلى ألمانيا وفرنسا، ولكن على ما يبدو أن محاولاته باءت بالفشل، وفي المقابل فإنه أستورد بعض محولات كهرباء مختلفة

السعات، من أجل تبديل المنظومات القديمة التي يتجاوز عمرها الثلاثين عاما، مثلما أبدل بعض الأسلاك الممتدة بين الأعمدة الكهربائية مع بعض الصيانة لمنظومة خطوط نقل الضغط العالي بين المحافظات، وكثيرا ما كان يرمي بالسبب على نقص الوقود لتشغيل المحطات الجديدة، وكذلك على الإرهابيين الذين يفجرون الخطوط الناقلة للكهرباء بين المحافظات.

مثلما طلب من أصحاب المولدات الكهربائية أن يكون تشغيلهم على مدى الأربع والعشرين ساعة مقابل وقود مدعوم السعر، مثلما طلب منهم تخفيض أجورهم ومساعدة المواطن، والبلد على تجاوز أزمته.

وقد كان لحسون الدور الأكبر في الاتفاق الفاسد بين وزير الكهرباء ووكيله، وصاحب المكتب الذي عقدت معه الصفقة، مثلما كان له دور كبير، في الفساد المستشري في توزيع الوقود على المولدات الأهلية ومثله أخوه خالد في محافظته، حتى أضحى حسون إخطبوطا في هيئة النزاهة، فهو يسلط أزلامه على البعض من الذي يخرج في الإعلام، ويشهر بالفساد، والمفسدين، فيجمع عنه الملفات الحقيقية، والملفقة في بعض الأحيان، ويقدمها إلى رئيس مجلس الوزراء، وفي الوقت نفسه يمد أذنابه في كل شاردة وواردة حتى امتلأت مصارف دول الجوار بدولاراته.

عادت صباح وزوجها من ماليزيا وكانت في غاية السعادة، والسرور، وبدأت بإجراءاته العملية للحصول لزوجها على تفرغ من الجامعة كي يكون معها كرئيس للجنة القانونية في الظل يساعدها في البت بمشاريع القوانين، وأصبح يدخل المنطقة الخضراء بحرية أكبر بعد أن سهلت له الإجراءات في ذلك، وبدأ يقصده بعض النواب من الذين عرفوا بأنه

صاحب الرأي في البت بمشاريع القوانين، في كون الدستور العراقي الجديد، والمؤقت، رغم ادعاء المدعين من أنه دائمي، كانت أغلب فقراته تنتهي بالعبارة الآتية: وينظم بقانون.

كذلك، فإن الكثير من مشاريع القوانين كانت لا تتعارض مع فقرات الدستور ولكن تتعارض مع المفاهيم الإنسانية العامة، والتقاليد البرلمانية الدولية، على سبيل المثال الرواتب الانفجارية للأعضاء، والسلف، والمخصصات ليس آخرها مبالغ القرطاسية، ومنظومات الأنترنيت، والدراجات الهوائية، وغيرها الكثير من المشاريع التي وإن كانت لا تتقاطع مع الدستور ولكنها تختلف مع التقاليد البروتوكولية للبرلمان، والبرلمانيين العالميين.

بدأ ينظم لهم بعض مشاريع القوانين، وعندما تعرض على رئيس اللجنة القانونية التي هي زوجته، يمررها مع بعض التعديلات، وبالخصوص الغطاء القانوني لبعض الاستثناءات التي تصدر من مجلس رئاسة الوزراء، مثل بدل تعويضات عن الفيضانات والأمطار الغزيرة، والجفاف، وقلة الأمطار، وتعويض ضحايا الإرهاب، إذ كان البعض من مجلس الرئاسة يقصده لما عرف عنه في كونه داهية في القانون، وعنده القدرة أن يوظف بعض فقراته لما يخدم المصالح المشتركة للجميع، وهكذا تنازل توفيق عن حلمه في أن يكون دكتورا في الكلية، ومن ثم حلمه في أن يصبح عميد كلية الحقوق صعودا إلى أعلى المناصب، وطفق يزيد ويملأ خزينته الخاوية بالدولارات الأمريكية، حتى امتلأت، فغيرت حياته وأهله، وبدأ يحول أمواله إلى غير منقولة، بشرائه للعقارات، والبساتين، والأسهم في البورصة خارج الحدود العراقية.

في أحد الأيام اتصل به جبار وطلب منه أن يلتقيه لأمر يعده ضروريا، وكانت مثل هذه اللقاءات دائما ما تتم في فندق الرشيد لحساسية مكانتهما، وخوفهما من أن يلتقيا خارج المنطقة الخضراء لما فيه تهديد لحياتهما الشخصية، وخوفا من أن يتسرب ذلك اللقاء إلى الفضائيات والإعلام لا سيما أن العالم اليوم يموج بالصورة الفوتوغرافية المجانية، ولربما يلتقط لهم صورة في أي مكان عام لتؤول بأنه تم الاتفاق بين وكيل وزير الكهرباء وزوج رئيسة اللجنة القانونية صفقة من أجل عدم استجواب وزير الكهرباء، أو غيرها من الإشاعات.

تقصَّد جبار أن يكون حاضرا قبل الموعد المقرر بقليل من أجل أن يحتفي بتوفيق ويستقبله بحرارة أكثر، ولما كان توفيق يعرف عنه الكثير من خلال أخته، فقد عرف أن من وراء هذا اللقاء صفقة مشبوهة، أو غاية يقصدها جبار، بدأ جبار يسأل توفيق عن وضعه الصحي، والمالي وعن أهله، والأخير يرد عليه بأحسن التحية، مثلما سأله توفيق عن السياسة والمحاصصة، والطائفية، حتى أضحى الكلام غير مجدٍ، فالمجاملة دائما تفضي إلى تضخم أشياء صغيرة على العكس من الوقاحة التي تفضي إلى تصغير أشياء كبيرة، لكن الصراحة هي من تجعل الأشياء في أماكنها.

ولما كان جبار بارعا في الوصول إلى غايته، فقد بدأ يشكو له عن وحدته التي يعيشها على الرغم من أنه متزوج من امرأتين، اللتين رفضتا المجيء معه إلى بغداد، وفضلتا العيش في بيوتهن لحياة آمنة، ومستقرة، بدل اللحاق بالزوج وصونه من الانحراف أو الحاجة النفسية، والجسدية، والأهم أن تكون الزوجة مع زوجها أينما حل، بل أن زوجته الثانية ترفضه نفسيا ولكن وفاءً لأخيه المرحوم أبقاها على ذمته، (وكان

توفيق يستمع له بقرف، دون أن يعرف غايته من هذه المقدمة الطويلة عن مشاكله الشخصية)، ورد مبتسما على شكواه...

ـ هل تريدني أن أشتغل لك خطبة؟!!.

ـ هذا شرف، ولكن مقامك عالٍ، وأنت صديقي، ونسيبي، وأنا أعتز بذلك جداً.

ـ طيب ماذا تريد مني بالضبط؟.

ـ أن تساعدني بما أنا مقدم عليه.

ـ أن كان باستطاعتي فأنا برسم الخدمة.

ـ نعم هو باستطاعتك.

ـ وكيف ذاك؟.

ـ بدون مقدمات، أود التقدم لخطبة أختك.

ـ ماذا قلت... أستاذ جبار أنت متزوج من اثنتين، وتريد الزواج من ثالثة.

ـ ربما أنت لا تعرف الطريقة التي تزوجت بها من الأولى والثانية.

ـ مهما تكن الطريقة التي أدت إلى ذلك، المهم أنت متزوج من اثنتين، هل تريد أن تصبح (سي السيد) هذا فقط في المسلسلات العربية.

ـ أستاذ توفيق فقط أسمح لي أن أوضح وجهة نظري، أريد بعض الوقت منك ان سمحت.

ـ تفضل.

ـ أولا، لابد من أنِ تعرف أنني لم أتزوج من امرأة باكر أبدا.

ـ أنا تزوجت أختك وهي ليست باكرا.

ـ وقد ساعدتك في ذلك، وسهلت لك الأمر، وأقمت لكم حفل استقبال من المطار وحتى بيتكم الجديد.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أنا لا أقصد شيئا، أنت حساس وتأخذ الكلام على غير محمله، أرجوك دعني أكمل كلامي، ومن ثم لك أن تفتي بالجواب بعد ذلك.

ـ تفضل.

ـ زوجتي الثانية كانت أقرب إلى الصدقة منها إلى الزواج بين شخصين، وربما قد روت لك أختي عن قصة وفاة أخي الأكبر في حادث سيارة، وبقائها وحيدة، وعندها طفلان، وكانت الحياة صعبة في زمن الحصار، والسرقات، والنهب، والسلب.

ـ أعلم ذلك، فقد روت لي صباح ذلك.

ـ أنا اليوم وضعي المادي ربما تعرفه أنت، ووضعي الاجتماعي غني عن التعريف، وأريد زوجة تبدأ معي صفحة جديدة لحياة جديدة ملؤها الحب والأمل، وسأكتب لها بيتا باسمها، وأشتري لها سيارة آخر موديل، وتسافر معي إلى كل دول العالم، إلى الجزر، والسواحل، إلى كل الأماكن التي شاهدتها من خلال الشاشة التلفزيونية، سأحقق لها كل أحلامها وحتى التي لم تحلم بها.

ـ الموضوع ليس موضوع مال، وأملاك، وسيارات، فأنت تعرف وضعي المادي أيضا، وقد تغير الحال لما أملكه من نباهة قانونية، إضافة إلى راتبي من البرلمان والإرث الذي استلمته أمي عن تركت أبيها (قبل أن يتم كلامه قاطعه جبار).

ـ نعم نعم أعرف ذلك، حتى أن حسونا سألني في أحدى المرات عن التغيير المالي الذي أصابك، وأخبرته أنه قد ورث بساتين عن طريق جده، ما جعل وضعه المالي في أحسن حال.

ـ أشكرك (وقد علم توفيق أن من وراء هذا التنويه تهديدا مبطنا قصد أم لم يقصد جبار، لكنه أصاب الهدف).

ـ أطلب منك طلبا بسيطا.

ـ تفضل.

ـ أن تسأل أختك، بطلبي، وتساعدني على إقناعها، وستكون فترة الخطوبة كفيلة بمعرفة أحدنا بالآخر.

ـ يجب أن أخبرها بطلبك، ولها أن تقبل أو ترفض.

ـ شكرا لك أيها الصديق والنسيب.

ـ على الرحب والسعة.

انفض اللقاء، وطلب توفيق الأذن بالذهاب، وطفق يفكر بهذا المشروع الجديد، وهل هو في مصلحته، وأخته وأهله، أو انه يضر بها ويجب أن تنتظر الفرصة المناسبة، فالأنثى في البلاد العربية لا تختار وإنما تنتظر من يختارها، وربما لا يختارها أحد فتكبر لتنضج وتتعفن في غصنها دون ان يقطفها أحد، وربما يأتيها من تعفنت خاصرته، وله خلف ويريد من تؤنس وحدته مثل جهاز التلفزيون، أو الراديو، لم يطل التفكير، فعاد مباشرة إلى البيت وطلب من أمه وأخته أن يجلسا، وقص عليهم ما دار من حديث مع جبار، والأمر متروك لكما أن تقررا بما يجب.

لم تطل (سلوى) التفكير، بل كانت كأخيها واضحة الهدف، وأخبرته في اليوم التالي على موافقتها ولكن بشروط، وطلبت منه أن يحدد لهما لقاءً في البيت بحضوره وأمها، لكي تكون الأمور واضحة منذ البدء، لكن توفيق طلب منها التريث، أو على الأقل يخبر جبار بأن الفتاة تفكر، وطلبت مهلة أسبوعين كي تتخذ القرار الصحيح، لأنه قرارها ويحدد مستقبلها، على العكس منه في كونه خاض أكثر من تجربة، وليس لديه ما يخسره، على العكس من الفتاة التي لا تمتلك سوى شرفها المتمثل ببكارتها، وبعض النضارة العشرينية.

لم تكن الأسبوعان تنقضي حتى طلب جبار من أخته صباح أن يزورا بيت أهل زوجها، ولم تتعجب صباح ذلك، بل عرفت مغزاه عندما أخبرها أخوها معاتبا عن عدم زيارتها لهم بعد الزواج سوى مرة واحدة، وكان من الأفضل أن توادد أهل زوجها، فهم البيت الآمن، والعائلة الثانية لها بعد أن هجر الجميع بيتهم في محافظتهم الأصلية.

وعندما انتهت المهلة اتصل جبار بتوفيق يطلب الرد على طلبه، فرد عليه بالقول أن يحضر اليوم بمفرده من أجل وضع الخطوط والنقاط في لوحة حياتهم القادمة ولتكون أهداف اللوحة التشكيلية التي سيرسمها مع أخته واضحة المعالم، ولا تحتاج إلى تفسير في كونها تنتمي إلى المدرسة الواقعية، ضحك جبار من رد توفيق، وقد حول الموضوع إلى لوحة تشكيلية من الألوان والنقاط وهو لا يفقه شيئا فيها بل يكره حديث المثقفين، والإعلاميين وكثيرا ما كان يتجنبهم، ويبغض لقاءهم.

جلس الجميع في غرفة الاستقبال، وطلب توفيق الوضوح من الطرفين في تحديد ما يريده كل منهما، فرد جبار: إنا مستعد لكل الطلبات، قالت

سلوى على استحياء وهي لم تعتد من قبل الكلام مع الرجال على الرغم من أنها على علاقة طيبة مع زملائها في الكلية.

ـ هل ستخبر زوجتيك بالأمر (كانت ضربة قاضية بالنسبة له، ولم يتوقع أن يكون السؤال الأول بهذه الجرأة).

ـ عندما نتفق على جميع التفاصيل سيحدد ذلك الأمر (رد عليها، بعد أن بلعم قليلا، وشرب جرعة من الماء).

ـ أريد أن تكتب بيتاً باسمي ضمانا لحياتي التي سأبدؤها معك، وقد بدأت أنت حياتك من قبل مع غيري (وكانت الضربة القاضية الثانية، على الرغم من قدرته على المفاوضة وصولا إلى هدفه ولكن يبدو هذه المرة الأمور تجري على غير ما يشتهي).

ـ لقد أوضحت للأخ توفيق الظروف التي أجبرتني على ما مضى من الزواج. وكانت رغبتي أن أكتب لك بيتا باسمك كعربون ومهر لعينيك.

ـ ولكنه أمر واقع.

ـ كلامك صحيح، ولكن بودي أن تعلمي أنني لا أملك من الأولاد من صلبي إلا ولدا واحدا.

ـ ليس هذا مهما، فأنت تتكلم عن الموت والإرث، وأنا أتكلم عن الحياة، وهذا فرق كبير بين ما تقصده، وما أذهب إليه (ولكنها فرحت بسرها، فقد تصورت أن له من الأولاد ما ينغص عليها حياتها ويقتسمها ورثها الذي ترنو إليه).

ـ أريد منك أن تتركني أتم دراستي فأنا في السنة الرابعة، وأن تؤمن لي

حياتي، فأنت من عائلة كبيرة، على عكسنا فنحن أربعة مع والدي الذي توفى رحمه الله، ما قد يدخلني، وأهلي بمشاكل نحن في غنى عنها.

ـ ألم أقل لك ذلك.

ـ أعود وأقول لك، أنا لا أقصد ما بعدك، بل في وجودك، أريد ضمانة مصرفية، وعمارة صغيرة مع سيارة كما وعدت أخي بذلك، وأن يكون زواجنا في أحدى الدول الأوربية، وأن لا تستعجلني على الإنجاب (وكانت تقصد في طلبها الأخير، بعد أن علمت رغبته، بل وحاجته الماسة لولد يكون سندا له، ووريثا جاء للدنيا برغبته).

ـ أنا موافق على كل شروطك باستثناء الطلب الأخير، فأنا أريد أن أنجب ولدا من امرأة لم تنكشف من قبل على غيري، كما في زواجي الأول والثاني.

ـ بان الحياء على وجه سلوى، وطلبت الاستئذان من أجل إحضار العصير.

ـ أنا آسف، لم أستطع السيطرة على نفسي، أعتذر منكم.

ـ (ثم وجه الكلام للأم: أنا آسف ماما على ما بدر مني من كلام غير لائق)، لكن الأم لم ترد عليه واكتفت بالإيماءة برأسها.

ـ لا بأس عليك صديقي (أراد توفيق أن يجعل الموضوع طبيعيا، وإن ما تكلم، به لا يخرج عن حدود الأدب، وإنما كان زلة لسان غير مقصودة).

أتفق توفيق مع جبار على أن يكون الزواج بعد امتحانات نصف السنة، وهي مهلة كافية للطرفين، لجبار كي يحقق طلبات خطيبته، ويحول

سند الملكية لما طلبته باسمها، ويخبر زوجتيه، بما يريد الإقدام عليه، ولسلوى كي تتم امتحاناتها، وتكون قد تهيأت نفسيا لاستقبال الوضع الجديد، فالدنيا مقبلة عليها، ولابد لها أن تكون مستعدة للحياة الجديدة بكل مجدها.

لم ينقضِ الأسبوع الأول حتى بدت العلاقة مرنة بين الطرفين، وبدأ جبار يطلب لقاءها خارج حدود البيت، وبالخصوص بعد أن قرأ الفاتحة مع أخيها، وستتم خطبتهما بشكل رسمي في الأسبوع المقبل، وكان اللقاء الأول بينهما في مكان متميز، وبدأ يتذلل لها، وهي في كامل جمالها المغري، باستثناء طلبها الأول هو أخذ موافقة زوجتيه، إذ ان ذلك سيعرضه إلى مواجهة غير محمودة العواقب، وهو يريد أن يحافظ على الجميع دون خسارة أي طرف، لاسيما أنهما أصبحتا مثل الديكور، وأن احتمال المواجهة قد يعرضه إلى طلاق أي منهما، ما يسيء لوضعه الاجتماعي، وإن الإعلام يتربص بأي خبر يسيء له، ومن ثم قدم سند طابو باسمها لقطعة أرض في مكان حيوي لأحد أحياء بغداد الحديثة التصميم.

لم تكن سلوى لتمانع، طالما إنها وافقت من حيث المبدأ على القبول به، وعلى ذمته امرأتان، وما ضرها أن أخبرهما من عدمه، وإنما أرادت أن تستفزه في بادئ الأمر، كي تملي شروطها، ومن ثم من غير المهم إن تنازلت عن غير الضروري منها.

حول لها وديعة باسمها في أحد مصارف الأردن، وسجل لها بيتا في مكان حيوي في بغداد، مثلما اشترى لها سيارة آخر موديل مغرية بلونها الأبيض، وبرونقها المختلف عما يجاريها من السيارات الأخرى. ولم يعد أي من شروطها أو طلباتها غير منفذ، بل زاد على ذلك بالكثير من

الأشياء، ومن ثم تم تحديد يوم الزواج، بعد الانتهاء من الامتحانات النهائية على ان تكون المراسيم في العراق، والزواج في دولة أوربية كما فعلت أخته صباح مع توفيق عندما تزوجا في ماليزيا.

طلب حسون من توفيق أن يلتقيا، وعرض عليه الدخول في مشروع مشترك يعود بأرباح خيالية، فوافق توفيق وطلب تفصيل أكثر عن المشروع، أخبره عن معمل تريد الحكومة أن تعرضه للبيع عن طريق قانون (1982) لبيع وإيجار أموال الدولة، علما ان هذا المكان كان من قبل تابعا للتصنيع العسكري، وقد ضرب بصواريخ خاصة في حرب الخليج الثانية، ولما كان يحتاج إلى أموال طائلة من أجل إعماره، وإعادته إلى الخدمة، فقد أهملته حكومة البعث بعد الحصار ومن ثم الاحتلال، وفي العهد الجديد، فإن الحكومة منشغلة بمشاكلها الداخلية والإرهاب، لكن هناك عدة مشاكل تواجهنا؟

الأولى إنها تحتاج إلى رأس مال كبير إن رست المزايدة علينا، ومن ثم تحتاج إلى مكان جديد لنقل المكائن والمعدات، وكل ما يتعلق بالمعمل إلى مكان جديد، والنقطة الأهم، هو تحوير وتحويل المعدات العسكرية إلى معدات مدنية، وقبل كل هذه الصعوبات لابد أن نذهب إلى المكان ونطلع عليه، مع خبراء من أجل تقييمه من ناحية صلاحية المكائن من عدمها. وفوق كل ذلك نحتاج إلى شخص يدخل باسمه كي ترسو المزايدة عليه، فأين تجد شخصا أمينا لا يضعف أمام الملايين التي ستتناثر أمامه دون أن ينقلب على عقبيه، أو يطلب أكثر من المعقول، والأهم نحن كتجار لا يمكن أن نسلم أموالنا بيد رجل غريب لا نعرفه أبدا.

أقترح توفيق على حسون أن يدخل جبار معهم ليكونوا ثلاثة، لكن

حسونا رفض بسبب وضع أخيه السياسي المحرج، وما يلف حوله من ملفات فساد، عمل جاهدا على الوقوف ضدها وتمييعها، وتأخير البعض منها، فأنت تعرف وعلى مدى السنة الثانية التي ستنتهي بعد أشهر، لم يقدم الوزير ووكيله جبار أي تحسن في موضوع الكهرباء. ولكنه ترك الموضوع مواربا حتى يعود من شهر العسل.

اقترح أن يكون أخوهم خالد هو الشريك الثالث، واهم ما فيه أنه بعيد عن الشبهات، ومن الممكن أن يدخل باسمه، لكن حسونا لم تكن لديه الثقة الكاملة بأخيه الصغير، ولكن على ما يبدو لم يكن أمامه من اختيار، فاتفق على مفاتحته، وكان لابد أن يذهب إلى محافظته، كي يقنع أخاه بالموضوع إذ إن مثل هكذا أمور لا يمكن أن يتم تداولها من خلال الموبايل.

في اليوم التالي وعندما أتم عمله، اتصل بأخيه وطلب منه أن ينتظره في البيت لأمر فيه مصلحة الطرفين، سار حسون بطريقة جنونية من أجل الوصول إلى بيت أخيه بأقصر وقت، حتى إذا ما جلسا معاً فاتحه بالموضوع الذي سيعود عليهم بالثروة الطائلة، وفي الوقت نفسه، سيكون أفضل باب لغسيل أموالهم، التي بدأت الشائعات تلتف حول ماليتهم التي تتضخم يوما بعد يوم من الرشاوى وبيع أسرار الدولة.

وافق خالد بشرط أن يكون هو صاحب النصف مقابل أن يكون أخوه حسون ونسيبهم توفيق في النصف الثاني، رفض حسون العرض في كونه صاحب الفكرة، والمشروع، ويستطيع من خلال علاقاته أن يستفيد الثلاثة من ذلك، إذ من الممكن أن يتأخر نقل المعمل، وملحقاته لأي سبب، ما سيترتب عليه دفع غرامات، ولكنه سيمنع مثل هذه الأشياء، مثلما سيعمد إلى تأخير الأقساط أن تعثروا بالسداد وأي خدمة أخرى

من الممكن أن تطرأ في أي عمل كبير، وأصر خالد على موقفه، وترك له الأمر في أن يفكر ويرد عليه الجواب، وإن وجد بديلا عنه، فأنه سيعد الموضوع برمته ملغىً فهو لديه ما يكفيه من المشاريع، والأعمال.

عاد حسون إلى بغداد منكسر الخاطر، ليس في كون هناك فرق كبير بين الربع والثلث، ولكن لموقف أخيه السلبي واصطياده في الماء العكر، وعدم مراعاته لأخيه الكبير، وفي اليوم التالي اتصل بتوفيق، وأعلمه بما تم من حديث مع أخيه، فطلب توفيق عدم الرد عليه، لأن يوم المزاد أمامه أكثر من شهر، والانتظار حتى يعود جبار من سفره ويقترحوا عليه الموضوع، ويسمعوا رأيه، لكن حسونا طلب من توفيق أن يذهبا إلى المكان من أجل تقييم المعمل، وجرد عدد المكائن الصالحة للعمل، وغير الصالحة، لأن القائمة التي تنزلها الجهة المعنية بالأمر لا تفرزها، وكذلك من أجل أن يكوّنا عن الموضوع دراسة وتقييما تقريبيا، حتى يكون تقييمهم أقرب إلى الصحة منه إلى المبالغة.

عندما وصلا إلى المكان في اليوم التالي وجدا لافتة تقول: الموقع تعرض إلى قصف القوات الأمريكية بصواريخ تحمل يورانيوم مخصب، مثلما وجدا المكان مهجورا، دون حراسة، أو حتى أسلاك مانعة لتسلسل اللصوص أو من امتهنوا (الحواسم) في وقت غاب القانون عن العراق وأهله، ولكنهما لم يباليا بذلك، دخلا المكان، وقد تغافلا عن الحياة المتجمدة فيه، فلا أعشاش لطيور تعشق الهدوء والأمان في زمن غاب فيه الأمان حتى عن الطيور البرية.

كان المعمل عبارة عن عشرة مسقفات عملاقة متصلة مع بعضها البعض، مع بناية كبيرة تتقدم المكان، وهو بمثابة المكان الإداري للمعمل

ككل، كانت الضربات الأمريكية مركزة على البناية والمسقف الكبير الذي يحتوي على المكائن المهمة التي لم يمضِ على العراق استيرادها من روسيا سوى سنة واحدة، بينما كان المسقفان الثاني والثالث يحتويان على مكائن تصنع الأجزاء الثانوية والمكملة للجزء الرئيس من السلاح، أما المسقف الرابع فكان يحتوي على المواد الأولية التي تمول المعمل ككل، ليخزن في المسقف الخامس ما يتم تصنيعه.

بدأ توفيق يشعر بضيق التنفس ومن ثم اختناق، ومن ثم بدأ يسعل وطلب بعض الماء من حسون، إلا أنَّ الأخير لم يجلب معه ماءً، وبدأ يشعر هو أيضا بنوع من الاختناق، وطلب منه أن يخرجا من هذا المكان بأسرع ما يمكن، وبدأا يتراكضان في الطريق نفسه عائدين من حيثما أتيا، وصادف أن شاهد حسون بقايا هيكل عظمي لإنسان ربما دخل إلى هذا المكان ولم يستطع الخروج، وربما هو من بقايا حرب الخليج الأولى، عندما وصلا إلى خارج المعمل شعرا بنوع من الراحة بالخصوص بعد أن استنشقا هواء صحراويا نقيا، انطلقا مسرعين هاربين خائفين من هذا المكان الموبوء بالموت.

* * *

عاد جبار من عسله الذي على ما يبدو لم يكن يتحمل أبره، وكان الخصام قد تمكن منه، وعروسه التي لم تتم شهرها، قد انفض عسلها دون أن يتمخض عن شيء، كان البيت الذي سجله لها جبار يفترش مساحة لأكثر من خمسمائة متر، يحتوي على كراج سيارة في الطابق الأرضي (السرداب) وعلى الجانب المقابل كانت فيه حديقة غناء، أما من الداخل فقد تم تجهيزه بأحدث الأجهزة الالكترونية، مثلما تم جلب

غرفة النوم من إيطاليا، وكانت عبارة عن مرايا متداخلة داخلية، وخارجية تعطي نوعا من الغرور، والكبرياء لمن يسكنها.

عندما جاءت الأم تهنئ ابنتها وتبارك لها زواجها الميمون وجدتها على غير ما يرام، سألتها عن السبب من وراء ذلك، فأجابتها، إنه لم يكن شهر عسل باستثناء الأيام الثلاثة الأولى، وبعدها راح زوجها يبحث عن شركات الكهرباء، والعقود، والاتفاقيات، وكل يوم سهر حتى آخر الليل ليعود متعبا ومرهقا من صخب الحفلات، ليصحو متأخرا، فلا نحصل من اليوم إلا بقايا عصر أرهقته شمس النهار المحرقة.

وعندما جاء جبار ليسلم على عمته، وجدها على غير ما توقعه، وقد بدأت بلومه ومعاتبته عن سوء تصرفه اتجاه زوجته وإهماله لها، وعندما نظر إلى زوجته معاتبا إياها بعيونه، وجدها غير آبهة بعتابه، فلم يكن إلا أن يكشف بعض أوراق زوجته أمام أمها بالقول:

ـ عمتي إذا أردتِ أن تكوني حكما بين أثنين فلا بد أن تستمعي لهما قبل ان تصدري حكمك على أحدهم.

ـ ولكن أبنتي لا تكذب، وقد سلمتها لك مثل الجوهرة باسمة مثل الصباح أثناء بزوغه.

ـ من قال أنها تكذب، ولكني طلبت منك أن تسمعيني لأن أبنتك ليست معصومة من الخطأ.

ـ تفضل.

ـ إن نقطة الخلاف التي اصطنعتها أبنتك، هو فيما يخص عقد الماس قيمته ثلاثمائة ألف دولار، أصرت على اقتنائه، فاعتذرت عن ذلك، وطلبت منها أن تنتقي عقدا بنصف الثمن لكنها أصرت على رأيها.

هل هذا الكلام صحيح؟ (وجهت الأم كلامها إلى أبنتها وقد بدت غير مصدقة ما قاله زوجها).

ـ نعم هذا الكلام صحيح، ولكن هذا ليس هو سبب الخلاف الحقيقي، وإنما سبب الخلاف هو تركي في الفندق وحيدة حتى طلوع الفجر، ليأتي لي مخمورا متكئا على خدم الفندق حتى يوصلوه إلى الغرفة، وكثيرا ما كان يدب الخوف في داخلي وأنا أراه على هذا الحال.

ـ وماذا تريدين أن أعمل وأنا أراكِ تتعاطين حبوب منع الحمل، هل هذا هو الاتفاق؟، ألم أحقق لك كل شروطك؟، أنتِ من بدأ الإخلال بها...

ـ بدت الأم بينهما مثل المتفرج وهي تسمع هذا الخلاف الذي تفجر بمجرد أن شكه رأس دبوس، وقد تحول الخلاف إلى صراع بينهما.

ـ لقد اتفقت معك على أن نؤجل الإنجاب للسنة الأولى، ولكنك أصررت على ذلك.

ـ لم نتفق، وإنما أنتِ طلبت، وأنا رفضت ذلك، فوافقتِ على رفضي، حتى أنني توسلتك لذلك، فنزلت عند توسلاتي.

ـ لكنني غيرت رأيي.

ـ ليس من حقك، فالزواج مشروع قائم بين قرينين، ولا يحق لطرف اتخاذ قرار مصيري دون استشارة الآخر.

ـ لقد صدق حدسي، وها هي المشاكل تدب بيننا، وما كنت أحسبه قد حصل.

ـ سبحان الله، أنتِ تختلقين المشاكل، وتصدقين حدسك، ما ضرك لو أن الحياة تمشي بطبيعتها، مثل أي زوجين.

ـ أنت صاحب تجربتين سابقتين، وأنا لا آمن منك أن تتزوج رابعة.

ـ زوجتي العزيزة، أنتِ على علم مسبق بزوجتي السابقتين، وقد شرحت لك ظروفهما، وعذرني أهلك عليهما، وأنت زوجتي الحقيقية التي آمل معها أن أقيم حياتي الجديدة.

ـ ليس بعد اليوم.

ـ أنا لا أعرف قصدك، إلى ماذا ترمين، وعلى ماذا تراهنين؟

ـ لا أراهن على شيء.

ـ طيب، ماذا تريدين حتى تكون حياتنا طبيعية، مثل الآخرين؟

هنا استشعرت الأم غايات ابنتها، بعد أن أدركت أنها تراهن على ملل زوجها، كي تطلب الطلاق منه، وتستحوذ على ما اقتطعته منه.

مثلما شعر جبار أن الحياة تعود سيرتها الأولى، وقد تجسدت بأمه الجديدة ولكن بملابس الزوجة، وهو إذ هرب منها في حياته الأولى، عادت له وقد استهلكته الحياة في تجربته الثالثة التي اختارها، يبدو أن الحياة وربما الغيب يمنحنا بعض الأحيان ما يريد، ولا يمنحنا في أغلب الأحيان ما نريد.

ـ أريد منك فترة سنة، دون إنجاب، حتى يفهم بعضنا البعض، فأنت تعرف أن فترة خطوبتنا قصيرة، وأنا لم أعرف بعد خباياك وما تضمره لي.

ـ حبيبتي... فترة خطوبتنا ليست قصيرة، فقد دامت أكثر من خمسة أشهر تقريباً، وأنا لا أضمر لك شيئا، ودليلي أنني حققت لك كل ما طلبت، ولكن على ما يبدو أنك أنتِ من تضمرين لنفسك ولي شيئا لا أفهمه.

ولكنه الآن عرف أنها تريد الفراق، وكأنها ندمت على اختيارها دون سبب، أو أنها اعتبرته جسرا كي تعبر إلى الجهة الثانية من الأمان المالي والجسدي ربما.

طلبت الأم منه أن يتركهما معاً كي تعرف كنه أبنتها، وتضع يدها على الجرح النازف والخفي الذي شعرت به الأم، وهو ينز من أبنتها وتحاول أن تمسك به، حتى كاد أن ينفرط منها في لحظات الحديث المتصاعد بين الطرفين، تركهما جبار، بعد أن قبل زوجته على رأسها داعيا أن يعود وقد هدأت النفوس، واستقرت لحياة أفضل كان يحلم بها ويتمناها أن تتحقق من خلال زوجته التي اختارها بمحض إرادته.

بقيت الأم مع أبنتها، وهي تنظرها بنظرة كمن خبر الأشياء وعرف أسرارها، وباغتتها بسؤال ملؤه الشك:

ـ هل تريدين أن تتطلقي من زوجك، أجيبي دون لف ولا دوران.

ـ نعم... لقد قرفت العيش معه، أشعر أنه رجل لثلاث نساء، وهذه قسمة ضيزى، أنا لا أقبل القسمة أبدا.

ـ ولماذا وافقتِ منذ البدء على الزواج منه.

ـ كانت غلطة فتاة مراهقة، ولابد من تصحيحها.

ـ وكيف ذاك، وقد أصبحت امرأة متزوجة؟ ومن ثمة سؤال، من أين لك كل هذه الثقة بنفسك، ألم تعلمي وضعه السياسي ونفوذه الحكومي؟

ـ لا يهمني كل ما هو فيه وما سيصل إليه.

ـ طيب ردي له أملاكه وأشياءه، وأنا سأطلب الطلاق لك عن طريق أخيك.

ـ ذاك أبعد من حلمة أذنه، بل أنا من سيطلب المقدم والمؤخر والغائب.

ـ أبنتي ما تذهبين إليه غير معقول لا تجعلي الرجل يفقد أعصابه اتجاهك بعد أن كلفتيه الكثير من المال، والأعصاب والكرامة.

ـ لا يمكن له أن يعيش مع امرأة لا ترغب بالبقاء معه.

ـ أنت تتجهين إلى طريق مسدود مع أفكارك التي ستؤدي بك إلى التهلكة.

ـ لا تخافي عليَّ، فأنا أعرف كيف أتعامل معه.

ـ من أين لك كل هذه الجرأة، وهذا التصميم على الشر.

ـ ليس شر، اغلب النواب عبارة عن بالونات ملونة، وقد سرقوا أموال الشعب والبلد، وما ضرهم أن يأخذ أحد أفراد الشعب بعض حقوقه.

ـ ومن عيَّنكِ قاضيا لتفتي ما يحل لنفسك، ويحرم على الآخر.

ـ ومن أفتى بسرقة أموال الشعب، والبلد، واللعب بمقدراته.

ـ ابنتي، نحن لسنا في برنامج تلفزيوني، لابد أن تحافظي على بيتك وزوجك، وأنت في شهرك الأول أرجوك.

ـ ماما، لا تخافي عليَّ معه، أنا من سيطرده من هذا البيت، لأنه بيتي، وإن لم يطلقني بهدوء فسأرفع عليه قضية طلاق، وأطالبه بكل حقوقي، وليس له أن يدعي ما سجله باسمي لأن ذاك كان بمحض إرادته.

ـ سأرسل أخاك توفيق كي يتفاهم معك، وأرجو أن لا تنسحب مشاكلك على حياة أخيك، فأنت لم تراعِ حرمة نفسك، وأخيك، والعلاقات الوطيدة التي لنا مع هذه العائلة التي رأينا على وجهها كل الخير والراحة.

ـ إن الله هو من يحدد لنا مصائرنا، وما الناس إلا أدوات طيعة بيده، وليس لأحد فضل على الآخر، وما بكم من نعمة فمن الله.

ـ أبنتي كلما أحاول أن أعيدك إلى رشدك، تذهبين بي إلى حيث لا أعلم، أبنتي أخاف أن يسلط عليك بعض الرجال ويقتلوك، وعندها ستخسرين كل شيء حتى نفسك.

ـ أفضل أن أعيش حياة كريمةً، على أن لا أكون شيئا.

ـ أتمنى على الله أن يحسن عاقبتك.

عادت الأم والكدر رسم براثنه على وجهها، وقد اتصلت بابنها أكثر من مرة، وكان هاتفه مغلقا، ولم تجرأ أن تتصل بزوجته، لأن العلاقة بينهما لم تكن على ما يرام، ليس لسبب سوى أنَّ الأخيرة كانت متعجرفة، وذات أنف متعالٍ على الناس، ولم تشأ أمها أن تدخل معها بخلاف، بل تغاضت عن ذلك من أجل تحقيق رغبات ابنها، ومحاولة انتشاله من الوضع المالي البائس الذي كان يعيشه، فالدخل الذي كان يأتي من معاش أبيه، مع شغله بعد الظهر في مكتب المحاماة لقاضٍ مشهور أحيل على التقاعد كان بالكاد يكفي مصاريف البيت، والأخت الجامعية الطامحة، تلك التي رفضت أكثر من رجل، ليس لسبب سوى أنه فقير أو طالب معها يريد لها الرضا فترضى لكنها لم يكن أي من الطلبة هدفها، كانت تريد أن تنطلق في عالم ملؤه المال والأطيان، كثيرا ما حدَّثت أمها عن الحلم بزوج ثري، عن الفانوس السحري، والبساط الطائر للسندباد الذي يأخذها إلى كل دول العالم، والى الجزر العائمة وسط المحيطات.

اضطرت أم توفيق أن تتصل بابنتها سلوى من جديد لتسألها عن ابنها،

الذي بدا غلق هاتفه غير طبيعي، ولكنها لم تكن تعرف هي كذلك عن السبب من وراء ذلك، ومع ذلك طمأنتها، أنها ستتصل بزوجها، كي تعرف السبب من وراء ذلك، ومن ثم تعود وتطمئنها عليه، أو تجعله يتصل بها، لكنها لم تتصل به، وتركت والدتها بقلق مميت، وانتظرته حتى الليل، لتنتظر هو من يحتك بها لأي سبب، لتسأله عن أخيها.

عند العشاء كان وضع جبار على غير ما يرام، تصورت أنه من الممكن أن يقدم على خطوة غير محسوبة عندها، ولم يتكلم، ولم تطق صبره، فبادرت هي بالكلام:

ـ أمي قلقة على توفيق وتقول أن هاتفه مغلق، ولا تعرف السبب من وراء ذلك.

نظر إليها نظِرة استهجان، ومساءلة ثم رد عليها:

ـ حقيقة أنتِ لا تعرفين، وأمك عن أخيك توفيق شيئا؟.

كان رده وكأنه كاظم على الكلمات بحيث يجعل خروجها بشكل ثقيل وغامض.

ـ حقيقة لا أعرف، وأمي امرأة كبيرة، وهي لا تعرف الكذب، أو التظاهر بأشياء غير التي تكتمها.

بدت أكثر بساطة أمامه، لأنها لم تخطط لهذا الطارئ الذي يظهر من كلمات زوجها.

ـ إن توفيقا وحسونا في مستشفى الأورام السرطانية.

كان وقع كلامه عليها، مثل الصاعقة التي نزلت من السماء على قوم رفضوا الانصياع لأوامر رسول مرسل من السماء، فاندفعت بكرسيها

إلى الخلف بعد أن رمت من يديها السكينة والشوكة، ونهضت من مكانها صارخة.

- ماذا تقول... أيعقل هذا، ولماذا أخفيت عني ذلك؟!

- لم يمض على وجودنا أكثر من ثلاثة أيام، ولم أعرف بذلك، حتى جاءني اتصال من هيأة النزاهة، يسألوني عن أوضاع أخي، فتفاجأت بالذي سمعت، ومن ثم ذهبت إلى المستشفى لأتأكد بنفسي، ورأيت الذي رأيت.

- لابد أن أخبر أمي لنذهب إليه الآن.

- هذا غير ممكن، لأنهم لن يسمحوا لأحد بالدخول الآن، ومن غير الصحيح أن تقلقي أمك الآن، والليل في بدايته، أتركي الأمر للصباح، ومن ثم نذهب سوية إن أحببتِ.

كان كلامه على الرغم من أن البادي عليه غير مبالٍ بها، ولكنه في الحقيقة كان شامتا بها، وما آل إليه وضع أخيها الوحيد، لأنه لم يستنكر قيامها من مائدة الطعام، ولم يواسها، أو يطيب خاطرها، بل كان يكلمها وهو مستمر بطعامه.

لم يطق جبار البقاء في البيت، لأن علاقته بزوجته هي في الأصل متوترة، وجاء خبر المستشفى، فجعل الأوضاع أكثر توترا، ففضل الخروج منه، على أمل اللقاء عند بعض الأصدقاء ليحيي ليلة من ليالي السهر التي بدت تملأ فراغه النفسي، والجسدي في بيوته الثلاثة التي لم يستطع أن يحقق لنفسه من ورائها الشيء الذي يحلم به. ولكنه لم يتأخر كثيرا، فحظر التجوال في العاصمة لن يسمح للآخرين بالبقاء كثيرا

تحت مظلة ليل بغداد الساحر، لأنه يقضم الحرية التي أسالَ العراقيون من أجلها الكثير من الدماء ولا زالوا.

عاد جبار منتشيا بالدنيا التي اعتقد أنه مسك بأطرافها، وقد غاب عن ذهنه مرض أخيه (حسون) ورقوده في المستشفى بين الحياة والموت، لكنه استفاق من غيه قليلا، عندما وجد زوجته لا زالت مستفيقة لم يغالبها النوم رغم سلطانه، لم يسلِّم عليها، بل تركها لوسواسها وحساباتها المادية التي تأخذها يمينا ويسارا، وربما تفكر في وضعها الأسري الذي سيفقد ركنا من أركانه الأساسية. صعد إلى غرفة نومه بصعوبة بعد أن اتكأ على الدرابزين الذي أخذه إلى الأعلى، ربما هو الآن أكثر من شامت بوضعها الجديد، وغطرستها غير المبررة، لذلك تركها لحساباتها تنهشها دون أن يقدم لها حتى ولو كلمة طيبة.

خرجت سلوى في الصباح إلى المستشفى، كي تنظر ما آل إليه وضع أخيها، فهي وإن سمعت عن وضعه من زوجها، إلا أن مبدأ الشك والحيطة كانا يلازمانها منذ زواجها، عندما دخلت إلى المستشفى الذي بدا أكثر نظافة من المستشفيات الحكومية، اتجهت إلى الاستعلامات مباشرة لتعرف أي غرفة يرقد فيها أخوها، ومن ثم اتجهت مباشرة إليها، لكن الحرس الخاص منعها من الدخول إلى الردهة الذي يرقد فيها، عندها صرخت بوجههم، وحاولت الدخول، لكن ذلك لم يغير من الموقف شيئا، عادت إلى كرسي قريب وقد هدها السهر، فانهمرت دموعها وراحت تنوح على وضعها وأخيها، والمستقبل المجهول الذي لم تحسب حسابه.

بعد تردد كبير، عادت سلوى إلى البيت على أمل أن تأتي بزوجها

الذي تستطيع من خلاله أن تدخل المستشفى مرة ثانية لترى أخاها، على الرغم من أن ذلك يشق عليها، فأي استعانة بزوجها يعني التنازل عن مكتسبات اغتنمتها بصعوبة، ولكن أمام أخيها توفيق لابد أن تتنازل عن بعض الأشياء وان كانت مهمة.

استطاعت سلوى أن تنهض زوجها من فراشه بصعوبة، بعد أن أخذ منه الخدر مأخذا، حتى إذا ما أعدت له الفطور، وقد خرج من الحمام، أكل بسرعة، واتجه مع حمايته وزوجته، إلى حيث المستشفى بعد أن اتصل بمدير المستشفى، وطلب منه الإذن بالدخول.

كان الزجاج هو الحاجز الشفاف بينها وبين أخيها، الذي بدا بحالة مزرية والكمامات على أنفه وفمه، إضافة إلى (الكانونة) التي تخترق أوردته لتسري المغذي في جسده، وتجعله أكثر مقاومة للمرض الذي على ما يبدو أنه أنتشر في جسده.

لم تتماسك، بعد أن حاولت جاهدةً أن تظهر بعض الشجاعة، وسرعان ما انهارت وأخذت تبكي، وتصرخ، وتلطم على وجهها، وقد عادت إلى وضعها الأول، فتاة شعبية حالمة، حتى تفرهد حلمها في وضح النهار، وكان زوجها يقف على مقربة منها، ولكنه لم يحاول أن يهدئها، أو يطبطب عليها مثل أي رجل يجد زوجته في وضع حرج، بل طفق ينظرها بعين المتفرج الذي يريد أن يسترد حقه من شخص أخل باتفاقياته.

دخلت زوجته صباح بعد أن وضعت كمامة على أنفها، وفمها، يتبعها حارسان، تفاجأت عندما وجدت أخاها جبارا مع زوجته، وعاتبتهما عن التأخر في زيارة المريضين، لم ترد عليها سلوى في كونها منهارة نفسيا،

لكن جبارا اعتذر منها، في كونه لم يعرف بما جرى لهما إلا من فترة قليلة ثم سألها عن سبب إصابتهما:

ـ لم أعرف حتى هذه اللحظة، كيف أصيبا بهذا المرض، فالدكتور لم يعطني أي جواب، ولم أستطع الكلام مع أي منهما. قال جبار بنبرة ساخرة متفرسا بضراوة في وجهها.

ـ أن إصابتهما تثير الريبة، هل يجوز أن تاجرا ببعض اليورانيوم، ولكن من أين أتيا به. (ردت صباح باستفهام وبله).

ـ أنا كذلك، رحت أسأل نفسي مئات المرات عن سبب إصابتهما دون غيرهما ولم أجد جوابا. قال جبار، دون أن ترتسم على وجهه أي إشارة.

ـ ليس المهم كيف أصيبا، بل المهم أن نسفرهما خارج العراق، حتى يبرأى من المرض. قالت سلوى وهي منهارة.

ـ لقد طلبت من الدكتور ذلك، ولكنه رفض، بحجة وضعهما الحرج جداً (ردت صباح عليها وقد عذرتها للغتها اليابسة).

ـ يجب أن أخبر أمي بمرض توفيق على الرغم من أنني أخاف عليها أن لا تتحمل ذلك وتذهب ضحيته. قالت سلوى، وعلامات الانهيار بادي على كلامها المرتجف.

ـ أنا أفضل ذلك أيضا (ردت عليها صباح).

ـ هي أمك ولك أن تنقلي لها الخبر بما ترينه مناسبا (رد عليها جبار بكل أدب).

ـ يجب أن أخبر أخويَّ ناهضا وخالدا أيضا، يجب أن يرانا حسون

عندما يستفيق كلنا حوله، فنحن لا ننسى أفعاله الحسنة معنا، وبأنه لم يهنأ بهذه الحياة التي أخذت منه أكثر مما أعطته (وجه جبار كلامه لصباح التي تتحرق لهفة لزوجها التي لم تهنأ به ولم تنجب منه بعد).

ـ سأذهب معك إلى كربلاء لنعود بالجميع معنا، ربما يحسن ذلك من وضعه النفسي ويتحسن. قالت صباح بانكسار كبير.

علم الجميع أنهما يقفان على بوابة الموت، ولم يكن بعد قد شبع كل منهما بالحياة، ولكن حسب قول الدكتور المختص الذي أشرف على علاجهما، إن السرطان منتشر بالجسم ومتركز بالرئة، وبمجرد أن نرفع عنهم التنفس الاصطناعي، فان أمرهما ينتهي.

شرح جبار لأبيه عما وصل إليه أخوه حسون، وقد تمكن المرض منه، فلم يكن من الأخير إلا أن انهار باكيا، وراح يعاتب زوجته من خلال الصورة الفوتوغرافية لها، بنظرتها القاسية عن السبب الذي من أجله تركته وحيداً تلعب به الأقدار، وبولده حتى تمكن منه المرض، ومن ثم أغتسل وحلق لحيته، وهم راجعا مع أولاده إلى حيث ابنه الذي يرقد على حافة الموت، متمنيا أن ينكفىء نحوه خلاصا من العذاب الذي يسعر بجسده.

أما سلوى، فظلت في حيرة من أمرها، وكيف لها أن تخبر أمها عن وضع ابنها الوحيد توفيق، وفي الوقت نفسه ليس لها من حل سوى مواجهة الموقف، طرقت الباب، خرجت لها أمها وقد احتضنتها باكية، لكن سلوى سرعان ما انهارت أمامها، وراحت تنوح، وتبكي هي الأخرى، تفاجأت الأم من موقفها وظنت أنها قد تطلقت من زوجها، فراحت تطبطب على كتفها وتحنو عليها، وتطلب من الله أن يعوضها خيرا منه، فما كان من سلوى إلا أن نهرت أمها غير مراعية لأي حدود:

ـ أي طلاق هذا الذي تتكلمين عنه... فليذهب جبار إلى الجحيم.

ـ على رسلك يا ابنتي، وماذا تريدين من أم تأتي لها ابنتها باكية منهارة من بيت زوجها إلا أن تقول لها كلمات تطيب خاطرها.

ـ ماما، أنا لم أتطلق بعد.

ـ يعني أن ذلك سيحدث في المستقبل، يا ابنتي لا تخربي بيتك، وانتظري قليلا على الله يصلح ذات البين.

ـ يا أمي أرجوك انتظري حتى أتم كلامي.

ـ تفضلي يا ابنتي، ماذا بك، أنت على غير وضعك الطبيعي، تبكين، وتصرخين بوجهي، وأنا لا أعرف بعد ما الذي جرى لك.

ـ أنه توفيق...

ـ أبني توفيق ما به (وقد تغير لون بشرتها، ثم نهضت من مكانها) تكلمي، ما به.

ـ أنه في المستشفى...

ـ هل حصل له حادث، تكلمي ما الذي حصل (وقد اقتربت منها، وراحت تهزها بعد أن وضعت يديها على كتفي ابنتها) تكلمي دون مقدمات.

ـ لا لم يصب بحادث، ولكن يجب أن تأتي معي الآن كي ترينه.

ـ هل هو ميت...

ـ لا لا، الحمد لله هو بصحة جيدة، ولكن على ما يبدو أن الأطباء لم يستطيعوا حتى هذه الساعة أن يحددوا المرض الذي أصابه.

ـ ماذا تقولين (ثم وقعت من طولها على الأرض مثل كومة لحم كانت قد علقت، ولم يحملها خطافها، فانهارت مثل أي كتلة تخلو من الحياة).

ـ أمي... ماما ماما.

كانت بعض الاتصالات الجانبية بين جبار، ورئيس المستشفى، والطبيب المختص بعلاج أخيه وزوج أخته تتكرر، وقد ألمح الطبيب المختص عن قرب نهايتهما، ولكنه حتى هذه اللحظة لم يعرف المكان الذي يحتوي على هذه الكمية الكبيرة من الإشعاع الذي تشبع به جسداهما، ولكن الوحيد الذي عرف المكان هو خالد، وقد أخبر أخاه جبارا عن الموضوع الذي فاتحه فيه أخوه حسون، وبأنه مكان تابع للتصنيع العسكري المنحل، ويحتوي على الكثير من المكائن والمعدات، وقد قصف من قبل القوات الأمريكية، وأهمل من قبل الحكومة السابقة واللاحقة، ولكنه اختلف معهم في قيمة حصة كل منهما، عندما تيقن أن الحياة أقصر من أن تحقق الأحلام، وأطول من أن تديم الألم، وعلى ما يبدو أن كل بداية تحمل بذرة نهاية، كما هي كل النهاية دائما تحمل بذرة بداية.

وصل الجميع إلى بغداد ليلا، ولم يكن مسموح لأحد أن يدخل المستشفى في هذا الوقت، ما اضطر خالد، وناهض مع أبيهما أن يبيتوا عند جبار، لكن الأب طلب منهم ليلا أن يذهب به أحدهم لزيارة الإمامين الكاظمين، فقد ملَّ الحياة ويريد أن يودع من يحبهم، فطبطب عليه ناهض، وطلب له طول العمر، وتعهد له بأن يذهب به إلى الزيارة، ولكن في البداية يجب أن يغتسل، ويرتاح، ويتعشى، ومن ثم يذهب به، فأصر خالد أن يذهب معه ومثله جبار، وهكذا عاد الجميع من الجديد

بعد أن أخذوا قسطا من الراحة بزيارة الكاظمين من أجل التبرك، والدعاء لأخيهم المريض.

سعت سلوى جاهدة كي يدخلها حارس المستشفى إلى الداخل لكنه رفض، توسلت الأم حتى أرادت أن تقبل حذاءه، لكنه رفض أيضا، وتعذر لهما بالقول إن هناك أوامر واضحة تمنع الزيارة ليلا، وإلا تعرض للفصل من وظيفته، وبأن هذا لا يرضيهما، طلبت الأم بعد أن ندبت حظها، ولطمت وجهها أن تذهب بها سلوى إلى الإمامين الكاظمين كي تدعو لأبنها بالشفاء، وهي في شوق لأن تزور الأئمة الصالحين تبركا وشفاعة.

عندما وصلت الأم إلى الحضرة الكاظمية تناثرت الدموع من عينيها، وقالت مخاطبة الإمام الكاظم:

- انت باب الحوائج بحقك عند الله، أن تشفع لي عند الله، وتنجي ابني من المحنة التي وقع فيها، أسألك بأسماء الله الحسنى وبسره المكنون، ثم رفعت يديها إلى الله وقالت: اللهم أني أسألك بحق فاطمة وأبيها وبعلها وبنيها، أن تنجي أبني من هذه المحنة، وقد أبكت أبنتها، ومن كان يقبل الباب الكبير للإمام، أو من كان يمسك العروة النحاسية ويطرقها لأكثر من مرة، بينما كان البعض يربط بها قطعة قماش خضراء بعد أن نذر.

أرادت أن تقع، لكن أبنتها أسندتها، وأخذتها عند أول دكة قريبة، وأجلستها، ثم راحت الأم تبكي وتنوح على ابنها، وعادت تكلم الامام الكاظم، لتقول:

- يا كاظم الغيظ، ليس لنا نحن البسطاء أن نمتلك صبرك، وتحملك

لامتحان الله سبحانه وتعالى، أسألك بأسماء الله الحسنى وبوجهه المتعالي أن تفرج كرب ابني، أنت تعلم أنني أمٌّ لم أخرج من هذه الدنيا إلا بهذين الولدين، أبنتي التي أريدك أن تعيدها إلى رشدها، وابني الذي يرقد في المستشفى، ولم أملأ حتى هذه اللحظة عيني منه.

عندما اجتازا الحائر الخارجي للأمام، ودخلا روضته المقدسة، تفاجأت سلوى، بوجود جبار وأخوته وظنت أن من معهم هو أباهم، الذي كان بقايا رجل غادره الزمن من فترة طويلة، لكن الأم كانت تعرف الأولاد الذين أتوا من قبل مع جبار لخطبة أبنتها سلوى، باستثناء الأب الذي لم يشاهده أحد لا في خطبة توفيق لصباح، ولا في خطبة جبار لسلوى، ولكنها استطاعت أن تعرفه من خلال الدم الذي يجتمع عنده الجميع.

كان كل منهما يبكي ابنه، ويتوسل الله بجاه هذا الأمام الذي قضى وطرا من شبابه في سجون العباسيين، ان يفك أسر ابنه من سجن المرض الذي أحكم السيطرة عليهما، قابلت الأم الرجل الشيخ، وسلمت عليه مع دموع تنهمر دون توقف، ولم يكن هو بأكثر صمودا، أو شجاعة، بل كانت دموعه أكثر انكسارا لرجل لا يملك إلا الدعاء، والتوسل لإمامٍ أحسن الجميع الظن به، ولكن لا راد لقضاء الله، وما عليهم إلا الدعاءَ في مثل هذا المكان الذي تحف به الملائكة تضرعا ورجاء.

أفترق الجميع، وقد حمَّل كل منهما آلامه، وآماله على شباك الإمام، ولم يعد بيدهما شيء سوى أن يخلدا إلى النوم بعد نهار طويل من الجزع، والتضرع، على أمل أن يسفر ذلك التضرع عن شيء اتجاه ابنيهما، لكن ذلك لم يستجلب النوم للأم الجريحة، والأب المغدور في أبنائه كلهم، وإن جحدوه في حياتهم، لكنه لم يتنكر لهم في حضرة

أي إمام، أو أي صلاة، كان يتضرع لهم باستمرار أن يهديهم إلى جادة الصواب، وأن يحسن عاقبتهم، ولكن هيهات أن يغير الدعاء من مصير أحد حتى تحولت عتبات الأئمة إلى بقايا سوداء من تضرعات الوالدين.

استطاع جبار أن يحصل للجميع على رخصة الزيارة التي لا يسمح للجميع أن يزوروا مرضاهم، وإنما يكتفون بشخص يمثل الجميع، دخلوا إلى المستشفى، وكانت مسافة الممر من الطول مثل رجل وقد طالت مسافة الماء عنه، بعد أن حشرت لقمة وسط بلعومه.

كان وضعهما يثير الشفقة، وقد ندبت الأم حظها عما وصل إليه حال ابنها، ولعنت المال، والطموح الذي يؤدي بالإنسان إلى حتفه، وطفقت تولول وتلطم، بعد أن خانتها رجلاها، وجلست على الأرض، وهي تذكر أيامهم الجميلة، عندما كان الكفاف سيد الموقف، وهو قربها، حتى إذا ما دخل المال إليهما افترق أولادها كل في جهة، تختم بالنهاية بين ولد يلفظ أنفاسه الأخيرة، وفتاة تجاذبها الأطماع حتى في زوجها، عندما قالت العبارة الأخيرة، انتبه جبار لزوجته، كما انتبهت سلوى له، وتيقن جبار، أن ما استشعر به وكذبه، قد صدق الآن، ولابد له أن يأخذ حقه منها، فقد ائتمنها على الكثير من أسراره، مثلما حقق كل ما ترنو إليه، ولم يتصور أنها من الممكن أن ترسم لنهايته، فقد اعتقد أنها لكونها من حي فقير، كانت تطمح أن تنسى واقعها وتتلبس واقعا جديدا، لكن أن تخطط مسبقا هذا ما لم يكن بالحسبان، وفي المقابل عرفت سلوى أن جبار قد تنبه لجرس الإنذار الذي دقته أمها دون وعي، أو قصد، وإنما ما كانت تشعر به اتجاه ابنتها وهي تسير نحو حتفها.

جلس الأب على كرسي قريب، وقد غطى وجهه بكوفيته، وراح

ينحب مثل الأشجار النفضية، التي تخرج صمغاً، لحظة الحزن، ومن ثم بدأ يهتز مثل شجرة في يوم عاصف، حتى أغمي عليه، فتراكض نحوه أولاده، الذين لم يشعروا يوما بفيض محبته اتجاههم، بل تركوه وذهب كل منهم إلى حياته الجديدة، تركوه وحيدا في بيتٍ، ظل شبح الأم يسيطر على كل تفاصيله الصغيرة، الذي اعتاد فيه الأب أن يكون ثانويا، وما أن غادرته حتى انزوى على نفسه.

جاء الطبيب المختص إليهم وطلب منهم الهدوء قليلا لأن وضع المرضى جدا حرج، ثم أخذ بيد جبار، على جنب، وأخبره بحقيقة وضعهم الصحي المحرج جدا، وطلب منه أن يسيطر على الجميع، أو يجد حلا للإحراج الذي هو فيه، لم يكن جبار ليسيطر على مشاعر إنسانية فياضة من أم وأب، لم يختارا أن يكونا في مثل هذا الموقف، وليس لهما الخيار في أن يفدي كل منهما ابنه بروحه.

طلب جبار من أخويه أن يحملا أباهما إلى الخارج برفق، بعد أن انتهى وقت الزيارة، ومن أجل إنهاء الجلبة التي أحدثوها في الممر، مثلما طلب من سلوى أن تأخذ أمها ووعدها أن تأتي بها كل يوم من أجل الزيارة، لكن الأم رفضت طلبها بشدة، وطلبت أن تبقى قرب ابنها ولم تحدث بعد الآن أي صوت، لن تبكي، أو تلطم، وإنما ستكتم نحيبها، وتنزفه دما، على أن تغادره أبدا، لم تستطع سلوى أن تقنع أمها، فطلب جبار منها أن تبقى بقربها ريثما يخرجون أباهم من المستشفى، ويعود إليها، ثم طلب جبار من أخويه أن يوصلا أباهم إلى البيت، ولا يتركاه وحده لأي سبب حتى يعود إليهم مرة أخرى.

عاد جبار من جديد إلى سلوى وأمها، وقد تبعته صباح، وهي لا زالت

متعالية وقد سقطت بعض الدموع منها على حضنها، وما شاهدته من مشهد تراجيدي من أم مكلومة، وأب مهزوم أمام مرض حقير، يرفض المناطق الوسطى، بين الشفاء أو القطع، بين المناعة أو الدواء، وتاريخ من الحياة أفقد في البدء ابنه عادل، والآن يعود ليأخذ منه ابنه حسون.

استطاعت صباح وسلوى، أن تلملما بقايا أم ضربها الزمن في مقتل، ابنها الوحيد الذي حلمت أن يساعدها عندما تكبر، ويحسن خاتمتها، كيف للأقدار أن تغير الأوضاع، أن تقدم شابا في مقتبل العمر إلى محرقة الموت مهما كان السبب الذي من أجله أقترف بحق نفسه، ما أدى به الى هذه التهلكة، لكنها لم تستطع النهوض وكأنها رفضت الحياة واستسلمت للوهن، ما دعا ابنتها سلوى لحملها على كرسي متحرك إلى خارج المستشفى.

اجتمع الأخوة مع الأب المهضوم في بيت جبار، تأكلهم الحسرة على حسون الذي بدا وضعه متأزما جداً، وهو متجه إلى نهاياته، لم يكن الأب يتكلم، وإنما كان يكتفي برموش متحركة، وعيون ساهية في ملكوت الله، بعد أن ظهر فجأة على كل تفاصيل جسده الضعف، حتى بدا وجهه، وكأنه استقدم من ماضي عتيق لغير زمنه، بينما اكتفى ناهض بالصلاة، وقراءة القرآن لأخيه الذي يعتقد أن الحياة كانت على غير وفاق معه، ولم تمنحه فرصة ليكون إنسانا جيدا، كان يقول في سره: لا أعرف لماذا يعامل العراق أهله على أنهم مثل الكلب، يجب أن يظل راكضا لاهثا خلف عظمة معلقة من علو، ليبقى جائعا، ولا ينال حظه فيه إلا بالموت، أو المغادرة إلى خارجه، بينما كان خالد يجري بعض الاتصالات ليوجه أعماله، ولم يبدُ عليه الأثر الكبير وقد علم يقينا أن أخاه مغادر الحياة، ولم يبق إلا إعلان ذلك.

كانت جدران بيت جبار خالية من كل حياة، فهو لم يكن يمتلك ذائقة الفنان فيملأ بعض جدرانه ببعض اللوحات العالمية، أو العربية، أو المحلية، ولم يكن من دعاة الدين، ليطرز بعض السور القرآنية كما هو معتاد في بعض البيوت العراقية، باستثناء بعض التزجيج الذي كان يمتد من السقف ليتدلى على بعض الجدران بأشكال مثلثة، مثلما لم تكن تحتوي بعض موائده التحفيات من الفخار، أو الأواني المزخرفة والمزركشة، كان كل شيء في بيت جبار يدعو إلى الصمت والجفاف.

اتصل الدكتور المشرف بجبار، ليعلن وفاة كل من توفيق، وحسون، بعد أن استفحل المرض داخل جسديهما، وألتهم رئة كل منهما، الفرق الكبير بين أن تتوقع حدوث الأشياء مع هامش من الغيب يبقي النسبية جائزة، وبين القطع بحدوثها الذي يشكل صدمة مع إلغاء الاحتمالية التي تبقي فسحة من الأمل، وعلى الرغم أن الجميع يتوقع ذلك باستثناء الأم، والأب اللذين لا يفقدان الأمل أبدا، أو ربما يرفضان تصديق الخبر، ولكن من الصعب إبلاغهم بمثل هذا الخبر الذي من الصعب أن تتوقع انعكاسه عليهم.

أعاد جبار الاتصال بزوجته سلوى، وطلب حضورها بسرعة إلى البيت، أو إلى المستشفى لأمر طارئ، وعندما التقيا، طلب منها أن تستقبل الأمر بوفاة أخيها بروية، وحكمة حتى لا تفقد أمها، مثلما طلب منها أن تكون أكثر جلدا، وانه لا راد لقضاء الله، لكنها انهارت أمامه، وراحت تبكي، وتصرخ وسط المستشفى، ولم تستطع أن تمسك أعصابها، حتى إذا ما هدأت ثورتها وخف حزنها، رغم حرارة الصدمة، مع توقع مسبق لوقوعها، إلا أن المشكلة الأكبر بأمها، التي هي الآن بين

مكذب لمرض أبنها، ومصدق الواقع المرير فكيف تستطيع إخبارها برحيله، قالت في نفسها: مستحيل، مستحيل أن أخبر أمي بهذا الخبر، إنا متأكد بأنها ستذهب معه، لا أستطيع، ثم رفعت رأسها إلى السماء، وطلبت المساعدة من الله أن يعينها على تخطي هذا الموقف الصعب الذي لم تتوقعه أبدا، وافترقا كي يخبر أخوته، وأباه، بينما ذهبت سلوى إلى أمها، ولم تصل بعد إلى الطريقة التي تخفف عليها وقع الخبر.

وصل جبار إلى بيته، فرمقه أبوه بنظرة وكأن قلبه يعلم بالخبر الذي يحمله، بينما كان خالد يتكلم من خلال هاتفه، وناهض متوجها القبلة يصلي لأخيه ويرجو الله أن يحسن عاقبته، أنكب جبار عند قدمي أبيه يبكي بحرارة ليعلن وفاة أخيه، أنهار الأب وهو يسمع خبر وفاة ابنه، وبدأ بنشيج هز أركان البيت حتى تصاعد الصدى إلى قبته المزججة التي تتدلى من قعرها ثرية عملاقة تملأ فضاء غرفة الضيوف، ركض خالد نحو أبيه يبكي عند حجره، بينما قطع ناهض صلاته، وزحف اتجاه أبيه بعد أن خانته عكازاه بحمله، وراح الجميع عند أقدام الأب ينوحون فقدان أخيهم، وهو في زهرة شبابه، بينما ظل الأب يشهق فراق ابنه، وهو ملثم بكوفيته التي مسحها بشباك الإمام الكاظم راجيا ومترجيا الله أن يعبر ابنه هذه المحنة.

دخلت صباح وقد وجدت أخوتها وأباها مثل شجرة يابسة تلتف حولها فسائلها، أو مثل أم ميتة وأطفالها يحيطون بها دون أن يعلموا ماذا يفعلون أو إلى أين يرحلون، فانكبت معهم تبكي نفسها وعائلتها، تبكي أمها التي غادرتهم ولم تكن بعد قد شهدت ازدهارهم، تبكي أخاها، الذي لم يعنف يوماً أحدهم، أو يجرحه بكلمة، انتشرت الصيحات داخل

البيت المهجور إلا من أثاث لا قيمة له دون إنسان يضفي عليه لمحة الحياة، بدأت صباح تصيح بأعلى صوتها، تندب أخاها، تندب أمها، حتى إذا ما سمع الأب اسم زوجته، انتفض من مكانه وراح يقابل أبنته بالبكاء واللطم على رأسه، فما كان من جبار إلا أن منع أباه عما يفعله بنفسه، وأخذ يترجاه ويثقله بالأيمان أن يحافظ على نفسه ليبقيه الله لهم خيمة يستظلون به.

* * *

بقيت سلوى أمام بيتهم القديم لأكثر من ربع ساعة، وهي لا تستطيع أن تطرق الباب، أو ترن الجرس، كونها لم تجد بعد الطريقة التي تخبر بها أمها بوفاة ابنها، اتصلت بخالها، وأخبرته بوفاة أخيها، وطلبت منه الحضور كي يساعدها على تقبل أمها للخبر، وعندما حضر، راحت تركض باتجاهه بعد انهيار مكبوت داخلها، فانهارت مثل طفلة غاب عيدها، ولم يأت بعد اليوم أبدا، طلب منها أن تكفكف دموعها وتغسل وجهها قبل أن يدخلوا البيت، وطلب من الله أن يساعده على هذه المحنة.

عندما طرق خالها الباب، كانت الأم تتعكز على الجدار الجانبي، وهي تمشي بصعوبة اتجاه الباب، بعد أن طلبت من الطارق الانتظار، وما أن فتحت الباب حتى وجدت أخاها وابنتها، فطلبت منهما الدخول بعد عناق حار، حاولت فيه سلوى أن تمسك نفسها وتخنق عبرتها، كي تخفف الوطء على أمها.

تعجبت الأم زيارة أخيها في هذا الوقت، ولكن لم تبدِ استغرابها، وبدت أكثر ترحيبا به، ومن ثم سألت أبنتها عن صحة أخيها، بعد أن قضت الليل بطوله تصلي وتدعو له، فلم يكن منها إلا أن انهارت ولم

تستطع أن تمسك نفسها، وتسيطر على أعصابها، واندفعت إليها صائحة لاطمه باكية لترتمي بحضنها، لم يكن من الأم إلا أن قطعت النفس وراحت في غيبوبة، حاول الخال أن يوقظها من غيبوبتها، إلا أنها على ما يبدو رفضت أن تعود إلى حياة لا حياة فيها لابنها، فأصرت أن تغادر روحها إلى حيث تسكن روح ابنها.

عاد الأخوة والأب مع صباح وهم يحملون جثمان أخيهم، برتل حكومي كبير ما بين حمايات مدنية وعسكرية، ورفعت بعض الأعلام العراقية على السيارات التي تتقدم الموكب، وكان في استقبالهم بعض المسؤولين الكبار، ومن ثم أخذت الإجراءات الطبيعية مثل أي متوفٍ ومن ثم ووري جثمانه التراب.

الفهرس

في أحدى المرات، وعلى غير العادة، حدث انفجار سيارة مفخخة، عند مفترق طرق، في مركز المدينة القديمة، وراح ضحيتها كثيرٌ من السابلة، والمارة بهدى الصدفة، والسكينة دون حسبان لمثل هذا الموت.

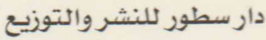
لكن ومن بشاعة الموقف وقد تقاذف الناس في كل الاتجاهات بعد ان تقطعت أجسادهم الى أشلاء، ومنظر الدم، ورائحته تثير الاشمئزاز، راح آخرون مع سبق الإصرار، والترصد على السلب، والنهب لتلك الأشلاء، وبالخصوص أعضاء النساء من اللاتي كُن يرتدين بعض الحلي الذهبية في أيديهن، وكذلك عند الرقبة والأذنين، وقد أصر أحدهم على نزع الخاتم من أصبع كان جزءًا من يد وجسد.

أرسل جبار بطلب ابن عمه للدخول الى المستشفى المركزي، بسيارته الخاصة، ففي مثل هذه الحالات تدخل المستشفى درجة الإنذار، فترفض الحالات العامة، وفي اتفاق مسبق مع أحدهم، دُرج ابن عمه على انه من ضحايا التفجير الإرهابي الأخير.

من ثم سعى جاهدا إلى سفره خارج العراق من أجل معالجته، وبعد ان دخل عدة مستشفيات على حساب الحكومة، لم يكن من بديل لحالته سوى صرف (طرف) له، ومن ثم أدخل إلى مستشفى آخر من أجل تدريبه على المشي بعد دورات في اللياقة البدنية.

Designed by **CMYK** Studio





بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07700492576 ـ07711002790
e.mail: bal_alame@yahoo.com


ISBN 978-1-9882952-7-5
9 781988 295275